لماذا نامَ الصّحويّون ؟

سَوانِح مِن زَمَن الصّحوَة

بقلم :
أ.د/ أحمد بن صالح الزهراني

١٤٤٧هـ/٢٠٢٦م

جميع الحقوق محفوظة

منصة أوراق عربية - www.aawraq.com
أحد مشاريع مؤسسة الأوراق الثقافية للنشر الإلكتروني.
ترخيص وزارة الإعلام رقم (٦٩٨٣٧)
موقعها الجغرافية: جدة - المملكة العربية السعودية
جوال: ([illegible])
البريد الإلكتروني للمؤسسة والمنصة: info@aawraq.com

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمنصة (أوراق عربية)
حقوق النشر الخاصة بالكتاب محفوظة للمؤلف

تنبيه
الآراء المنشورة في الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ومنصة (أوراق عربية) لا تتحمل أي مسؤولية أدبية أو قانونية

المزيد من الكتب
على المنصّة

الأيّام الخالية

بسم الله الرحمن الرحيم

انتقل إلى الفهرس

مقدّمة

مرت بالبلاد العربية والإسلامية في العقود الماضية حالة من العودة للإسلام أصوله وشرائعه وسننه وآدابه، فيما اصطُلح على تسميته بالصحوة الإسلامية.

ولقي هذا من الناس مواقف متباينة بين من يثني على الحالة ويثمنها وينخرط فيها بدور ما.

وفريق آخر وقف منها موقف العداوة المطلقة يمثلهم في ذلك رموز العلمانية ودعاتها ومخلفات الماركسية.

أمّا الأنظمة الحاكمة في البلاد العربية فاختلفت مواقفها بين محايد، وبين داعم بشكل أو بآخر، وبين مصادم.

وكانت الحالة العامة خاصة في العقود الأربعة الأخيرة متجهة إلى ظهور المدّ الصحوي وانتشاره واكتسابه زخماً كبيراً وقبولاً جماهيرياً، أعانه على ذلك ظاهر أمره من الدعوة للفطرة السوية والأخلاق وأحكام الإسلام كالصلاة ونحوها، والبعد عن الكبائر من خمر وزنىً وربىً وغيرها.

ولهذا أسباب يأتي شرح بعضها.

وعلى العموم فإنّ هذه الإيجابيات التي لمسها رجل الشارع وعامة الناس جعلت نقد الصحوة بشكل عام أو الاقتراب منها أو أحد مكوناتها جريمة في تصور الكثير منا، وعلى الخصوص أولئك الذين ظلوا بعيدا عن دوائر التأثير، أعني عن قادة العمل الصّحوي من علماء ودعاة وسياسيين

وغيرهم، لأنّ الأصل عندنا هو حسن الظن بصدق توجهات هؤلاء الذين رفعوا شعار الدعوة للإسلام وشرائعه ونادوا بتحكيم شرع الله في الشعوب الإسلامية وإعطائها حقوقها التي فرضها الله على حكامهم.

ولهذا كان النقد أو المعارضة مهما تكن ومن أي شخص تعتبر تعدياً على الإسلام ذاته.

وللأسف فقد كان منا مواقف، وكتبنا فيما مضى من المقالات ما يجب الاعتراف الآن أنها لم تكن موضوعية في كثير منها، بل كانت مجرد اصطفاف نتيجة استقطاب شديد لم يكن يسمح أو يعين من أراد الإنصاف أو النظر بموضوعية للحوادث والأشخاص والأفكار.

ونحمد الله تعالى أنّ الأمواج التي تقاذفتنا ردحاً من الزمن أسلمتنا إلى برّ الأمان بفضل الله ومنته، ثم بفضل اللجأ مرة بعد مرة إلى أقوال العلماء الكبار ولزوم غرزهم، والعودة دائما إليهم وإلى سيرتهم وأقوالهم وأفعالهم، وهم خير مثال وامتثال لمنهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

ورغم أني أزعم قلة تأثري -إلى حدٍّ ما -بحمد الله من كل ذلك الاستقطاب، ولقيت بسبب مقالاتي ومواقفي كثيراً من اللمز والهمز والإقصاء والنبذ والعزل ما يعرفه كل من حولي، إلا أني رغم ذلك ظللت لوقت طويل أكذّب نفسي وأحاول إيجاد المعاذير، ولعلّ وربّما، لكن الحقائق فرضت نفسها بقوّة، وكشفت كم خسرت الدعوة والشريعة، وكم جنى على الإسلام من يزعم نصرته والدعوة إليه، إلاّ قليلا من السلفيين الذين ظلوا

يصرخون ولا مجيب إلا بالنكاية والتنفير منهم والافتراء عليهم، للأسف الشديد، وكنت في بدء شبابي مشاركا في ذلك دون وعي.

وقد رأيت أن أنشر هذه المقالات التي نشرت بعضها سابقا وأبقيت بعضها، وهي لن تخطئ أحد شخصين: إما شخص غير آبه أصلا، وليس ممن يحمل هم الدعوة أو العمل للدين، ولم يعش تلك الفترة، فهذه المقالات قد تجعله يعيش بعضاً من أوقاتها أو حالاتها لعله يفهم على الأقل ويعي شيئا من تاريخ مضى.

وإما شخص من العاملين للدين ويحمل هم الدعوة إلى الله سواء من المتخصصين في العلم الشرعي أو من غيرهم، فهذه المقالات قد تفتح بصره وبصيرته على أخطاء السابقين – ونحن منهم- لأخذ العبرة منها وعدم تكرارها، وتعينه كذلك على معرفة الصواب في مسائل اشتبه فيها الحق بالباطل في طرح كثير من أهل الدعوة وخصومهم.

ولست في هذا الطرح قاصداً التثريب، فما مضى قد مضى، وليس همي والله إظهار العيوب فقط للتشفي أو إظهار العلو على الآخرين ولو كانوا مخطئين في نظري، كيف وأنا ألوم نفسي قبل غيري على كثير من تلك الأخطاء.

وإنما غرضي المشاركة كما سبق لي منذ سنوات في شأن أرى من المهم تنبيه غيري إليه خاصة الجيل الذي لم يعايش فِتَناً مضت قبل سنوات طويلة بين مكونات العمل الإسلامي إبان مرحلة الصحوة، لا يعلمون حقيقتها،

انتقل إلى الفهرس

ويجهلون منطلقاتها، جعلت كثيرا منهم فريسة سهلة لكل عدوّ للشريعة والدّين، يشوّه أحكامه ويلبّس عليهم دينهم.

أعرف أنّ الكثير من الأصدقاء فضلاً عن الخصوم لن يروق لهم ما سيقرؤونه في هذه الورقات، لكن من حق الشباب الناشئ في محاضن الإسلاميين أو خارج تلك المحاضن أن يعرف سبب الظاهرة، ومن ورائها، وهل كانت مشروعاً إسلامياً قتله أعداؤه، وهل كان سقوط الصحوة سقوطا للإسلام كما يتصور البعض أو يصّورونه، وإذا كانت الصحوة سقطت أو قتلت هل كان للإسلاميين دور في هذا، هل يتحملون مسؤولية السقوط أم أنّهم ضحايا كما يصورون هم كذلك؟

والله من وراء القصد.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

لماذا الآن؟

تمرّ المنطقة العربية وفي مقدمتها المملكة العربية السعودية في مرحلة حساسة من تاريخ الأمم والدول، الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية كذلك تمر بمرحلة استقلاب شديد، له ظروفه وملابساته وله أسبابه كذلك وليس هذا مجال الحديث عنها الآن.

جاء هذا مباشرة بعد هدوء عاصفة ما سُمّي زوراً بـ"الربيع العربي" الذي كان مشروعا لتغيير واجهة المنطقة كلّها لصالح الغرب وإسرائيل على أيدي قيادات واحدة من أسوأ الظواهر التي مرت بالأمّة في تاريخها ألا وهي ظاهرة "الإخوان المسلمين"، واستعملت مصطلح الظاهرة عمداً لأنّ الإخوان لم يظلوا جماعة كما في السابق بل تحولوا إلى ظاهرة صبغت كثيرا من مناحي التفكير العربي حتى ذلك الذي لا ينتمي إليهم تنظيمياً.

والمقصود هنا أنّ هذه التحولات التي أشرت إليها عقب فوضى "الخريف العربي" أدت إلى أمر إيجابي للغاية معاكس تماماً لمقاصد دعاة الفوضى، ألا وهو ظهور الدّولة بمعناها القانوني النظامي وبروزه وتسيّده للموقف في أكثر من بلد، ويهمني هنا المملكة بالذات لأني منها وأكتب لأجلها.

أجزم أنّ المملكة خاصة في القومة الثالثة لم يمر بها وقت كانت تشكّل في ذهنية المواطن أو المقيم على حدّ سواء مفهوم الدولة المعاصرة بقانونيتها

والحدية الواضحة بين مكوناتها وتقسيماتها كما تمر به الآن في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز حفظه الله.

بدا هذا واضحا منذ الوهلة الأولى ومن السنة الأولى في تصرف وسياسة ولي العهد الأمير محمد بن سلمان وفقه الله.

وفي ظني أنّ ما سُمي "بالربيع العربي" لفت الانتباه والنظر بشكل كبير إلى أمرين في غاية الخطورة:

الأوّل: غياب مفهوم الانتماء للدولة، إما بسبب الأوضاع المعيشية أو غيرها التي تجعل إحساس المواطن بالانتماء للدولة ضعيفا وتراه دائم الترقب للخروج والهجرة كما يحدث في كثير من الدول.

وإما بسبب العامل الفكري والعقدي الذي يجعل المرء يوجه انتماءه إلى غير الدولة سواء في الداخل أو الخارج، بمعنى أن يكون ولاؤه لقيادات خارج منظومة الحكم، سواء داخل البلاد أو خارجها، كما يحدث من أتباع الجماعات الأيدلوجية إسلامية الشعار كالقاعدة والإخوان وداعش وما يُسمّى "حزب الله" أو غير ذلك.

والأمر الثاني: غياب الإحساس بقيمة المكتسبات الوطنية، هذا الغياب الذي سمح للمخربين بالسيطرة على العقول والأفكار ومن ثم تحريك كل تلك الشعوب لتخريب أوطانها وهدم دولها.

فكل الأمن الذي تتمتع به شعوب المنطقة والرخاء النسبي والاستقرار السياسي لم يكن في نظر غالبيتهم أمراً يستحق المحافظة عليه، بل يمكن

التضحية به مقابل تغيير الأنظمة والحكومات التي هي في نظرهم كل المشكلة.

وهذا -في ظني- المحض عامل رئيس جعل رجالات الحكم في هذه الدول يعيدون النظر في سبب تدني هاتين القيمتين عند قطاع عريض من شعوب المنطقة خاصة في الخليج.

ولا أظن أحدا يمكن أن يفوته ملاحظة العامل الديني أو الفكري أو العقدي في هذين الأمرين، فكان ما كان من إعادة قولبة الفكر والنظام في هذه الدول ومنها المملكة ليكون بيئة طاردة لكل الأفكار الثورية أو العسكرية أو السياسية التي جعلت من مناوأة الحكومات والتطلع الدائم للسلطة محركاً لها، وعامل جذب للجمهور حولها، بغضّ النظر عن طبيعة مضمون هذه الأيدلوجيا سنية كانت أو شيعية أو حتى علمانية ليبرالية، فالأمر كما قال خادم الحرمين إنها حر ب على الغلوّ والتطرف بقطبيه الديني والعلماني الليبرالي.

وفي الجانب الآخر لا يخفى على أحد حملة مكافحة الفساد التي دشنها ولي العهد وفقه الله، وعلى خلاف كل الأعراف السائدة في السابق التي تجامل في تطبيق القوانين كان البدء في هذه الحملة - التي لم تهدأ حتى ساعة كتابة هذه الكلمات – من قمة الهرم، من علية القوم، بغض النظر عن مكانة الشخص السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، الكل تحت نصل هذه الحملة على حد سواء، الكبير قبل الصغير، والغني قبل الفقير، والوزير قبل الغفير- كما يقال-.

وهذا في رأيي أكبر قاعدة أرستها المملكة في عهد الملك سلمان لتحقيق مفهوم الدولة بمعناها القانوني قبل السياسي.

وسبق ذلك بطبيعة الحال ملاحقة حاملي فكر التكفير والتفجير ومسوقي مناهج الثورة والتغيير الثوري وإيقافهم للحدّ من تأثيرهم.

ولا يبعد عنهم كل من سولت له نفسه التساهل بقيمة الدولة وأهمية اللُّحمة وتوقير ولي الأمر والمحافظة على هيبة المُلْك، بغض النظر عن قضيته التي يحملها عامة أو شخصيّة، فالوصول للحقوق تم تيسيره بكل السبل حتى أصبح بإمكان أي شخص مقاضاة من شاء دون أن يغادر بيته، وكذلك الاحتجاج على أي وضع يراه مخالفا للشرع أو القانون عبر القنوات الرسمية التي شرعتها الدولة.

أما أن يتخذ ما يعتقد من مظلوميته العامة أو الخاصة سبباً لمخاطبة ولي الأمر أو أيّ من رجال الدولة عبر وسائل التواصل أو منابر المساجد أو القنوات أو حتى في تجمعات خاصة أو عامة فهذا كله أصبح تحت طائلة القانون، لأن هذه التصرفات هي التي أثمرت عبر عقود ثمرتها المرة التي ذكرناها أعلاه.

أما المناكفات السياسية التي كان يتولاها منتسبو جماعات الخراب عبر مواقعهم سواء من منابر المساجد، أو التعليم، أو الجامعات أو غيرها فتم القضاء عليها بحملة قوية أتت ثمارها بهروب جمهرة منهم وتحولهم إلى غربان على أشجار الغرب ينعقون الليل والنهار ويتشاجرون على فتات يلقيه إليهم

من وظفوهم وحالهم كما حكى الله عن حال بعض الناس يوم القيامة: يكفر بعضهم ببعض ويلعن بضهم بعضاً.

كان هذا لمحة سريعة لما حصل ويحصل الآن، ولا يبعد عنا كذلك ما يحصل في دول حولنا استوعبت الدرس جيداً، درس الثورات والفوضى والخراب الذي أعان عليه بل كان عرابوه جماعات الإخوان والسرورية ومَن شايعهم، وفي طيّ المحن تأتي المنح، فهذا الذي كنا نقوله عن هذه الجماعات لسنوات طويلة وكان كثير من الناس يحسن الظن بهم ويستبعد أن يشارك هؤلاء في خراب بلدانهم لكن الثورات أظهرت حقائقهم وأبانت عن أساساتهم ومنطلقاتهم واستعدادهم فكرياً وتنظيمياً وقيَمياً للمشاركة في مشروع الهدم وأصبح ما فعلوه الدليل الواضح على صدق ما قيل عنهم.

وفي خضم هذا تثور أسئلة لجيل نما وكبُر بعيدا عن محاضن الصحوة وبعضهم لم يدرك زمن قوتها ولا يعرف مِن الجماعات إلا الأسماء، ولا يدرك حقيقة ما جرى، وهذا سمح للأقلام المسمومة أن تستغل هذا الجهل عند جيل عريض من الشباب خاصة ذلك المتحمس للإسلام والشريعة لتصوّر الأمر برمته على أنه انقلاب على الإسلام وعداوة للشريعة واستبداد من الحكام والأنظمة واستيلاء على الثروات وبيع للبلاد.. الخ هذه الشعارات التي كرروها منذ عقود ويعيدون إنتاجها الآن.

لهذا أحببت أن أطرح هذه المقالات، وبعضها كتب في زمن سابق، لبيان أن قضية الجماعات التي استغلت زمن ما يُسمى بالصحوة في فرض أفكارها ورؤاها هذه الجماعات قضيتها ليس الدين ولا الشريعة، وإنما هي مطيتها

فقط، نعم لا يخلو الأمر من أفراد مغفلين تم تدجينهم لكن هؤلاء قلة ولا يمثلون الرأي العام والسيطرة والفكر.

والقصد بيان أمور تم إفساد التصور فيها وخلط الحق بالباطل بقصد أو بدون قصد، والغرض من هذا كله تصحيح الرؤية، لأن الصحوة وما قبلها وما بعدها أزمات تجري وأحداث تتوالى والإسلام وأمر الإسلام ليس مرتبطاً بزمان ولا بمكان ولا حتى بأشخاص، والمهم في كل هذا أن نفصل بين الإسلام كدين وشريعة وبين أفكارنا واجتهاداتنا واختياراتنا، فالإسلام أكبر من أي أحد، أكبر من الدول ومن الجماعات ومن العلماء ومن الأشخاص، ولن تُكتب كلمة – يعلم الله- إلا بمقصود صحيح رضي من رضي وسخط من سخط.

خاصة وأن جيلاً عريضاً من الناشئة لديهم كم هائل من الغبش حول هذه المعاني، الصحوة ورجالاتها والجماعات والعلماء والدول والثورات ووو الخ، وهم بحاجة لشهادات وآراء من عايش المرحلة أو جزءا منها، وليس ما يطرح خليا عن الخطأ ومرتفعا عن النقد بل هو رأي إن أصبت فيه فمن الله وحده وإن أخطأت فمن نفسي وأستغفر الله، والله من وراء القصد.

انتقل إلى الفهرس

ما قبل الصحوة

ظاهرة الصحوة لم تفاجئ من يقرأ التاريخ ومسار الأحداث، لقد كانت نتيجة تراكمات تاريخية طويلة عاشها العالم الإسلامي منذ القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين. فقد مرّت الأمة الإسلامية في تلك الفترة بمرحلة من الضعف السياسي، والتبعية الاقتصادية، والاضطراب الفكري، ودخول الاستعمار، إضافة إلى محاولات واسعة لتغريب المجتمعات الإسلامية وإبعادها عن هويتها الدينية.

كانت بحق مرحلة الأزمة الحضارية التي عاشها العالم الإسلامي، حيث انتقل من موقع الريادة الحضارية إلى موقع التبعية للغرب في كثير من المجالات.

سقطت الدولة العثمانية في الحرب العالميّة الثانية على يد الحلفاء، بعد أن دخلت الحرب مع هتلر ضدّهم، وكان ما كان من لعبة الحلفاء مع كمال أتاتورك الذي تولى زعامة العثمانيين وقام بتحويلها من دولة إسلاميّة تمثل حاضنة المسلمين في العالم كله ومرجعيتهم، إلى دولة مدنية عصرية.

وقد مثّل ذلك صدمة للمسلمين، خاصة بعد تقسيم البلاد الإسلامية فيما سمي بعد ذلك اتفاقية "سايكس بيكو"، ووضعت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من البلدان أيديهم على بلاد المسلمين استعماراً ونهبا للثروات، وإخمادا للثورات التي قامت ضدّهم.

كان الأمر أشبه بسفينة انشطرت في عرض البحر وتشظّت، فاجتهد الركاب بين ممسك بلوح، وبين مجموعة تركب قارباً، وبين غرقى في لجّة البحر.

وكان من هذه المجاميع من اجتهد في محاولة إصلاح السفينة واستعادة هيكلها وتجميع قطعها، وهذا ما حدث في العالم الإسلامي، إذ قامت حركات مقاومة هنا وهناك ضد الاستعمار.

وفي نفس الوقت أُسّست كيانات سياسية دخلت غمار السياسة في البلاد المستعمَرة.

وقد رضي المستعمرون في بعض البلاد أُسَراً حاكمة كما في بلاد المغرب والشام ومصر وليبيا والعراق وغيرها، في ظل وجود المندوب السامي الذي يعد الحاكم الفعلي لتلك البلاد.

وبطبيعة الحال جلب الاستعمار معه ثقافته وفكره ليغير من سلوك الشعوب التي يستعمرها أملاً في التطبع بطباعه فتكف عن المقاومة وتسلم بالأمر الواقع.

وهذا أدى إلى نشأة جماعات دينية أو حركات مناهضة للغزو الفكري والعقدي والأخلاقي الذي نشط فيه أبناء من تلك البلدان خاصة من غير المسلمين الذين على أيديهم أُنشئت المسارح ودور السينما وفتحت أندية الرقص والتعري وانتشرت دور البغاء الرسمي في بعض البلاد.

ولأن سقوط الدولة كان قريبا، ولأن البلاد الإسلامية محتلة من قبل الدول الغربية، ولأن الخلاف كان موجودا بين الأفراد المسلمين في طريقة

التعامل مع الواقع يومها فكان تأسيس تلك الجماعات يتسم بالشمولية في الأهداف، فغالب الجماعات من أهدافها مقاومة المحتل عسكريا، والمنافسة في الحكم سياسيا، ومناهضة الغزو الفكري والأخلاقي دعويا، وكان لابد لكل جماعة من فرض ولائها على الجمهور، لكسب التعاطف والتأييد والاستحواذ، ومن هنا نشط أفرادها في تنزيل نصوص الإمامة والأمّة والخلافة على الجماعة وزعمائها، بل تشكل بعضها من أول يوم على أساس أنها الجماعة الأم التي يجب تجميع المسلمين حولها في كل الأرض لتكون أمة الإسلام.

ولكن هذا تعارض مع وجود الزعامات الحاكمة سواء كانت أُسَرا حاكمة أو مفوّضين من قبل المحتل، وكذلك ناهضهم كيانات سياسية تشاركهم في المبدأ الثوري لكنها تخالفهم في المضمون والمنطلق العقدي والفكري، وأكثرها الأحزاب اليسارية والاشتراكية التي كانت قوية بوجود الاتحاد السوفييتي وقتها.

وأدى هذا إلى ظهور نقاشات فكرية واسعة حول شكل الحكم في الإسلام.

وبدأ كثير من المفكرين المسلمين يطرحون سؤالاً مهمًا: كيف يمكن إعادة بناء الأمة الإسلامية بعد سقوط نظامها السياسي الجامع؟ وكيف يكون شكل العلاقة مع الدول القومية؟

ومن أبرز العوامل التي أثرت في واقع العالم الإسلامي قبل ظهور الصحوة الإسلامية الاستعمار الأوروبي الذي سيطر على معظم البلاد الإسلامية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

فقد كانت أغلب الدول الإسلامية في تلك الفترة واقعة تحت الاحتلال المباشر أو النفوذ السياسي للقوى الغربية، وأدى إلى تغيرات عميقة في بنية المجتمعات الإسلامية، من أبرزها:

١ . تفكيك الأنظمة السياسية التقليدية وإلغاء كثير من الأنظمة السياسية الإسلامية، واستبدلت بها أنظمة إدارية وقانونية مستمدة من النظم الأوروبية.

٢. فرض القوانين الغربية واستبدال القوانين الوضعية الأوروبية بالشريعة الإسلامية في مجالات واسعة من القانون، خاصة في مجالات: القانون المدني والقانون الجنائي والإدارة السياسية.

٣. كذلك أنشأت القوى الاستعمارية مدارس وجامعات تعتمد على المناهج الغربية، وأصبح التعليم الحديث منفصلًا إلى حد كبير عن التعليم الديني التقليدي.

٤ . ورافق ذلك نشاط ثقافيٌّ واسع تمثل في البعثات التبشيرية، الصحافة الغربية، والترجمة، والبعثات التعليمية إلى أوروبا.

وقد أدى ذلك إلى ظهور طبقة من النخب المثقفة التي تأثرت بالثقافة الغربية، وأصبحت تدعو إلى تبني نماذج الحضارة الغربية في مجالات السياسة والثقافة والاجتماع.

انتشار الفكر القومي والعلماني

بعد نهاية الاستعمار المباشر في منتصف القرن العشرين ظهرت في كثير من الدول الإسلامية أنظمة سياسية جديدة تبنّت أفكارًا قومية أو علمانية، كالقومية العربية، والقومية التركية، والاشتراكية العربية، والليبرالية الغربية.

وقد كانت هذه التيارات ترى أن التقدم يتحقق من خلال بناء الدولة القومية الحديثة، على غرار النموذج الأوروبي.

ولهذا اتجهت بعض الأنظمة السياسية إلى تقليص دور الدين في المجال العام، وجعل الدين مسألة شخصية، وبناء الدولة على أساس قوميٍّ أو وطنيّ بحت، بدلاً من الأساس الديني.

وقد تأثر هذا الاتجاه بما عرف في الفكر الغربي بنظريات التحديث التي رأت أن المجتمعات الحديثة يجب أن تقوم على أسس علمانية.

وكان من نتائج هذه السياسات تراجع دور المؤسسات الدينية التقليدية، وحدوث صراع فكريٍّ بين التيارات الإسلامية والتيارات العلمانية، وظهور حركات دعوية تسعى إلى إعادة الاعتبار للهوية الإسلامية.

ومن قرأ أو اطلع على الإنتاج الثقافي في تلك الحقبة في بلدان الصراع كالشام ومصر بالذات عرف كم كانت المعركة حامية الوطيس بين المفكرين الإسلاميين –على مختلف مشاربهم- وبين خصومهم.

الأزمة الحضارية والتأخر العلمي

من أبرز مظاهر حالة العالم الإسلامي قبل ظهور الصحوة الإسلامية التراجع العلمي والحضاري مقارنة بالعالم الغربي.

فبعد أن كانت الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى منارة للعلم والمعرفة، شهد العالم الإسلامي منذ القرون المتأخرة حالة من الركود العلمي والفكري.

وقد أشار كثير من الباحثين إلى أن العالم الإسلامي دخل مرحلة من الضعف العام شملت مختلف مجالات الحياة، سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الفكر أو الاجتماع.

وفي المقابل شهدت أوروبا ثورة علمية وصناعية وتوسعاً في الجامعات ومراكز البحث العلمي، أدت إلى اتساع الفجوة الحضارية بين العالم الإسلامي والغرب.

وكان هذا الوضع أحد العوامل التي دفعت كثيرًا من المفكرين المسلمين إلى البحث عن أسباب التخلف، وطرح مشاريع إصلاحية لإحياء الحضارة الإسلامية.

انقسامات داخل العالم الإسلامي

إضافة إلى ما سبق كان العالم الإسلامي يعاني أيضًا من انقسامات داخلية متعددة.

فبعد انهيار الدولة العثمانية ظهرت عشرات الدول القومية في العالم الإسلامي، ولكل دولة مصالحها وسياساتها الخاصة.

وشهدت المجتمعات الإسلامية صراعًا بين عدة تيارات فكرية، منها القومي، ومنها الاشتراكي، ومنها الليبرالي، ومنها الإسلامي.

أدى هذا الصراع إلى حالة من الاستقطاب الفكري والسياسي في كثير من البلدان.

كما شهدت بعض الدول الإسلامية انقلابات عسكرية وصراعات على السلطة، مما أدى إلى حالة من عدم الاستقرار السياسي.

الهزائم العسكرية والأزمات السياسية

شهد العالم الإسلامي خلال القرن العشرين عددًا من الأزمات والهزائم التي زادت الشعور بوجود أزمة حضارية وتضخّم أزمة الهوية.

ومن أبرز هذه الأحداث:

قيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م، وهزيمة الجيوش العربية في حرب ١٩٦٧م، والاحتلال الإسرائيلي لفلسطين.

ونشأ بسبب ذلك انتشار الفقر والتفاوت الاقتصادي في كثير من الدول الإسلامية.

وقد أدت هذه الأحداث إلى اهتزاز الثقة بالمشاريع السياسية القومية التي كانت سائدة في تلك الفترة.

وبعد هذه الأزمات بدأ كثير من الشباب والمثقفين في العالم الإسلامي يبحثون عن بدائل فكرية تعيد للأمة قوتها وهويتها.

في ظل هذه الظروف بدأت منذ منتصف القرن العشرين حركات فكرية ودعوية تسعى إلى إحياء الهوية الإسلامية.

وقد ظهرت هذه الحركات في عدة مناطق من العالم الإسلامي، كمصر، والهند وباكستان، ودول الخليج، وشمال أفريقيا.

انتقل إلى الفهرس

ومع نهاية السبعينيات بدأ تأثير هذه الحركات يتوسع بشكل كبير، حتى أصبحت الصحوة الإسلامية ظاهرة بارزة في كثير من المجتمعات الإسلامية.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

الحداثة

الحداثة في حقيقة جوهرها هي المشروع الذي قدمه فريق من هذه الأمة للخروج بها من حالة التخلف واللحاق بركب الحضارة الذي فات الدول العربية والإسلامية بسبب الظروف التي مرت ببعضها.

كانت الفكرة لدى رواد الحداثة أن الأسباب التي نتج عنها قيام الحضارة الغربية هي وحدها –وجوبا- التي يمكنها انتشال البلاد العربية والإسلامية مما هي فيه.

وهذا الطرح كثير منه ساذج تلقف ما أوحى به أساطين الفكر الغربي الإلحادي الذين شخصوا حالة أوروبا وتخلفها فيما سُمّي بعصور الظلام بأسباب محددة أهمها تسلط الدين والفكر الديني ورجالاته على المجتمعات الأوروربية، وأن أوروربا إنما انفكت من قيود الجهل والتخلف حين تحررت من قيود الدين.

وبالتالي كان أهم ملامح حركة الحداثة التي نشأت في الدول العربية والإسلامية هو معاداة الدين خاصة إذا قيل بفكرة حاكمية الدين على الحياة بمجالاتها المتعددة.

وهي في حقيقتها امتداد لفكرة الحداثة في الغرب، أي مجرد استنساخ دون مراعاة الفروق الجوهرية بين واقع أوروربا وبين ديار العرب والمسلمين، ودون النظر إلى الاختلاف بين الإسلام عقيدة وشريعة وبين الدين المحرف

الذي كان متحالفا في أوروربا مع الملوك والإقطاع وسخّره رجالاته لخدمة هذين المكونين.

وإنما أذكر الحداثة هنا لأشير إلى واحد من أسباب الغلوّ والتشدد الذي كسى اتجاهات التدين الصحوي وما حوله، لأننا لا يمكن أن نفهم الخلل في الصحوة من خلال سياقاتها الذاتية فقط بل لابد من معرفة أثر الفعل الانعكاسي الناتج من الخوف والغضب والاحتقان ضد التيار الحداثي الذي كاد أن يسلخ الأمة من دينها سلخا ونجح في كثير من الأماكن فعلا وتسامع الناس به وبما أحدثه في المجتمعات التي مكنت له كما كان الناس يسمعون بالمغول والتتار حين كانوا يسقطون المدن الإسلامية مدينة تلو أخرى.

وقد يكون لبعض الطرح الصحوي تضخيم ومبالغة ولكن ذلك لا يؤثر في رؤيتنا، لأن الحداثة في صورتها التي أرادها أصحابها وروادها كانت خطيرة فعلاً ومراميها لا تقل خطراً ولا أثرا عن الحملات الصليبية التي استعمرت بلاد العالم.

فقد كانت الحداثة التي نتحدث عنها انسلاخاً صريحاً وواضحاً عن كل قديم وموروث، وذلك للتجربة الغربية المريرة مع طغيان الكنيسة، وتحالفها مع السلطة الظالمة، وجشع الإقطاعيين، وتحريم العلم وقمع المفكرين، فالإنسان الغربي مَرّ بمراحل عصيبة لم يثبت أمامها لضعف عقائده وبطلانها، حيث اعتنق الوثنية ثم لفظها، ثم قدّس المسيحية حتى ثار عليها وسماها بعصور الظلام، فعشق الطبيعة ثم هجرها، وعشق الواقع ففرّ منه مذعورًا، فقرر الكفرَ بالله صراحة، وحمَل المادية التاريخية والجدلية ثم كفر

بها، فقال: إنّ الفن للفن، وما لبث حتى كفر بذلك، فدعا إلى الحرية والإخاء والمساواة دعوة طلاء وغشاوة، حتى جاءت الوجودية فأزالت الطلاء والغشاوة، وجعلت الحرية فوضى، والالتزام تفلُّتا، والإيمان بأي شيء كفرًا، فلم يعد في حياة الإنسان الغربي إلا أن تنفجر كل هذه المذاهب انفجارًا رهيبا يحطّم كلّ قيمة، لتعلن يأسه وفشله في أن يجد أمنا وأمانًا روحيا وفكريا، وجاءت الحداثة لتمثل هذا الانفجار الرهيب اليائس، انفجار الإنسان الذي لم يعرف الأمن في ذاته آلاف السنين، فجرب كل ما أوحت به الشياطين، جرب العلم والمال والطبيعة، فما أفادته بشيء، فكفر بها جميعا، وعبر عن هذا الكفر بالحداثة.

وجاءت الحداثة العَربية امتدادا للحداثة الغربية، محاولة تطبيق النموذج الغربي على الحياة العربية والإسلامية، وذلك من خلال أفكار وتوجهات معينة، وقد اعترف معتنقو هذا المذهب بتبعيتهم الصريحة، وأنهم في ذلك مجرد إمعات تتبع الغرب، ومن ذلك قول أنيسة الأمين: «الحداثة هي حداثة الغرب، نتاج تاريخ يقارب المائتي عام من التحولات والتغيرات والثورات، ونحن نتلقّى أشكالها وتجلياتها المادية والفكرية والأخلاقية دون أن نعيش الخضات التاريخية الكبرى التي أنتجت هذه الظاهرة العالمية، فالحداثة ارتبطت في نشأتها وفي مفهومها بالفكر العربي، وهي تعبير عن التحول الحضاري في أوروبا وفي أمريكا وواقعهما التاريخي، وأن العالم لم يعرفها إلا من حلال استيراده الذي لا ينقطع لنظم الحياة الغربية».

وعلى عكس ما يوحي به اللفظ من بريق التحديث والتطوير، الذي يسعى إليه كل إنسان بفطرته، والدين لا يقف في وجه التطوير أبدا، وتعاليمه لا تتعارض معه إلا في تصور النزق ضيق العطن، إلا أن الحداثة ركزت على قضية ارتباط القدرة على التحديث بهدم الماضي ونقده ونسفه واعتباره مادة قابلة للرفض والنقاش مهما كان مصدره.

وبذلك تسبب الحداثيون بطروحاتهم في خلق آثار سيئة على عقائد الناس وإيمانهم وأخلاقهم، حيث سعت في هدم العقيدة وإزاحتها من القلوب والعقول والأعمال، أو على أقل الأحوال التشكيك في ثبوتها وصحتها، فمن هذه الآثار الخطيرة:

الأول: نفي وجود الله تعالى أو التشكيك في ذلك؛ وجحود أن لهذا الكون خالقًا ومدبرًا، وإبعاد الثنائية عن العالم والإنسان، وإزاحة مفهوم أن الكون ينقسم إلى خالق ومخلوق، وفي هذا الصدد يقول حسن حنفيّ: «إن العالم مقسوم إلى قسمين: اللهَّ والعالم، فينعكس ذلك حتمًا في المجتمع، على السلطان على الحاكم والمحكوم، وسينعكس في الأسرة على الرجل والمرأة، والسؤال الموجه لك هو: أن هناك ثلاثة اختيارات، اختيار حركة تحرر المرأة... في البداية لتحرير المرأة من الرجل، وهناك المثقف العلماني الذي يبدأ بتغيير النظام السياسيّ، وهناك الذي يحاول تثوير الدين، ما لم نقض على هذا التصور الثنائي للعالم ورؤية العالم بين حاكم ومحكوم، وعلى المستوى الدينيّ بين خالق ومخلوق، فلن تستطيع حركات تحرر المرأة أن تفعل شيئًا، ولن

يستطيع المثقف العلمانيّ أن يؤدي دوره ما لم نقض على هذا التصور، هذا السؤال الأول في آليات التغيير).

الثاني: السخرية والتدنيس والاستخفاف بالله تعالى وألوهيته جلَّ وعلا، وجحد حق العبادة له سبحانه وتعالى، والسخرية بالعبادة ومظاهرها، وعبودية غير الله تعالى، والحيرة والشك في الغاية من الحياة ووجود الإنسان، والزعم بأن الوجود عبث، واحترام الكفر والإلحاد وملل الكفر وامتداح أهلها والثناء على أقوالهم وأعمالهم الضالة.

ومن المعلوم أن توحيد الألوهية هو: إفراد الله بالعبادة والطاعة، والاعتقاد الجازم أن الله هو المعبود الحق وما سواه باطل، وهو الذي يجب إفراده بالعبادة قولًا وفعلًا وقصدًا، فلا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وهذا النوع من التوحيد هو الذي بعث الله به الرسل، وأنزلت به الكتب، وهذا التوحيد هو معنى "لا إله إلّا الله"، وأهله هم حزب الله، وأهل رحمته ورضوانه وجنته، ومنكروه أو منتقصوه هم أعداء الله وأهل غضبه ومقته، وهو محور الدين كله وأساس كل شيء فيه، فإن صح صح كل شيء، وإن فسد فسَد كل شيء.

إن إسقاط الألوهية والعبودية بعد جحد وجود الله وربوبيته من أهم الأسس التي تمارسها الحداثة في سائر أعمالها ومنطلقاتها، وهو ما قرره في تلمود الحداثة "الثابت والمتحول" فقال: «لم يعد الإنسان عبدًا لله ولا خاضعًا له، أي: لم تعد علاقته به علاقة عبد بسيد... ولم تعد هذه العلاقة علاقة مخلوق بخالق...».

فصراع الحداثة مع الإسلام ليس إلّا امتدادًا للصراع القديم بين الإسلام والكفر، والإيمان والجاهلية، وحزب الرحمن وحزب الشيطان، وأكبر دليل على ذلك أنك تجد أشد شيع الحداثة عتوًّا ركزوا جهدهم منذ البداية على نسف الحقائق الأولية لدين الإسلام: الربوبية والألوهية على وجه الخصوص، ثم النبوة والوحي والغيبيات، يقول أحد الحداثيين وهو يقرر فكرة تأليه الإنسان بدلا من ألوهية الله سبحانه وتعالى: «ما عاد الإنجاز يقاس بالانسجام مع مفاهيم غيبية، بل مع عمل يتَّجه صوب أهداف موضوعية عقلانيًّا، وفي إيجاز فإن السلوك بدأ يقاس في ضوء قيم جديدة... فالإنسانية إذًا هي خالدة وحدها دون سواها، مستبدلًا بفكرة الألوهية فكرة البشرية كما فعل كونت».

يقول إحسان عباس: «وأصبح التطور لا يعني انتقال سمات مذهب شعريّ في حقبة ما إلى سمات مذهب آخر في حقبة أخرى، بل أصبح حركة متسارعة بعدد الأفراد الذين يقولون الشعر، وبذلك قضى على فكرة الخلود الكلاسيكية، وأصبح التميز في الدائرة الشعرية مرحليًّا، وصحب هذا كله إيمان بأن كل قيمة ثابتة -أيًّا كان منبتها ومهما تكن مدة ثباته- فهي تشير إلى الركود أو التخلف والجمود، سواء أكانت تلك القيم تتصل بالدين أو بنمط حياة أو طريقة تفكير، وكان هذا الوجه من النظر يصيب أكثر ما يصيب مؤسسة قائمة على ثوابت ضرورية مثل الدين -وخاصة الدين الإسلاميّ في صورته السنية- من حيث إنه صورة كبيرة من صور التراث، والحق أن الإنسان الحديث حين يعتقد أنه يعيش في كون قد غابت عنه الألوهية، فإنه

لا بد أن يعيد النظر في كثير من القيم التي كانت تتصل بالنواحي الغيبية، ولكن الإسلام ليس قاصرًا على هذا الجانب، وإنّما هو أيضًا نظام حياة وأسلوب تنظيم، وبما أن التنظيم يعني ثبات قيم معينة، فإن الثورة على التراث كانت تتناول هذا الجانب منه أيضًا».

وهذا النص يحتوي عدة قضايا:

١- أن التطور -أصل الأصول الحداثية- لا يعني التجديد الفنيّ، بل القضاء على فكرة الثبات والأصول والقواعد والضوابط الاعتقادية والفكرية والخلقية.

٢- أن أول قضية يتصدى لها "مبدأ التطور الحداثيّ" هي قضية الدين، وتصديه لها بطريقة الزحزحة والإزاحة والإذابة والإبعاد.

٣- أن الدين المقصود والمستهدف من هذه الخطة الإبليسية الحداثية هو دين الإسلام، وعقيدة أهل السنة والجماعة على وجه الخصوص.

٤- أن المراد بالتراث عند حديثهم عن مواجهة التراث وهدم التراث ومحاكمة التراث وإزاحة التراث هو الدين الإسلاميّ.

٥- اعتقاد الحداثيين أن الإنسان الحديث يعيش في كون غابت عنه الألوهية، وهذا هو مربط مقاصدهم في مصطلحات التطور وعدم الثبات والتجديد في مقابل الجمود والتراث.

٦- أن جحد الألوهية والزعم بغيابها عن واقع الإنسان -والمراد الألوهية التوحيدية حسب العقيدة الإسلامية- لا يقتصر عند مجرد الجحد النظريّ، بل يمتد إلى كل مقتضيات الألوهية، إلى النظر إلى أن الإسلام نظام

حياة وأسلوب تنظيم؛ لأن النظام ثابت، والإسلام ثابت، ولا بد من تقويض الثابت والمؤسس والمنظم والمؤصل كيما تسود الحداثة الهادمة الفوضوية التخريبية.

٧- أن هذا النص وإن كان وصفًا تحليليًّا لواقع الحداثة إلّا أنه إقرار ضمنيّ من صاحبه بسلامة وصحة هذا المنحى الإلحاديّ الذي وصفه وشرحه، وهو في أحسن الأحوال يصف وكأن الأمر -أمر الألوهية والدين الإسلاميّ- لا يعنيه من قريب أو بعيد.

ولما كانت الحداثة بهذه المثابة من التصور والاعتقاد وجدنا أن كُتابها ومنظريها ودعاتها وأتباعها يحومون حول هذه المعاني سعيًا لقطع الصلة بالإسلام أولًا لكونه يشكل القوة الفاعلة المناقضة لاعتقاداتهم الباطلة، ولكونه عالج مشكلات الانحراف الاعتقاديّ والعمليّ منذ أول وهلة في صراعه مع الكفر والشرك والإلحاد والوثنية، وكشف عوار هذه الانحرافات التي أوبقت الإنسان وردته إلى أسفل سافلين، ولكون الإسلام يحتوي على القوة البرهانية الدامغة، ويتحدى بقوة حقيقية كل ألوان وأشكال الزيف والردة والانحطاط.

الثالث: السخرية بأسماء اللهَّ وصفاته، ومخاطبته تعالى بما لا يليق به، ووصفه وتسميته بأسماء وأوصاف النقص، ووصفه جل وعلا بما لم يصف به نفسه، وإضافة أشياء إليه تهكمًا واستخفافًا به تعالى وتقدس.

إن أدب الفوضى الحداثية قد فاض قبحه، وانتشر نتن عقائده، وأول منطلقاتهم في ذلك النيل من جلال اللهَّ وعظمته وقداسته جلَّ وعلا، لقد

قامت مدارسهم العديدة على ثالوث الحداثة المدمر: "التجاوز والتمرد والرفض". وأول شيء في تجاوزهم وتمردهم ورفضهم هو الدين، وخاصة دين الإسلام القويم.

الرابع: إشاعة الفوضى العقدية والثقافية في العالم الإسلامي بين كثير من القارئين؛ لأن الصحف والمجلات والكتب التي تخاطب الشباب كثير منها منطلقاته حداثية، ثائرة على العقيدة القويمة، وبخاصة أن تلك المقالات الحداثية تدغدغ عواطف الشباب وأدعياء الثقافة والمبتدئين، بعباراتها الأدبية والإبداعية المبطَّنة بالتمرد على المعتقد الصحيح والقيم النبيلة.

ومن تتبع الصحف والمجلات والأندية والمهرجانات واللقاءات الأدبية والثقافية يتبين له أن أثر الحداثيين جدّ خطير على عقيدة المسلمين، وذلك أنهم خدعوا كثيرًا من الناس، وبخاصة الشباب ذكورًا وإناثًا، فاتبعوهم على مذهبهم وهم صغار لا يفقهون أهداف الحداثة ومقاصدها، فكم من شباب صغار جهال يتجرؤون على نقد الأحكام الشرعية ولمز العقائد الموروثة والقدح بالأئمة والعلماء، بينما يدعون إلى الاقتداء بأئمة الحداثة وقادتها الذين هم في نظرهم الطبقة المثقَّفَة والنُّخبة والصّفوة.

الخامس: إيجاد طبقة معزولة عن المجتمع سياسيًّا وعقديًّا، فالنظام المطبق في البلاد لا يعجبها، بل -كما هو المنهج الحداثي- ترى ضرورة رفضه والثورة عليه.

والعقيدة الموروثة والشريعة المألوفة لا تخضع لها، ولا ترضى بها، بل لا بد من التمرد عليها وتخطيها. والواقع كله رجعي متخلف، في سياسته وعقيدته وأخلاقه وأعرافه، يجب تجاوزه بعد تهديمه.

فهذه الطائفة أو الطبقة عنوانها: القلق الدائم، والإحساس بغربة زمانية ومكانية وفكرية -أي: عقدية وشرعية وخلقية-.

هذه الغربة سببها الشعور بضرورة الانفصال عن سياسة الدولة وعلم العلماء، وقبل ذلك العقيدة الموروثة السائدة والمعروفة.

فهي في السياسة تتطلع إلى سلطة فوضوية لا تحرم محرمًا، ولا تمنع قولًا أو عملًا، بل إنهم يرفضون السلطة تمامًا.

وفي العقيدة تتطلع إلى فلسفة وضعية حديثة غربية، أو إلى منهج الفلسفات الغربية، لا تؤمن بدين، ولا تصدر عن تراثية قديمة.

وفي الأخلاق والسلوك تسعى إلى العبثية والحرية الجنسية؛ حيث لا يبقى شيء محرم في العقل الحداثي.

ثم إن هذه الطبقة تسعى جاهدة إلى التغلغل في وسائل التربية والتعليم والإعلام والتوجيه في بلاد المسلمين؛ لتربية الأجيال على منهجها الغريب.

في مقدّمته لكتاب "المنبوذون في الأرض" كتب اليهودي الفرنسيّ "جان بول سارتر" حامل لواء الوجودية: «كنَّا نُحْضِر رؤساء القبائل، وأولاد الأشراف والأثرياء والسّادة، من أفريقية وآسيا، ونطوف بهم بضعة أيّام، في أمستردام، ولندن، والنرويج، وبلجيكا، وباريس، فتتغيّر ملابسهم، ويَلْتَقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعيّة الجديدة، ويرتدون السّترات

والسراويل. ويتعلّمون منا طريقةً جديدة في الرَّواح والْغُدُوّ، والاستقبال والاستدبار، ويتعلّمون لغاتنا، وأساليبَ رَقْصِنَا ورُكوب عربتانا، وكُنَّا نُدَبِّر لبعضهم أحياناً زواجاً من أوروبيّة، ثُمَّ نلقِّنُهُمْ أسلوبَ الحياة على أثاث جديد، وغذاء أوروبيّ، وكُنَّا نضعُ في أعماق قلوبهم الرغبة في أوروبّة بلادِنا، ثم نرسِلُهم إلى بلادهم، وأيّ بلاد؟!

لقد كانت أبوابُ بلادهم مغلقة دائماً في وجوهنا، لم نكن نجد منفذاً إليها، كُنَّا بالنسبة إليها رِجْساً ونجساً وخَنَا، كُنَّا أعداءً يخافون منا، وكأنّهم همجٌ لم يعرفوا بشراً، لكنّا بمجرد أن أرسلنا المفكرين الذين صنعناهم إلى بلادهم، كُنّا بمجرّدِ أن نصيح من أمستردام، أو برلين، أو بلجيكا، أو باريس، قائلين: "الإخاء البشري" نرى أنّ أصواتنا يرتَدُّ من أقاصي أفريقية، أو من فجّ من الشرق، الأوسط أو الأدنى أو الأقصى، أو شمال أفريقية.

ثمّ إنّنا كنّا واثقين من أنّ هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمةً واحدةً يقولونها غير ما وضعنا في أفواههم، ليس هذا فحسب، بل إنَّهم سُلِبُوا حق الكلام عن مواطنيهم.

هذا دور المفكّر الّذي يتشكّل بالشَّكْل الأوروبّي، ويلْعَبُهُ في الدُّول الإسلاميّة، إنّه دور "دليل الطريق" للاستعمار في البلاد التي لم نكن نعْرفُها، أو نعرفُ لغاتها، وهو السوس الذي عمل في الشرق من أجل تثبيت موادّنا الثقافية والاقتصادية والأخلاقية والفلسفيّة والفكريّة، المسمّمة للاستعمار الغربيّ، داخل هذه الأشجار الوارفة الأصيلة.

هذا هو السوس الذي كُنَّا صنعناه وسمَّيْنَاهُ بالمفكرين، كانوا عالمين بلغاتنا، وكان قُصَارى همِّهم، ومُنْتَهى أمَلِهم، أنْ يصبحوا مثْلَنا، في حين أنَّهم أشباهُنَا، وليسوا مثلنا.

إنَّهُمْ نَخَرُوا من الداخل ثقافة أهليهم، وأديانهم القوميّة، الّتي تصنَعُ الحضارات، ونَخَرُوا مُثُلَهُم وأحاسيسهم وأفكارهم الجميلة، وأصالتَهُم الأخلاقيّة والإنسانيّة، وتحتَ أيِّ شعار؟ وبأيِّ اسم؟

باسْمِ مقاومة الخرافات، أو مكافحة الرّجعيّة أو الوقوف ضِدّ السلفيّة».

وهذا ما حصل بالفعل والواقع يشهد له.

ولا تمانع هذه الطبقة من استعمال "لغة التراث" للوصول إلى جماهير الناس، ومن ثم تربيتهم على المنهج الحداثي ومبادئه، بل إنهم يوصون بعضهم بذلك، وتأمل قول الحداثي اليساري حسن حنفي: «الخطاب الإسلامي يعرف كيف يقول وكيف يتكلم، إنه يستعمل لغة القرآن والحديث، وهذه اللغة -كما تعلمون- هي جسر الإعلام والمشايخ تلهب مشاعر الناس، إلا أن هذا الخطاب لا يعرف ماذا يقول: لا يتكلم لا في تحرير الأرض، ولا في العدالة الاجتماعية، ولا في الحريات العامة، ولا في القهر الاجتماعي، ولا في الفقر، ولا في الغنى، أي: أنه فارغ المضمون.

أما الخطاب العلماني فإنه يعرف ماذا يقول، يتكلم في قضايا الواقع والمجتمع والحرية والقهر والعدالة، لكنه لا يعرف كيف يقول: لأنه لا يستعمل لغة التراث، وبالتالي لا يصل إلى جماهير الناس، فمرة يستخدم الماركسية، ومرة الليبرالية.. ومرة جون ستيوارت، ومرة القومية... وهل

هناك نموذج أوضح من عبد الناصر؟! لقد انتهى؛ لأنه لم يستعمل الخطاب الإسلامي إلا للدعاية وضد الإخوان، أنا في حقيقة الأمر أبحث في خطاب يعرف كيف يقول، ويعرف ماذا يقول في آن واحد، ليس المهم التوفيق، فالتوفيق مدانٌ علميًّا، أما بالنسبة لي، فإني أعتبر أن البحث العلمي والعمل السياسي هما شيء واحد».

السادس: السخرية من الأخلاق الإسلامية والدعوة إلى الانحلال والفوضى الخلقية.

من أخلاقيات الحداثة دعوتهم إلى الإباحية الجنسية من خلال استخراجهم لأقوال الزنادقة من الصوفيين والباطنيين، وإشادتهم بها، ودعوتهم إلى الأخذ بما فيها، ومن خلال تقريرهم أن الإباحية هي أصل التحرر والتحضر والازدهار، وأن الحرية الجنسية أساس كل حرية.

وأكثروا من ذكر أم الخبائث وامتداحها، بل إن تعاطيها عندهم من أبسط الأمور وأهونها، وأقوالهم الواصفة للخمر وأحوالهم معها كثيرة.

ومن ذلك استعمال العبارات القذرة: إذ لتعفف عن ذكر الأشياء القذرة بأسمائها أو الإشارة إليها بالكناية والتعريض دليل على رفعة الذوق وسلامة السلوك، وفي الإسلام تسميات من هذا القبيل مثل قضاء الحاجة، والغائط، والجماع، والنكاح، والمقارفة، والبضع، والعذرة، وغير ذلك.

أمَّا عديمو الذوق ومنتكسو الفطر فلا يأبهون بترديد أحقر العبارات وأقذرها، وهذا منتشر في كتبهم.

السابع: تجرؤ بعض النساء على الأحكام الشرعية بنقدها والخروج عليها، وحجتهن في ذلك أقوال الحداثيين وشبههم.

فأصبحنا نقرأ ونسمع من ينادين برفض الحجاب؛ لأنه رمز العهود المظلمة والعصور الوسطى، ويطالبن بالحرية والاختلاط؛ لأنهما علامة التقدم والتحضر، وأن الفكر الحديث يوجب التمرد على العادات والتقاليد القديمة.

ومن ذلك الأثر انتشار الكتابات النسائية التي تحمل مخالفات عقدية، وتنطلق من منطلقات حداثية تمردية، وهي كثيرة، بل وفي بعضها قلة أدب وسوء خلق، تعجب من جرأة كاتبتها.

تقول الحداثية فاطمة المرنيسي: «وأنا أنضم إلى خالدة سعيد في طرحها للحل، وهو إعادة رسم خارطة المقدّسات، وهذا هو ما فعله الغرب؛ لأنهم فرّقوا ما بين الإيمان والخضوع، وفي رأيي أن الإيمان عقيدة، أو قضية شخصية واختيار شخصي، ولكن الخضوع للسلطان يختلف تمامًا عن الإيمان، فالإيمان لا علاقة له بالسلطة السياسية».

وقد كانت الحداثية خالدة سعيد تتساءل عن حل مشكلة الحداثة في العالم الإسلامي، وكان من الحلول حذف الإسلام! إلا أنها رأت أن حذف الإسلام صعب، والسعي إليه مطلوب؛ لأن الإسلام بنية عميقة راسخة في نفوس المسلمين؛ ولذا فمن الصعوبة حذفه، ولو قام في البلاد العربية أتاتورك جديد، أما الحل عندها فهو: إعادة رسم خارطة المقدسات.

ثم قالت فاطمة المرنيسي: «الحداثة ليست هي ثقافة النخبة، بل أصبحت ثقافة الشعب... لقد كنت حتى السنوات الأخيرة امرأة منسية، امرأة مسكينة، تكتب وتكتب بالفرنسية، وهي غريبة ومغربة... إلخ، ولكنني أصبحت بغتة صوتًا غريبًا يفجع الإسلام ويفجر قنبلة، كيف تحولت من ١٩٪ إلى ٨٦٪ حيث كنت بليدة، وأصبحت قنبلة فظيعة، إن شبابنا يستمعون إلى إذاعة (ب. ب. س) القسم العربي، ويتطلعون إلى الأفكار ويقرؤون شعر أدونيس...».

ولهذا يقول الحداثي المصري محمود أمين العالم: «ولا حداثة بغير تحرير المرأة من كل القيود التي تقيد جسدها وفكرها وحياتها».

ويفتخر الحداثي الجزائري رشيد بوجدرة بأن الحداثة أدت دورها في تحرير المرأة، فأوجدت اتجاهًا يقول بحق المرأة في العمل والوجه السافر، بل أكد أن الحداثة أثرت حتى على بعض الاتجاهات الأصولية، ثم قال: «إذن حين يقبل الأصوليون بأن تسفر المرأة عن وجهها فذاك ولا شك خطوة إلى الأمام»(١).

تصور أن هذه المقولات الفجة المغرقة في الكفر والإلحاد والتفسخ وعداوة الإسلام وتشريعاته كانت تنضح بها صحف وجلات وكتب

(١) بعض الفقرات من مقال مركز سلف على الإنترنت.

وندوات وبرامج منتشرة على خارطة البلاد العربية على تفاوت بينها بطبيعة الحال. كيف تكون ردة الفعل والموقف منها وممن ينتسب إليها أو يروج لها ويقدمها؟ خاصة في بلاد لم تعهد مثل هذا ولا قريبا منه؟

ولهذا صدرت المقالات والكتب والمحاضرات المحذرة من هذا الوافد الجديد الذي يسميه مسوقوه "الحداثة" ويحاربون من خلال الموروث بضراوة بالغة ويحاربون معه كل ما يتعلق به أو يحتمي به أو يمكن أن يكون سندا له ولو كان بعيدا عنه فكريا مثل مؤسسات الدولة.

ولهذا تعتبر الحداثة وحربها على الإسلام وتشريعاته أكبر ممّهد وطأ للصحوة مواطئها في قلوب المسلمين قبل أراضيهم، إذ رأى فيها المسلمون المخلص الوحيد الذي يستطيع فضلا عن أن يريد صد فيضان الحداثة وكسر أمواجها وتشتيت جموعها، وهذا ما كان فعلا.

بل إن السياسيين أنفسهم كانوا يعلمون يقينا أن المد الحداثي يحمل في طياته كل الأفكار الثورية التي تبناها الانقلابيون في شتى أقطار الأرض خاصة الماركسيين الذين يحملون عداوة مطلقة للملكيات، فهي ثورة على كل ثابت وكل ما يظن أنه ثابت ومنه الولاء للملكية وتقديسها – كما يعبرون–، ولا أبالغ لو قلت إن الحداثيين لم يكرهوا شيئا كراهتهم للملكية، وإن أظهروا في الدول التي استعصت على التغيير السياسي أنهم مع الدولة وأنهم يقفون صفا معها في محاربة الرجعية والتخلف والإرهاب والأصولية

والتشدد إلى آخر هذه الشعارات، لكنهم في بواطنهم يكرهون الملكية أشد من كراهتهم للأصولية، إذ ظنوا في البدء أن اكتساح الشارع العربي سهل وأن التدين الموجود تدين ساذج يمكن سحقه بأدواتهم الثقافية ودعاواهم الجوفاء، لكن الذي يقف أمامهم هو الملكيات وحماتها من رجال الدين، تأثرا بالواقع الأوروبي الذي سبقت الإشارة إليه.

والعجب الذي أصابني أني اكتشفت يوما أن الحداثيين – خاصة أهل الجزيرة العربية والقابعين في دول الخليج- يكرهون العلماء الكبار لا لمجرد أنهم يخالفون مضامين الحداثة ورسالتها الفاسدة، وإنما لأن العلماء هم الذين أعانوا الأسر الملكية في مواجهة حركات وأفكار التغيير السياسي انطلاقا من أدبيات وأصول الشرع التي تأمر بالسمع والطاعة والجماعة وتحرم الخروج والثورات والانقلابات، وتبعية الجماهير لهم غالبا.

حضرت مرّةً دعوة عشاء في بيت زميل صحفي وكان الحاضرون من نفس الصحيفة التي يعمل بها، اثنان من هيئة التحرير واثنان من كتاب الرأي فيها أحدهما خصم لدود للإسلاميين والعلماء.

ودار حديث عن أمور شتى لكنني رأيت في كلام ذاك الكاتب كرها وحنقا على الدولة أصلاً لأمور ذكرها إذ يعتقد أن منطقتة طالها التهميش والإهمال وذكر قصصا محزنة في ذلك ثم ذكر بعد ذلك كرهه للعلماء الذين يحمون هؤلاء المسؤولين بفتاوى السمع والطاعة والجماعة والبيعة.

نبهني ذلك المجلس إلى خطأ تصوري كنا نعتقده أن الحداثي يكره قادة الدولة السعودية في باطنه وحقيقة أمره التي يخفيها لأنها تدافع عن الشريعة، والصحيح العكس أنهم يكرهون الشريعة لأنها تدافع عن منصب ولي الأمر بأصولها وقواعدها ونصوصها.

وهذا فرق جوهري يفسر لك أن الحداثيين والعلمانيين والليبراليين في كل مكان لم يكن لديهم مانع من التحالف مع خصومهم الإسلاميين لا بل تسليمهم السلطة كما حدث في تونس ومصر إبان ما سمي بالربيع العربي، لما كان الهدف مشتركا ألا وهو الإطاحة بنظام الحكم ورجالاته القائمين.

ونفس الأمر مع الإسلاميين الحركيين الذين أظهروا العداوة للحداثة ورموزها وأدبياتها لم يكن لم يترددوا في التحالف مع الحداثيين والعلمانيين وكل أعداء الشريعة لما شاركوهم الهدف السياسي وهو الإطاحة بالنظم القائمة في دولهم.

وهذا يعني نتيجة حتمية أن الاتجاه الوحيد الذي صدق مع الله في قناعاته وقيمه التي دعا إليها هو تيار العلماء وطلبة العلم السلفيين الذين وقفوا من الحداثة موقف أهل العلم الرافض لما فيها من مخالفات شرعية مع التمسك بأصول السنة التي أبقت علاقتهم بولاة الأمور وقيادات الدول علاقة شرعية قائمة على التعاون على البر والمجافاة في حال كان الوضع على خلاف

الشرع مع النصح والدعاء لهم وعدم التأليب ضدهم أو الإنكار عليهم في المجالس العامة ومنابر المساجد والإعلام.

أما بقية الاتجاهات الإسلامية من إخوان وغيرها فالشريعة مركبهم إن لم يكن لهم منها بد ثم إذا احتاج الأمر منهم إلى التخلي عنها تخلَّوا وصار أعداء الأمس رفقاء وشركاء اليوم، وأحداث ما سمي بالربيع العربي أكبر برهان على ذلك.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

الصحوة الإسلامية

لم تكن الصحوة شيئا واحدا محدّد الشكل والمضمون والصورة حتى يمكن تصويب حكم أحد عليها إمّا بالمدح والثناء أو بالذمّ والسخط.

حديثٌ كثير كان وما زال يدور حول الصحوة، خصوم ومندّدون بعضهم قدماء وبعضهم منقلبون عليها، ومقابل هؤلاء مدافعون عنها سواء بتعصب مطلق أو بموضوعية.

بعض الخلاف جوهري تبرز فيه المضادّة المطلقة بين مشروعين: أحدهما شرعي والآخر علماني.

وبعض الخلاف لو دققناه وجدناه غير حقيقي، بين مدافع عنها لجوانب إيجابية رآها فيها، وبين مهاجم لها لجوانب سلبية رآها، ولعل كل واحد من الاتجاهين لو دقق وجد نفسه يتفق مع مخالفه في الجملة.

والحقيقة أنّ المراقب لكل هذا الضجيج الفكري والثقافي والسياسي يرى أنّه لا يوجد فهم حقيقي للصحوة ماهي، وما هو تعريفها عند من يدافع أو يهاجم، وما هو تصوّره حتى يمكن تقييم موقفه منها من حيث الإنصاف والموضوعية أو المغالاة أو الإجحاف.

التصور والمفهوم

المرحلة الزمنية مختلف في تحديد بدايتها لكنها في المتفق تزيد على الخمسين سنة الأخيرة، وتعود جذوتها الأولى إلى ما بعد سقوط الدولة العثمانية، وفي هذه المرحلة الزمنية نشأ حراك دعوي ديني اتخذ أشكالاً عدة وأساليب

مختلفة، وكانت الدعوة في الجملة للإسلام والعودة إلى أمجاده المعنوية أو الحسية أو كليهما.

العنصر البشري في هذه المرحلة تشكل من علماء دين ومن أحزاب أنشأت لأجل استعادة أمجاد الخلافة الإسلامية، وأحزاب أخرى تأسست على أساس علماني، إمّا قومي أو اشتراكي أو رأسمالي أو غير ذلك، والكل من هؤلاء يدعي أنّه أولى بالاتباع وأنّ تعاليمه ومفاهيمه ومقاصده هي التي ستعيد للأمة أمجادها، إسلامية كان مقصده أم عروبية.

أمّا القيم والرؤى فتباينت تبايناً شديدا من أقصى اليمين ويمثله الجماعات والأحزاب التي نصبت نفسها ممثلاً وحيدا للإسلام وكفّرت من لم يتبعها، إلى أقصى اليسار ويمثله مفكرون وأحزاب وسياسيون لا يقيمون لأي قيمة أو مبدأ وزناً، إمّا على طريقة البراجماتية السياسية أو على طريقة الملاحدة.

بطبيعة الحال لا يُفهم من هذا أنّ كل مرحلة من مراحل الصحوة على امتدادها الزمني شهدت كل هذا الخليط وإنّما المقصود أنّ هذه هي المكونات، أمّا زمن الظهور أو القوة أو عكس ذلك فهو متفاوت من زمن إلى آخر، ومن مكان إلى آخر.

ورغم أنّ زمن الصحوة يطلق على السنوات الأخيرة والتي شهدت نموا قويا للإسلام والدعوة إليه في كل أرجاء العالم الإسلامي وأثر ذلك بطبيعة الحال في العالم كلّه، ونسبة المصطلح ملصق بالمكون الذي كان له التأثير الأكبر وهو المكوّن الإسلامي بكل أطيافه؛ إلاّ أنّ هذا المكون لم يكن ليكسب هذه الصفة وينسب إليه هذا الزمن إلاّ بسبب المكونات الأخرى الّتي أدّى

الخلاف معها أو التوافق إلى اكتساب هذه الفترة الحرجة من التاريخ المعاصر هذا الزخم والاهتمام أثناء وبعد.

فمصطلح الصحوة في نهاية المطاف يطلق على حركة الرجوع إلى الإسلام وشريعة الإسلام ونبذ كل الأفكار التي كانت سائدة وقوية ومتحكمة في الفترة التي سبقته.

وكان هذا الرجوع قوياً ملحوظا شدّ انتباه العالم كله بين متخوّف منه على مشاريعه الخاصة في بلاد العرب بالذات، وبين مستبشر به وجذلان يرى فيه خلاص الأمّة ورجوع مجدها.

وعندما نسمع من يذمّ هذه الفترة أو يمدحها ويثني عليها فإنّ هذا الذم أو المدح لا يجب أن ينظر إلى تقييمه ومصداقيته إلاّ بالنظر إلى الزاوية التي ينظر منها المتكلم عن تلك الفترة.

ليس من الموضوعية الحكم المطلق على خمسة عقود من الزمن فقط بالنظر لجزء من هذه الفترة أو لأشخاص كان لهم دور أو غير ذلك.

في هذه الفترة عاشت ووجدت الشخصيات الفذة التي كان لبعضها إسهام ومشاركة في صناعة أو دعم المحتوى الشرعي والسياسي، منهم الملوك والسياسيون ومنهم العلماء ومنهم رموز اجتماعية واقتصادية.

وفي هذه الفترة كذلك شخصيات أفسدت الديانة والملة وعاثت في الشريعة تحريفاً وغلواً ومارست الإرهاب والتطرف بكل أنواعه.

وفيها برزت الجماعات الحزبية والتيارات الفكرية من إخوان وسرورية وتبليغ وغيرها.

وفيها كذلك كانت القاعدة وداعش وحركة الشباب الصومالية وغيرها من جماعات العنف والتغيير المسلح الذي سموه جهاداً.

وفيها كذلك برزت القيم الإسلامية وظهرت ظهوراً بارزاً من صلاة وصيام وديانة وتمسك بالأخلاق والحجاب الشرعي للمرأة وقيم الحياء وغيرها.

وعليه فإن كل متكلم يمدح وأو يذم فهو في الحقيقة ينطلق من العامل المؤثر الذي جذبه ولفت انتباهه أو أثر عليه كفرد أو توجّه.

فالليبرالي والعلماني وضعاف القلوب من مرضى الشهوات يبغضون الصحوة ويذمونها لأنّها تمثل لهم العائق الذي أعاق وأوقف ومنع القيم الليبرالية ووأدها أو أضعفها جداً، ومنع أصحاب الشهوات ومرضى القلوب من المجاهرة بالمعاصي والاستعلان بها أو على الأقل إن حدث ذلك فإنّه مما يُخجل منه ويُخشى من التهمة به لأنّ المزاج العام في المجتمع يقف من ذلك موقف الريبة والمنابذة. ليس تديناً وخوفاً من الله بالدرجة الأولى وإنّما هو بسبب المزاج الّذي شكلته الصحوة وجعلت الجمهور يعتنقه ويمارسه بشعور أو بدون شعور، بقناعة أو بدون قناعة.

المتدينون والعلماء والدعاة يمدحون الصحوة ويدافعون عنها لأنّها تشكل في نظرهم الحياة الإسلامية التي ينشدونها وتمثل لهم نصراً على قيم التغريب والحداثة، وتمثل لهم كذلك امتثال أمر الله وما يعنيه ذلك من عموم الخير والبركات ودفع النقم والعذاب عن الأمّة.

سياسيون وأمنيون كذلك لهم مواقف متباينة، بعضهم يراها وبالاً على الأمة بسبب ما أنتجته من أفكار التكفير للمجتمع أو الدول والعزلة عن المجتمع ومن ثم استباحة القتال والتخريب في بلاد المسلمين واستباحة الدماء والأموال.

كذلك كثير من التجار والاقتصاديين يرى في الصحوة وقيم التدين عوائق في طريق التكسب من المصادر التي تحرمها الشريعة أو فيها خلاف.

ومثلهم كذلك أهل الفن وشركاته ومشاريعه شكلت الصحوة أيضا عائقاً في طريق نموّ هذه الاتجاهات الربحية منها وغير الربحية.

هذه اتجاهات عامة وهناك مواقف كثيرة فردية أو عامة يمكن ملاحظتها من الصحوة وفترة الصحوة، وإنّما اردت بيان أنّ الحكم العام على الصحوة بالمدح والذم لا يصلح إلاّ ببيان المحترزات وإلاّ وقعنا في ذمّ أنفسنا ونحن لا نشعر.

فعلى سبيل المثال من يذم الصحوة مضموناً بإطلاق يقع في ذمّ الصلاة والصوم والعفاف وغيرها من قيم الإسلام والسنة التي علا شأنها في فترة الصحوة، وهذا لا يقول به مسلم.

ومن يمدحها بإطلاق سيمدح قيم التخريب والتكفير والجماعات الإرهابية وهذا لا يقول به مؤمن أو عاقل أصلاً.

ومن المقبول أحيانا أن نوضّح تصورنا للصحوة ومفهومنا لها قبل الحكم عليها فحينئذ قد يقبل الحكم المطلق لأنّه تم تقييده ببيان التصوّر له.

من صنع الصحوة؟

ينظر كثيرون إلى الصحوة ويحاكمونها على أنّها فعل بشريٌّ بالدرجة الأولى، أي أنّه جاء ثمرة العمل والاجتهاد من قبل علماء المسلمين والدعاة إلى الله والجماعات والأحزاب الإسلامية.

وهذه النظرة هي الغالبة على الجماهير المتعاطفة مع الإسلام، ولهذا يزعم كل طرف أنّه هو الذي صنع الصحوة، خاصة الجماعات الكبرى وعلى رأسهم الإخوان المسلمون ورموزهم.

ويرى آخرون أنّ الصحوة فعل شارك فيه كل المسلمين في حركة تجديد كبرى انخرط فيها كلٌّ بما يحسن، العالم الشرعي بعلمه، والمفكر بفكره، والمجاهد بجهاده والتاجر بماله، وحتى الشخص العادي بدعائه وانتمائه وعاطفته.

ويجتمع هؤلاء على أنّ الصحوة كانت نصراً نصر الله به الإسلام وأهله، ولهذا كانت فرصة في نظر كثيرين لتحقيق مقاصدهم ومآربهم التي يعتبر تحكيم الشريعة وإقامة دولة الخلافة على رأسها.

والذي أراه والله أعلم أنّ الصحوة لم تكن كذلك بالدرجة الأولى، نعم لا ننكر العامل البشري فيها، لكن حقيقتها وواقعها لا تعدو كونها منعطفاً تاريخياً كسائر منعطفاته التي تحكمها سنة التدافع الربانية، فكل أدوار التاريخ تجد ارتفاعا للحق وأهله ثم ارتفاعاً للباطل، كسائر الأضداد الحسية منها والمعنوية، وهذا التداول للظهور والغلبة ليس شرطا أن يسعى فيه البشر، بل قد يقدره الله تعالى يدبر به ملكوته، ويدافع به بين الخير والشر، بين الحق

والباطل، لأن طبيعة الوجود البشري والحكمة من وجوده يحتاج إلى هذه المداولة.

سبقت هذه السنوات الصحوية ظهور الحركات الاشتراكية والإلحاد والماسونية ومذاهب الفكر الغربي من علمانية ووجودية وبراجماتية وفلسفات كثيرة اكتسحت الغرب وجاءت إلى الشرق، فوجدت لها سوقاً رائجاً في وقت كان الإحباط يعتور نفوس كثير من المهزومين العرب الذين ظنوا في هذه الأفكار والحركات والأحزاب الخلاص من الهزيمة التي يعيشونها بعد سقوط الدولة العثمانية وذهاب أمجاد العرب والمسلمين وتقدم الغرب وحركات الاستعمار.

ثم استُخدِمت هذه التيارات المارقة لقلب أنظمة الحكم الملكية في غالب البلاد العربية من شرقها إلى غربها، اتهاماً لها بالرجعية والتخلف، وجاءت هذه الأنظمة العسكرية المنقلبة إلى تلك البلاد فما جلبت إلا الخراب والدمار والصراعات السياسية والعسكرية والانقلابات المتلاحقة وضياع التنمية وهزائم على يد الغرب ممثلا بدولة الاحتلال الصهيوني.

أضف إلى ذلك تراجع الحالة الاقتصادية وشيوع فكرة الحزب الواحد وتسلط رجالات معينين على تلك البلدان تسببوا في كثرة الفقر وتخلف البلاد في كل النواحي.

في هذا الجو المفعم باليأس والإحباط الشعبي كان الإسلام ممثلاً في شعائره وآدابه وأحكامه وأدبياته وتاريخه هو الملاذ الوحيد للخلاص من الحالة التي يعيشها الناس.

فبرز هنا دور العلماء، علماء الشرع، والدعاة إلى الفضيلة، في الجانب التربوي وتعليم الناس وتوجيههم للعلم والحكمة الشرعية.

وفي الجانب السياسي والعسكري برزت الجماعات وقويت شوكتها ووجدت الفرصة سانحة لإعادة القوة لمشروعية وجودها عبر القضايا الإسلامية الكبرى كقضية الأقصى، وتسلط الاستعمار وأعوانه على الوضع في الدول الإسلامية الضعيفة والتحكم في خيراتها ونهبها أو تسليط الأنظمة الديكتاتورية ضد مخالفيهم من الإصلاحيين سواء منهم الإسلامي أو العلماني.

والحقيقة أنّ الناس أقبلوا شيئا فشيئا على الدين ورجعوا إلى الالتفاف حول أهل العلم والدعوة سواء من خلال العمل التربوي التثقيفي والتوجيهي والوعظي، أو من خلال الجماعات المنظمة التي تمارس العمل السياسي أو العسكري.

وبغض النظر عن الاختلاف بين أطياف العائدين إلى الإسلام والمتعاطفين معه إلاّ أنّهم اتفقوا على شيء لا يكاد يختلف عليه اثنان منهم، ألا وهو العداء الشديد للعلمانية كفكر وتطبيق وأشخاص وأنظمة.

فأي فكر أو شخص أو توجه يتحدث منطلقا من فكرة إقصاء الدين عن الحالة الواقعية فإنّه محل تهمة واستهداف بالإقصاء والتشهير والعزل إن لم يصل إلى الاعتداء والعنف.

ولهذا منيت المشاريع الفكرية غير المدعومة شرعيا بهزائم كبرى، شعبيا ومؤسسيا كذلك.

وعلا صراخ المناهضين للدين والشريعة وشكواهم المستمرة بانصراف الناس عنهم وإقبالهم على الدعاة والمشايخ الذين كانوا يصمونهم بالتخلف والخرافة والرجعية.

كانت نكسة بكل ما تعنيه الكلمة لكل مشاريع الغرب وعرّابيه في المنطقة العربية، وسرى ذلك إلى الدول الإسلامية عبر البعثات التعليمية والعمال وغيرهم.

ثم إلى العالم الغربي، حتى وصل الحجاب واللحية إلى أوروربا وأمريكا واضطرت العالم الغربي إلى الاعتراف بوجود المسلمين الحقيقيين المتمسكين بتعاليم دينهم صلاة وصياماً وحجاباً وعفافاً وغير ذلك.

بطبيعة الحال تفاوتت قوة هذا الظهور من مكان وزمان إلى مكان وزمان آخرين، لكنّ الحالة بشكل عام هي كما وصفت.

كانت الصحوة بهذا سداً منيعاً عطلت بل أوقفت المشروع الحداثي الذي كان في أوج قوته وعنفوانه، مكتسحا غالب البقاع الإسلامية العربية بالذات، لأنّها آخر معاقل الإسلام في صورته الأقرب للحقيقة.

وكان رموز الحداثة وأساطينها يكادون يحتفلون بالنصر، إذ استوطنت أفكارهم ومذاهبهم بيوت المسلمين قبل مؤسساتهم وأنظمتهم.

حتى جاء المد الصّحوي معارضاً ومواجهاً فأطاح بهم من القمة إلى القاع، وأصبحت العلمانية والحرية وقيم الوجودية والاشتراكية وغيرها تهمة وسبّة في بلاد المسلمين.

حسناً، أليس هذا انتصاراً لقيم الإسلام وشرائعه؟

الجواب: ليس كذلك، على الأقل بالنسبة لمفهوم النصر والانتصار في القرآن والسنة، لأنّ النصر الرباني يأتي نتيجة عوامل وأسباب شرعية لا يتحقق بدونها، وغالب هذه العوامل لم يكن متحققاً، وأهم ذلك أنّ الحالة العامة رغم صبغتها الإسلامية لكنّ غالبها لم يكن موقراً للكتاب والسنة فغلبت عليه أفكار وبدع وخروقات للكتاب والسنة، كان الواحد منها كفيلاً وسبباً في هزيمة المسلمين في وقائع مشهورة في التاريخ النبوي.

ولأنّ النصر الرباني لابد له من محرك رئيس أو قائد ينظم الصفوف ويقسم الأدوار ويمنع الخلاف والتنازع بين حاملي المنهج ومبلّغيه.

بينما الحالة الإسلامية الصحوية كانت مليئة بالخلافات والشقاق بين المكون الإسلامي طعنا في بعضهم البعض واتهاماً ومفارقة بل واقتتالاً، فكيف يكون الحال نصراً لهؤلاء؟

كانت إذن منعطفاً وتحولاً تاريخياً له أسبابه وعوامله التكوينية، ليست كما يصورونه فعلاً بشرياً متعمداً ومخططاً له، وهذه الفكرة التي تشبّع بها الصحويون يظهرون قوّة الدعوة والدعاة، وأحقية مشروعهم، أبرزها كذلك المخالفون من دول الغرب المتربص وأذنابهم في بلاد المسلمين لأجل ضرب هذه الصحوة ومضامينها التي رأوا فيها تهديداً لمشاريع التغريب والحداثة العلمانية.

والأقذر من ذلك استخدامها لإشغال الدول العربية والإسلامية عن التنمية وبث الفرقة والشقاق بين الشعوب والحكام، وفيما بعد لتقويض

الدول وتقسيمها عن طريق إشاعة الفوضى الخلاقة كما سمّاها الساسة الأمريكان حينها.

جاءت هذه الموجة التاريخية نتيجة الحراك والتفاعل والسنن التي صنعها الله يدفع بها شراً كان قادماً للأمّة.

وكانت السنوات تمر محققة مكاسب وقوة للشريعة في مقابل انحسار وضعف العلمانية وما طاف بها.

وهل كانت الصحوة حالة صحية أو مرضية؟

لا يشك أحد في أنّ الدعوة الإسلامية في العقود الماضية التي سميت بالصحوة كانت قوية وزادت انتشاراً واكتساحاً للساحة العربية بالذات، فهل كانت تلك حالة صحية أو مرضية، أو بينهما؟

قبل أن نعرف جواب هذا السؤال لابد من الإجابة على سؤال آخر أكثر إلحاحاً على العقل، ألا وهو: هل كانت تلك القوة وذلك الظهور الدعوي راجعاً إلى الشريعة نفسها، أي قوة الحق وقوة حامليه كما في الزمن الأوّل، أو أنّ هناك عوامل تداخلت ساعدت في قوة الحالة وانتشارها؟

*** عوامل قوة الإسلام وظهور الشريعة وأحكامها في زمن الصحوة.**

الحقيقة أنّ الصحوة والدعوة بلا شك ولا ريب تحمل عنصر القوة الأكبر والأعظم ألا وهو قوة الحق القِيَمي، فالحق يفرض نفسه على العقول والنفوس، خاصة إذا خلّي بينه وبين الأنفس، لأنّه فطرة الله تعالى، مهما اعتوره من نقص وتشوّه إلاّ أنّه يظل الأقرب للنفس والروح والعقل، كونه خلق الله تعالى وفطرته الّتي فطر الناس عليها.

وهذا بلا شك كان متحققاً في فئام من الناس لكنّهم الأقل، وهم الصفوة التي لم تكن وحدها قادرة على إحداث كل هذا الزخم للشرع والدين والعقيدة.

بل شاركها وطغى عليها عوامل أخرى، منها على سبيل التأمل لا الحصر:

العامل السياسي

نشأت الصحوة في خضمّ الخصومة بين المعسكر الشرقي بقيادة السوفيت وبين المعسكر الغربي بقيادة أمريكا، فيما سمي بالحرب الباردة.

وفي هذه الحرب كان كل من المعسكرين يفتعل حروبا بالوكالة عبر حلفاء معلنين أو غير معلنين، وكان كل معسكر يسعى لإضعاف الآخر بشكل غير علني في أي نزاع مسلح يؤثر فيه، كما حدث للأمريكان في فيتنام مثلا.

وفي القرن الماضي سنحت الفرصة للولايات المتحدة كي ترد الصاع للسوفييت، إذ دخلت القوات السوفييتية أفغانستان نصرة لحليفها الشيوعي هناك، وبذلك اندلعت شرارة الحرب بين السوفييت من جهة وبين المسلمين الأفغان من جهة، وكانت المقاومة الأفغانية متشكلة من أحزاب عدة غالبها مؤدلج ومرتهن إمّا لدولة أو لجماعة، من أشهرها جماعة الإخوان المسلمين التي مثلها الحزب الإسلامي بقيادة حكمتيار آنذاك، إضافة إلى أحزاب أخرى وطنية، وجماعات أصغر، كجماعة القرآن والسنة بقيادة الشيخ جميل الرحمن رحمه الله.

كانت هذه الحرب فرصة سانحة لأمريكا لإلحاق هزيمة نوعية بالسوفييت وإدخال الجيش الشيوعي في حرب استنزاف طويلة ساعدت فيما بعد على مهمة تفكيك هذا الاتحاد الضخم إلى دويلات.

استخدمت أمريكا الفكر الصحوي وجماعات الصحوة وتواصلت معها عبر وسطاء وأحيانا بشكل مباشر لأجل تقديم الدعم العسكري بالسلاح والسياسي بتسهيل تحركاتهم، والدعم الاستخباراتي كذلك.

ونشط بعض رموز الإخوان من أجل تعبئة العالم الإسلامي كله للجهاد والمقاومة في أفغانستان، وتم تشجيع هذا من بعض الدول الحليفة لأمريكا بشكل علني ورسمي.

وتوافد المجاهدون من كل أقطار العالم الإسلامي وتضخم العمل القتالي في كل الجبهات في أفغانستان الذي انتهى بهزيمة السوفييت وخروجهم من أفغانستان ليترك الساحة خالية إلاّ من الجماعات التي اقتتلت فيما بينها على حكم البلاد، حتى جاءت حركة طالبان بدعم من باكستان ودول أخرى لتطيح بحكم كافة تلك الجماعات وتبدأ مرحلة جديدة من الصراع مع العالم كله بتبنيها للقاعدة ورموزها من ابن لادن إلى الظواهري إلى غيره.

هذا مختصر سريع وفي الوثائق والكتب مزيد عن أفغانستان وما دار فيها.

والذي يهمنا منه أنّ غزو أفغانستان والقتال فيها أحيا فكرة الجهاد في سبيل الله وأعاد فكرة إنشاء الدولة الإسلامية من جديد، كما ساهم في إحياء الأخوة الإسلامية والعاطفة والحنين لأيام الخلافة، كما ساهم كذلك في إحياء الأمل والوثوق بالإسلام وقوته وقيم المعية الربانية وانتصار القلة

الضعيفة على الكثرة القوية لأنّ الله معها، أضف إلى ذلك قصص وخرافات كثيرة انتشرت عن تأييد الله للمؤمنين المجاهدين بالملائكة والكرامات والخوارق.

كل هذا كان له أثر في العاطفة الإسلامية التي انتعشت وزادت في كل المسلمين على مختلف مراتبهم وطبقاتهم، حتى من كان منهم بعيدا عن التمسك بتعاليم الشرع.

وهذا بطبيعة الحال زاد من ثقة المسلم بدينه واعتزازه وقوّى من قدرته على مواجهة القوى الفكرية الأخرى التي تحاربه في بلاده سواء كانت قوى فكرية أو حتى أمنية.

كل هذا أعطى زخما ودفعا للصحوة وزاد من حماس العاملين في حقل الدعوة والتصحيح على أساس أنّ النصر في أفغانستان دليل على إيمان الفئة المؤمنة وصلاحها وصواب توجهها ومقاصدها، وكل هذا غير صحيح ولا موضوعي ألبتّة.

لنفس الأسباب التي ذكرتها في كون الصحوة برمتها ليست نصراً ربانيا، وكيف يُعزى النصر للفئة المجاهدة وكانوا جماعات شتى يقتل بعضهم بعضا؟

وكيف يكون نصراً من الله لجماعات وأحزاب غالبها يقاتل لأجل القومية أو الحزب أو المال؟

وكيف يكون نصراً ربانيا لجماعات تمارس الشرك الأكبر بكافة صوره وتدافع عن القبور المعبودة من دون الله؟

ثم كيف يكون نصرا لجيش تدعمه وتزوده بالسلاح والدعم الاستخباري زعيمة دول الغرب النصراني؟

هذا من حيث النظرة الحقيقية، لكن الواقع أنّ أفغانستان شكلت واحدا من أهمّ أحداث الصحوة، ليس من حيث أثرها في دفع ودافعية الإقبال على التدين والانخراط في مشاريع الإسلام السياسي بالذات وتصدر رموزه وقادته للمشهد حتى بدأت أسماء هؤلاء ترتفع وتبرز وتذكر أكثر من القادة السياسيين للدول والكيانات المعترف بها دوليا.

بل وحتى من حيث كونها تحولت جامعة لمدارس شتى في الفكر الإرهابي المنتمي للإسلام زوراً وضلالاً، تختلف هذه المدارس في رهاناتها وارتهانها وتوجهاتها ومقاصدها وتكتيكاتها وحتى استراتيجياتها، لكنها تتفق على شيء واحد ألا وهو تكفير كل النظم العربية الحاكمة ومن يتعاون معها أو يعمل فيها واعتبار الدول الإسلامية ساحة جهاد مشروع بل مقدم على قتال الكفار الأصليين، وهذه النقطة الأخيرة وحدها كفيلة ببيان كون هذه الحركات كلها صناعة وتوجيه غربي وسنأتي على ذلك في مقال لاحق إن شاء الله.

العامل الاقتصادي

ربما لا يخطر على بال أحد أن يكون العامل الاقتصادي واحداً من أهمّ العوامل الّتي ساعدت في النموّ السريع والكاسح للصحوة بكل أدبياتها الصحيحة والخاطئة.

تشكلت في العقود الماضية سوق ضخمة عمادها وعمودها المادة الإسلامية والمحتوى الشرعي، وهذا لا أقوله أعيب به التكسب المشروع، فكل تجمّع زماني أو مكاني يشرع فيه التجارة، كما شرع الله تعالى التجارة في الحج في قوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٨]، فأنواع التجارات المباحة التي تنشأ من زخم معين ليست مذمومة بالضرورة وإنّما أنا أتحدث عن كونها عاملاً مساعدا في توسع الظاهرة.

الكتب الشرعية وما يخدمها، والشريط الإسلامي بكل أنواعه من محاضرات ودروس وخطب ومواعظ وأناشيد، المطويات والرسائل والكتيبات الصغيرة، المواد التي تشكل ثقافة الصحوة من المآكل والمشارب والملابس، وأنواع الطيب والبخور، بل حتى زينة السيارات وأثاث المنازل وإكسسوارات المكاتب والقرطاسيات وغيرها، مئات الملايين وأكثر كان يتم تدويرها ورؤوس أموال نمت وتضاعفت على حسّ أدبيات الصّحوة وتغذية احتياجاتها.

بعض المحاضرات الصوتية كان يباع منها الملايين من الأشرطة، ومثل ذلك بعض الكتيبات، وفي المواسم الدينية كرمضان أو الحج يتسابق التجار إلى التبرع بملايين النسخ من الأشرطة والمطبوعات التي يستفيد بسببها مؤسسات نشر ومطابع ودور الإنتاج المسموع وغيرها.

حدثني أحد طلبة العلم أنّه ضمّه عشاء مع أحد محققي الكتب من بلاد عربية، فتجاذبا الحديث عن النشر والكتب فحثه هذا الأخير على أن يجتهد

في النشر، وقال له اجتهد في أن تصنع لك اسماً ثم لا يهم بعد ذلك من خالفك أو ماذا تنشر.

وهذا واقع حقيقي، إذ أصبح التاجر يبحث عن اسم يطبع له ولا يبحث عن مادة جيدة، ولهذا انتشرت الكتب الرديئة في المحتوى أو المتدنية في المادة أو السخيفة والتافهة أو المكررة أو المجمعة التي لا علم فيها ولا جديد، ولكن القيمة ليست في المضمون وإنّما لأنّ المؤلف القدير كان قد اجتهد في أن يصنع لنفسه اسما في عالم الصحوة ويكون مقصدا للتجار، حتى أصبح يؤلف بناء على طلب التاجر، لا انطلاقا من حاجة علمية أو غيرها.

وقل مثل ذلك في كل المنتجات الأخرى.

أمّا قنوات التبرعات والمؤسسات والجمعيات الخيرية وما يتحصل بسبب ذلك في جيوب وحسابات معينة من الملايين بغض النظر عن كونها تصرف في وجوهها الحقيقية أو تسرق أو تجير لصالح جهات معادية وجماعات إرهابية، المهم أنّ هذا التدفق المالي وهو ضخم للغاية شارك فيه حتى ربات الخدور شكّل أيضا عاملاً دافعا للصحوة وانتشار رقعتها ومساحة تأثيرها ومجال جذبها.

العامل الاجتماعي

شكلت الصحوة بما تحويه من أدبيات الإسلام وأخلاقه ونظامه الاجتماعي خلاصاً وملاذاً لكل مطحون اجتماعياً إمّا بسبب الفقر أو شيوع الطبقية والعنصرية والفخر الجاهلي بالأحساب والأنساب والأجناس والأوطان كذلك.

وجد جمهور عريض من المقبلين على محاضن الصحوة مكاسب اجتماعية وإحساسا بالقيمة والذات كانت مفقودة أو ضعيفة في ظل أوضاع اجتماعية سيئة متفاوتة في السوء من مكان لآخر.

كثير من الناشئة التي لم تجد لها موقعا في مجتمعاتها وجدت في الصحوة القيمة والتقدير للذات ومشاعر الإحساس بالعزة والاستقلالية، وكثير من ذلك كان شعوراً خادعاً من حيث صدقه ومن حيث أثره وما يضيفه للشخص، وذلك أنّ البيئات التي اعتقد الناشئة أنّها بيئات الأخوة الإسلامية الصادقة كانت الطبقية تنخر فيها والنظرة الاستعلائية موجودة لكن متسترة أو متخذة شكلاً شرعياً، وكلنا نعرف ما يظنه أصحاب مناطق جغرافية معينة من أحقيتهم بتمثيل الإسلام والشريعة والعقيدة أكثر من غيرهم.

ورأينا كم يشيع احتكار الوظائف الشرعية والمناصب الشرفية لأجناس معينة واحتقار من لا ينتسب إليها، وكم شهدنا كيف إنّهم يعاملون غيرهم كما يعامل الموالي.

وبنحو هذه الطبقية الجغرافية كانت هناك طبقيات فئوية، فجماعة تستعلي على الجماعات الأخرى وتراها دونها في الرتبة، ومجتمع كذلك عن مجتمع، وجنسيات معينة على جنسيات أخرى.

ويمارس الكثير من رموز الصحوة خداع الأخوّة والمساواة من خلال الخطاب الجماهيري التعبوي فقط، لكن عند المماسّة مع بعض هؤلاء وجدنا

العجب العجاب، وهذا شيء أحكيه عن مشاهداتي الخاصة لا أنقله عن الغير، مع أنّه شائع ذائع يعرفه من اقترب من هؤلاء الصحويين ويراه عيانا.

وعلى العموم فإنّ الفراغ المجتمعي الذي كان يسود كثيراً من البلاد الإسلامية لأسباب اقتصادية وثقافية -ليس هذا محل سردها- لم يجد الناس من يملؤه أو يعوض عنه إلا الحراك الصحوي، الذي انخرط في تجميع المتفرق، وتشكيل الكيانات التي تساعد الناس وتمد يد الخير إليهم بالتبرعات أو علاج الحالات التي يعجز عن حلها إلاّ المشايخ! بخطابهم الوعظي، وهذا حقيقي يخاطب فطرة الناس وحبهم للخير ولرضا الله تعالى لكنه كذلك كان مساحة لبناء علاقات اجتماعية وتسويات شعبية مع المجتمعات سهلت للصحوة اختراقها والتغلغل في كل بيت وكل تجمّع بشري.

العامل الشخصي

وهذا العامل لعله أقوى وأكثر العوامل تأثيرا في انتشار الصحوة لأنّه يعتمد بشكل كبير على البشرية، أي على الأفراد أنفسهم، إذ إنّ الصحوة بأدبياتها المغلوطة واختلاط المفاهيم فيها أصبحت ساحة يسهل فيها البروز وتحقيق المكاسب الشخصية من الشهرة والرياسة والمال والمناصب، دون أن تحتاج في ذلك إلى أكثر من أن تتقن مهارة من مهارات التديّن.

نعم، أصبح التديّن مهارات متنوّعة إذا استطعت إتقان أحدها تحققت لك وفي زمن يسير وجهد مقارب مكاسب تحتاج في بيئات غيرها إلى مجهود وزمن كبيرين، هذا إذا سنحت لك الفرصة.

من الصعب أن تشق طريقك بين العلماء أو المثقفين الكبار أو التقنيين أو التجار أو السياسيين ونحوهم من وجوه المجتمع وقادته ومشاهيره.

لكن في ظل زمان الصحوة يمكن أن تصبح حديث الشرق والغرب متصدراً المجالس ومحققاً أعلى المناصب وحاصلاً على الأموال كذلك، يكفي أن تكون قارئا للقرآن مجودا حسن الصوت لتكسب ذلك.

وإذا لم يهبك الله الصوت الحسن فيمكن أن تتقن أدوات الخطابة فتكون خطيباً يجتمع حولك الخلق بالآلاف المؤلفة.

ويمكن كذلك أن تكون منشدا مشهورا، أو محاضراً واعظاً قصاصاً فتطبع لك ملايين النسخ، وتصبح أشهر من نار على علم.

كثيرون تولوا وظائف ومناصب وأوكلت إليهم مهام شرعية أو دنيوية أو دعوية فقط لأنّ الله وهبهم سمتاً حسناً وجمالاً وبهاء، أو لأنّه صاحب صلاة وصوم وتعبّد، أو لأنّه صاحب أمر ونهي وشجاعة في المواقف، وقل مثل ذلك في المقاتلين ورموز الجماعات الحزبية.

ولأن المجتمع لم يكن في مستوى من الوعي لتمييز العالم من غيره أو يستطيع أن يضع كل شخص في مكانه وقدره الحقيقي كما قالت عائشة رضي الله عنها: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم».

فكم حُرم من الأكفاء والمهرة والمتقنين من وظائف أو مناصب أو مواقع أو أموال فقط لأنّهم لا ينتمون إلى تيار التديّن، أو لا يظهر عليه سيما التدين، وإن كان متدينا فيكون الإقصاء كذلك بناء على الانتماء الفكري والفئوي.

وليت البديل يكون مثله إذاً لقلنا تقديم صاحب الحسنتين -وفق تصورهم- لكنا رأينا المناصب والأماكن يتولاها جاهل أو عديم النفع بل وسارق أحياناً فقط لأنّه ملتح أو تقيّ صاحب عبادة أو لأنّه منتسب للشيخ الفلاني أو لأنه منتم للجماعة والحزب.

وبهذا أصبحت الصحوة عند كثيرين جدا هي مساحة العمل التي يجدون فيها أنفسهم، ولهذا دافعوا ويدافعون عنها بكل ما أوتوا، لأنّ هذه المساحة إذا أغلقت أو انتهت؛ انتهت معها أمجادهم وامتيازاتهم.

إذن، وَعَوداً على ذي بدء، هل كانت الصحوة حالة صحية؟

الحقيقة أنّها لم تكن كذلك، لا أتحدث عمّا هو داخل الجيل الصحوي من خلافات وتناقضات ومخالفات، إنّما أعني الحالة برمّتها، لأنّ هذا الذي حصل كان أشبه بالتضخّم الاقتصادي، كثرة العملة دون قيمة شرائية تناسبها.

وهذا ما حصل في الحالة الصحوية، كثرة لا يقابلها تزكية، وإقبال لا قدرة للعلماء الحقيقيين ولا لغيرهم على استيعابه، أعني استيعابه في محاضن تربوية حقيقية، تسُوقه كله في مساقه الصحيح شرعا ونظاماً.

وهذا أدّى إلى نشوء تدين مغلوط أكثره خطورة ذلك الذي انحرف للغلوّ وذهب يبحث عن قنوات ومصارف لعاطفة عمياء فاقدة للبصيرة فكانوا أكثر حطب الفتن في كل بلاد تثور فيها الفتنة يسمونها جهادا، ومنهم أكثر رؤوس الفتن والقلاقل وإفساد حياة الناس والافتئات على الأمّة كلها.

وأدّى كذلك إلى نشوء الخلاف العريض بين المقبلين أنفسهم الذين انخرط كل منهم في اتجاه دعوي أو تديني يتناسب غالباً مع طبيعته وتكوينه النفسي أو بسبب الإعجاب بشخصية معينة أو نتيجة تضليل فكري أو غير ذلك، وضاعت سنوات طويلة من عمر الصحوة في حوارات وجدل ونقاش وعداوة وصلت إلى العدوان على الأنفس والأموال.

إن فكرة الاستيعاب هذه التي ذكرتها ليست بدعة ولا غريبة، وسأذكر لك واقعتين تدلان عل ذلك.

الأولى حديث عمرو بن عبسة قال: كنت، وأنا في الجاهلية، أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا، جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال "**أنا نبي**" فقلت: وما نبي؟ قال "**أرسلني الله**" فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال "**أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شيء**" قلت له: فمن معك على هذا؟ قال "**حر وعبد**" قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال "**إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني..**» الحديث، وهو في صحيح مسلم.

فهذا رسول الله ﷺ لم يقبل انضمام عمرو وأجّله إلى أن يظهر أمر النّبيّ ﷺ بمعنى أنّ يكون في حال يمكنه معه استيعابه في منظومة الدعوة وأتباعها.

والأخرى: عن ابن عباس قال: قدم على عمر رجل، فجعل عمر يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرأ منهم القرآن كذا وكذا، فقال ابن عباس: فقلت: والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة، قال: فزبرني عمر، ثم قال: مه، قال: فانطلقت إلى أهلي مكتئبا حزينا، فقلت: قد كنت نزلت من هذا الرجل منزلة، فلا أراني إلا قد سقطت من نفسه، قال: فرجعت إلى منزلي، فاضطجعت على فراشي حتى عادني نسوة أهلي وما بي وجع، وما هو إلاّ الذي تقبلني به عمر، قال: فبينا أنا على ذلك أتاني رجل، فقال: أجب أمير المؤمنين، قال: خرجت فإذا هو قائم ينتظرني، قال: فأخذ بيدي ثم خلا بي، فقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفا؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، إن كنت أسأت، فإني أستغفر الله وأتوب إليه، وأنزل حيث أحببت، قال: لتحدثني بالذي كرهت مما قال الرجل، فقلت: **يا أمير المؤمنين متى ما تسارعوا هذه المسارعة يحيفوا، ومتى ما يحيفوا يختصموا، ومتى ما يختصموا يختلفوا، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا**، فقال عمر: «لله أبوك، لقد كنت أكاتمها الناس حتى جئت بها». رواه عبدالرزاق في المصنف.

لاحظ أنّ عمر رضي الله عنه لم يبن على ذلك منعهم من حفظ القرآن، لأنّ هذا أمر مشروع لا يمكن لأحد أن يمنع منه مسلماً، لكن حين يكون هذا في الناس دون أن يكون لهم ما يوازي هذه الكثرة من حيث الاستيعاب تربية وتعليما فهذا سيؤدي إلى نتائج غير محمودة ذكرها ابن عباس، وهذا ناتج عن خلل سبق ولا يمكن إيقافه إلا بالترشيد لا بالمنع.

ومثل هذا الكلام سيغضب البعض لأنّه يشبه معاذير المناهضين للشريعة الذين يقلقهم نشأة جيل يحب الله ورسوله ودينه ويتمسك بقيمه.

لكن هذا لا يهمنا لأنّنا ننطلق من منهج سلفي سبقنا فيه عمر وابن عباس.

نعود الآن إلى الصحوة ونقارن هذا بما حصل نجد الأمر كذلك، لقد لجأ الصحويون إلى إنشاء ما يستطيعون من حواضن لاستقبال الصغار والكبار المقبلين على الله، ولأنّه أيسر وأفضل وأقل المناشط كلفة وبعدا كذلك عن الشبهة فقد كان حفظ القرآن ودُوره هي المستوعب الأوّل والأكثر انتشارا، ثم بعد ذلك جاءت المحاضرات التي برع فيها خطباء الصحوة وشعراؤها وحتى علماؤها فأثر ذلك تأثيرا كبيرا في بيئات كانت متعطشة للجانب الروحي من جهة، وكانت تجد في التدين والعودة للإسلام عزاء عن واقع مرير سواء في الجانب السياسي والهزائم العسكرية، أو الظلم المنصب على المسلمين في بلاد كثيرة كفلسطين والهند وأفغانستان وغيرها.

أو الجانب الاقتصادي الذي شكل التديّن وأدبياته مسكّنات وملاجئ للتصبّر على الفقر وقلة ذات اليد.

اعتمدت استراتيجيات الجماعات والتيارات على عوامل كسب الأشخاص والتكاثر بهم أو تحقيق الانتصارات العسكرية والسياسية، وكل هذا -بدون تربية- لا حقيقة له ولا واقع، بل فقاعة صابون كما قال الألباني مرة.

انتقل إلى الفهرس

وبالفعل كان الإقبال على الدين والرجوع إليه كبيراً أكبر من قدرة أولئك الذين دعوا إليه بل دعني أقول إنّ ذلك لم يكن منهم على بال لأنّ الأهم كان عودة الجماهير إلى الله وهذا مقصد نبيل بلا شك.

ولم يكن ذلك بالضرورة نتيجة جهود الصحويين فقط بل كما قلت لك إنه بسبب تظافر عوامل أخرى كانت المسبب الرئيس، **فالشرارة التي تسبب الانفجار ليست هي التي صنعته.**

كان الأمر أشبه بمن يصطاد في بحر مليء بالسمك لا يحتاج إلى احتراف الصيد والمهارة لكثرة السمك، وكذلك كان الأمر لكثرة المتعَبين والمتعطشين والمكلومين والفارغين جاءت الدعوة إبان زمن الصحوة لتكون البديل الأوفر حظاً يساعدها على ذلك كما قلت قربها ومضامينها الشرعية.

لكن هذه الجماهير التي شُحنت بعاطفة جياشة وخاصة الشباب والفتيان منهم لم يجدوا لها متنفسا، فكان الموقف صعبا دون أن يشعر أحد بصعوبته.

وكان أكبر مستفيد من الكثرة العمياء هي الجماعات المنظمة التي اصْطَفَت من استطاعت من هؤلاء المقبلين على الدين في برامجها ونظمتهم في سلكها لتنفذ بهم أجندات معدة سلفا، إمّا مشاريع سياسية أو جهادية عسكرية أو غير ذلك.

وأمّا البقية فانخرطوا في مشاريعهم الفردية من طلب علم أو عمل أو غير ذلك لكن مع وَلَاء لاتجاهات يرون فيها التمثيل الكامل أو الأقرب للإسلام.

وكان الصوت الأضعف في كل هذا هو صوت العلم السلفي الحقيقي المتّزن بميزان الكتاب والسنة وفهم أئمة السلف للدين ولآليات الصراع مع الباطل والتعامل معه وكذلك وظيفة أهل الإيمان في مجتمعاتهم وكيفية التوفيق بين واجباتهم تجاه دينهم وبين استحقاقات المواطنة والمجتمع بكل فئاته ومكوناته.

ولهذا لا عجب أن رأينا انتكاسات تحصل داخل الصحوة ومكوناتها قبل أن يُنسب فشلها إلى خصومها، لأنّ الجسد المريض في باطنه لابد أن يأتي اليوم الذي ينهار فيه وتبدوا عليه آثار المرض الباطن وآثار الخلل في التركيب.

والله يعلم كم تحدثنا عن هذه الأمور في مجالس وفي مقالات ولكن لكلّ أجلٍ كتاب.

وعلى العموم فإنّ هذا الذي قلناه على مافيه من خلل كان مع ذلك تقديراً ربانياً كما قلنا أولاً وكان خاضعاً لسنن كونية ذكرها الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[البقرة:٢٥١] فمن سنة الله أن الأسباب والنتائج التاريخية تتفاعل كما تتفاعل المواد الكيميائية وتساعدها عوامل فيزيائية وكل ذلك يعطي نتائج تعيد التوازن في حدّه الذي يحفظ الأرض من الفساد المطلق الذي يؤذن بزوال الدنيا.

فالإغراق في جانب العلمانية والجفاف الروحي الذي نتج عن حرب الغرب على الدين والتدين بشكل عام إضافة إلى طغيان المادية على الحياة المعاصرة كان ذلك سببا في ردة الفعل هذه وساعد عليها كما قلنا وجود الدعاة والعلماء والجماعات والأحزاب الإسلامية.

انتقل إلى الفهرس

ومثل ذلك يقال في النومة التي تلي الصحوة الآن فليست انتصاراً ليبرالياً كما يتصوّر البعض أو أنّها جاءت نتيجة جهود التنوير والحداثة، أبداً، فالذي يحصل الآن أيضاً ردة فعل على ممارسة الدين وطرحه للناس بشكل غير الشكل الحقيقي، في مجالات عديدة، استغلالاً للقوة المتوهمة التي اغترّ بها الصحويون والتي ترتكز على أسباب غير حقيقية كما قربنا الصورة آنفا.

ولهذا فما نراه اليوم من ظواهر سلبية هو استجابة طبيعية للشهوات والرغبات فقط من جمهور كبير غالبه فتيان صغار، وليس انتصاراً لمشروع الحداثة ورموزه، ولو رجع الأمر بالناس إلى الوراء سيتكرر الأمر وإن كان بصورة مختلفة لكن السنّة واحدة، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وكل ما يحصل في النهاية تدبير رب العالمين مهما يكن ظاهره من الشر ففي طياته الخير حقا وصدقا كما قال تعالى في مناسبة أخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾[النور:١١].

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

الإخوان المسلمون

الجماعات التي اتخذت العسكرة والسياسة طريقة في الدعوة واستعادة أمجاد الأمة كثيرة، لكن جماعة الإخوان تسيّدت المواقف لأسباب، أهمّ هذه الأسباب أنّها أكثر جماعة سيّلت أصولها، بمعنى أنّ هذه الجماعة جعلت الأصل الوحيد الثابت عندهم هو الجماعة ككيان حسي، أما غير ذلك فهو قابل للتشكل والتغير بحسب ظروف الزمان والمكان.

ولا أريد الاسترسال في ذكر تاريخ الجماعة ومالها وما عليها فالشبكة العنكبوتية ومن قبلها رفوف المكاتب مليئة بالكتب التي تتحدث عن الجماعة مدحا أو ذما أو نقدا.

وإنما نلخص من ذلك ما يهمنا تقديمه في سياق الحديث عن مرحلة الصحوة ودور الجماعة فيها.

تأسست الجماعة في مصر عام ١٩٢٨م على يد حسن البنّا. وقدمها لجمهوره ولمخالفيه على أنّها جماعة إسلامية المضمون والأهداف مدنية الوسائل والتعامل. ومنذ البدء حدد البنا ومرافقوه أهداف الجماعة الكبرى، وأطر لها إطارها العام، وسن لها سننها وأخلاقها واستمدادها ومجال العمل الإسلامي الذي تقوم به، وكل ذلك يتسم بالشمولية.

وهذا ليس راجعا إلى قوة الجماعة بالضرورة أو قدراتها الخارقة، وإنما لشيء في أساس تصورها لواقعها وواقع المجتمعات الإسلامية، أعني اعتبارها مرحلة أولية من مراحل قيام الأمة والجماعة بمعناها الإسلامي،

والأمة والخليفة يجب أن يكون من الأساس متصفا بالشمولية، خاصة حين يُدعى المسلمون إلى بيعة المرشد العام للجماعة وهو في صميم قناعاتهم الإمام الأعظم وخليفة المسلمين.

بدأت كحركة دينية واجتماعية، دعت إلى الإسلام في مصر، وعلمت الأميين، وأنشأت المساجد والمدارس الإسلامية والمستشفيات والشركات التجارية، تقدمت لاحقًا إلى الساحة السياسية لإنهاء السيطرة الاستعمارية البريطانية على مصر.

الهدف المعلن للجماعة حسب موقعها الرسمي هو إقامة دولة مدنية ديمقراطية ذات مرجعية إسلامية وتحكم بالشريعة الإسلامية.

انتشرت تعاليم البنا إلى ما هو أبعد من مصر، حيث أثرت اليوم على مجموعة متنوعة من الحركات الإسلامية من المنظمات الخيرية والدعوية إلى الأحزاب السياسية في أكثر من ثمانين دولة ولا تستخدم جميعها نفس الاسم.

ومنذ نشأتها نشأ معها خصومها سواء من العلمانيين وغيرهم من معارضي المشروع الإسلامي من أساسه.

أو من الإسلاميين الذين يرون أنهم مخطئين في أهدافهم أو أساليبهم أو منهجهم أو غير ذلك من أوجه الخلاف التنظيمي.

ولهذا كان خصومها كثر ومن عدة اتجاهات، ورغم هذا فإن الجماعة بقيت قوية عصية على الحل حتى مع كثرة ما صدر ضدها من أحكام قضائية وما جوبهت به من عقوبات أو ملاحقات أمنية وتصفيات جسدية ومصادرة للممتلكات وغلق للمقار عزل لهم عن مواقع القرار والقوة.

وبطبيعة الحال انضم للجماعة كثيرون ممن حمل هم الأمة والدعوة كثير منهم قناعة بمشروعيتها، وبعضهم تسلقا بها إلى مواقع التأثير لدعوة الأتباع والعمل للإسلام من خلال ما توفره الجماعاة من إمكانات.

وبعضهم رضوخا واستسلاما بعد قناعته بعدم القدرة على مناطحة جماعة قوية متحكمة في كل مفاصل المجتمع أو مواقع التأثير من مؤسسات أو غير ذلك. ورأى أنها على الأقل إسلامية التوجه على ما فيها من أخطاء يمكن علاجها من الداخل.

والذي يؤدي إليه النظر في أصول هذه الجماعة ومنهجها وسلوكها وما صدر من رموزها وقادتها أنّها جماعة مارقة من السنة وأنها من ضمن الفرق الهالكة اتي أشار إليها حديث الافتراق.

وقد قال بعض مدافعاً عنها: إنّ الجماعة ليس لها منهج عقدي معيّن، بل فيها كثير من أهل السنّة، فكيف يُحكم عليها بأنّها من الفرق الهالكة؟

أقول: هذا الكلام من أعجب ما قرأت وسمعت، إذ لو تأمّل قائله لوجد أنّ هذا ما يُطلق عليه "عذر أقبح من ذنب"، كما لو قيل إنّ فلانا نصراني أو يهودي فينبري من يدافع عنه بأنّه لا دين له!

وهل يسوغ أن يكون المرء مجهول الديانة؟ أو مجهول الاعتقاد والمنهج؟ وهل هذا إلاّ الإلحاد بعينه.

ولا فرق في هذا بين الفرد وبين الجماعة، فكلّ كيان شرعي أو مؤسسة شرعية تدعوا إلى الله أو تعلم الشرع أو تأسست على أساس من هذا لا يجوز

إلاّ أن تكون ذات اعتقاد ومنهج، فإذا لم يكن لها اعتقاد ومنهج فهذا أسوأ من أن تكون ذات اعتقاد مخالف بعينه.

فلو قيل إنّ هذه الجماعة أشعرية أو صوفية أو غير لكان هذا سيئاً، لكن أن تكون محايدة في الاعتقاد والمنهج فهذا يعني أن تكون جمّاعة لكل بلاء، وهذا هو واقع الجماعة فعلا، فلا يوجد معتقد فاسد إلاّ والجماعة مركبه السّهل، فالتصوّف والتمشعر والرفض، بل وحتى الفكر العلماني والليبرالي المتأسلم الذي يسمونه التنويري وهو مضادّ لأساس الدعوة للإسلام تجد رموزه ومتحدثيه على منابر الجماعة.

في الإسلام لا يُقبل أن يكون الفرد والكيان محايدا، بل يجب عليه أن يكون مسلما متبرئا من كل ملة وكل اعتقاد إلاّ دين الإسلام وعقيدة السلف، ومن أبى ذلك فليرض بقسمته من الفرق الهالكة شاء من شاء وأبى من أبى.

وقال بعضهم: إنّه لا يجوز الحكم عليها بذلك لأنّها جماعة سياسية وحزب سياسي.

قلنا: إذن فليكن كذلك، فحينئذ هي مثلها مثل أي حزب سياسي علماني لا يمتّ للإسلام بصلة ولا يجوز أن يوالى أصحابه ويتعصب لهم على أضدادهم ومنافسيهم ويشتغل المسلمون بل الدعاة والعلماء بالدعاية لهم وترشيحهم في كل محفل على أنهم يمثلون حاكمية الشريعة أو الإسلام.

وهذا هو واقعهم الذي رأيناه، فكل كلامهم أثناء الترشح فيه تبرؤ من كل القيم الشرعية التي رفعوا بها عقيرتهم، فأصبح اليهود والنصارى

إخوانهم، وأصبحت أمريكا كيانا سياسيا يمكن التعامل معه وفق ما تراه وتريده وهذا نفس الذي ينكرون به على ولاة الأمور ويكفرونهم به.

وفي ظل حكومات الإخوان مرّت تشريعات في برلمانات يسيطرون عليها مخالفة للمعلوم من الدين بالضرورة، لم يحصل مثلها في أسوأ النظم العربية التي ثاروا عليها!

وإذا كان الأمر محصورا في تحقيق التنمية والعدالة الاجتماعية فهم كغيرهم من الأحزاب، لا فرق بينهم ولا يجوز التعصب لهم فقط لمجرد التكسب بالشعار الديني الذي يرفعونه ويتجارون به.

قال بعضهم: إنّ الكلام في هذه الجماعة لا يجوز أن يكون عاماً فليس كل من فيها أشعري أو صوفي بل فيهم من أهل السنة، وأنّ الحكم يكون على الأفراد أنفسهم، فمن كان منهم على طريقة السلف فهو سلفي، ومن لم يكن فليس كذلك.

وهذا القول من قائله ليس قول عارف بطريقة السلف في الحكم على المخالفين، فالسلف لا ينظرون إلى القدر المشترك، بل ينظرون إلى نقاط الخلاف فيحكمون بها.

فالأشاعرة مثلاً موافقون للسلف في مسائل ومخالفون لهم في مسائل، ومع هذا بدّعهم أئمّة السلف، دونما نظر إلى القدر الذي وافقوا فيه أهل السنة.

وقد أشار إلى ذلك ابن القيّم – رحِمَه الله – في قاعدة قيّمة صيّبة حيث قال – رحِمَه الله –: «ما من حق وباطل إلا وبينهما اشتراك من بعض الوجوه،

ولوفي أصل الوجود، أو في أصل الإخبار، أو في مجرد المعلومية، بأن يكون هذا معلوما مذكورا، وهذا معلوما مذكورا، ولكل واحد منهما خصائص يتميز بها عن الآخر.

فأحظى الناس بالحق وأسعدهم به الذي يقع على الخصائص المميزة الفارقة، ويلغي القدر المشترك فيحكم بالقدر الفارق على القدر المشترك ويفصله به.

وأبعدهم عن الحق والهدى من عكس هذا السير، وسلك ضد هذه الطريق، فألغى الخصائص الفارقة، وأخذ القدر المشترك وحكم به على القدر الفارق»(١).

وإذا جئت تطبّق هذه القاعدة فيما نحن في صدده تبيّن لك طريقة السّلف، وهي الحكم بالخصائص الفارقة الّتي تتميّز بها الجماعات والفرق والطوائف والأحزاب، وإلغاء القدر المشترك.

وهذا عكس طريقة أهل التّلبيس والتّضليل الّذين يصرّون على الأخذ بالقدر المشترك ويحكمون به على الجماعات والطوائف وغض الطرف عن الخصائص المميّزة، فيقول قائلهم: إنّ النقاط المشتركة بيننا كثيرة فيجب الكلام عنها والتعاون عليها وتأجيل أو السكوت عن نقاط الخلاف، ونقاط الخلاف هذه هي الخصائص المميّزة لكل طائفة وجماعة عن الأخرى، وهي

(١) الصواعق٤/١٢١٦.

في نفس الوقت خصائصها الّتي تبيّن مفارقتها لمنهج السّلف أو أهل السنّة والجماعة.

وكذلك جماعة الإخوان وأشباههم، هم خارجون عن منهج السلف من حيث القدر الذي خالفوا فيه السلف، ألا وهو هدم ركيزة الولاء للسنة وأهلها والعداء للبدعة وأهلها، وهذا أصل قائم بذاته، استحقت به وصف الشيخ ابن باز – رحِمَه الله – بأنّها من الفرق الهالكة.

وأقول كذلك: إنّ المؤمن مأمور ببيان موقفه من الكفر وأهله والبدعة وأهلها، ولا يكفي مجرد الكفّ عنها، بل لابدّ أن يكون له موقف من أصحابها، ببغضهم ومفارقتهم ومجانبة مجالسهم ونواديهم.

وقد عُرف موقف السلف من أفراد يتساهلون في مخالطة أهل البدع، وتلك الآثار المنقولة عنهم تدلّك على أنّ المنهج الّذي تقوم عليه الجماعات ومنها الإخوان هو بذاته أصل بدعي قائم بذاته يخرج الجماعة عن صفوف الفرقة الناجية ويلقي بها في غياهب الفرق الهالكة، حتّى لو قيل إنّ الجماعة ليست لها منهج عقدي أو فكري محدد، فهذه العدمية هي بذاتها منهج إذ حقيقتها التخلي عن التزام منهج السلف وعن الولاء له والدعوة إليه.

كسرُ "أشدّ عُرَى الإيمان" هي الرئة الّتي تتنفّس بها هذه الجماعات، أعني الولاء للسنة وأهل السنة والبراء من البدعة وأهل البدعة.

فطريقة هذه الجماعات هي التجميع القائم على تحطيم الحواجز بين من ينتمي إلى الإسلام مهما كان ولاؤه الفكري والعقدي والمذهبي، ولهذا تجد

فيها المعتزلي والأشعري والصوفي والعصراني والعقلاني، أمّا أصحاب المخالفات السلوكية فحدث ولا حرج.

قال ابنُ عبّاسٍ - رضي الله عنهما -: «من أقرّ باسمٍ من هذهِ الأسماءِ المحدثةِ فقَد خلعَ ربقةَ الإسلامِ من عُنقِه».

وقال ميمونُ بنُ مهران: «إيّاكُم وكلّ اسمٍ يسمّى بغيرِ الإسلامِ».

وقال مالكُ بن أنس: «لم يكن من هذهِ الأهواءِ على عهدِ النّبيّ ﷺ ولا أبي بكرٍ ولا عمرَ ولا عثمان».

وقال مالك بن مغولٍ: «إذا تسمّى الرّجلُ بغيرِ الإسلامِ والسّنّةِ فألحِقهُ بأيّ دينٍ شئت».

٥. ومن ضِمنِ من يجِبُ الحذَرُ والتّحذيرُ منهم: صاحبُ الوجهَين، الّذي يزعُمُ أنّه على السّنّةِ، وعلى منهجِ السّلفِ، ثمّ هو مخالِطٌ للمبتدعةِ مصاحِبٌ لهم، ساكِتٌ عن باطلِهم، فعن يحيى بن سعيد قالَ: لمّا قدم سفيانُ الثّوري البصرةَ جعلَ ينظرُ في أمرِ الرّبيعِ بن صُبَيح، وقدرِه عند النّاس، سأل أيّ شيء مذهبه؟ قالوا: ما مذهبُه إلاّ السّنّة، قالَ: من بطانتُه؟ قالوا: أهلُ القدرِ، قالَ: هو قدرِيّ.

وقيلَ للأوزاعيّ: إنّ رجلاً يقولُ: أنا أجالِسُ أهلَ السنةِ، وأجالِسُ أهلَ البِدَعِ، فقالَ الأوزاعِي: «هذا رجلٌ يريدُ أن يساوِيَ بين الحقِّ والباطِلِ»، قالَ ابنُ بطّةَ: معلِّقاً: «كثُر هذا الضّربُ مِن النّاسِ في زمانِنا هذا، لا كثّرهم الله»(١).

---

(١) انظر الإبانة الكبرى (٢ / ٤٥٣ - ٤٥٧).

عن عقبة قالَ: كنتُ عند أرطأةَ بنِ المنذرِ فقالَ بعضُ أهلِ المجلسِ: ما تقولونَ في الرّجل يجالِسُ أهلَ السّنّةِ ويخالِطُهم، فإذا ذُكِرَ أهلُ البدعِ قالَ: دعونَا مِن ذكرِهم، لا تذكروهُم (١)، قالَ أرطأةُ: هوَ مِنهم، لا يلَبِّس علَيكم أمرَه، قالَ فأنكرتُ ذلكَ مِن قولِ أرطأةَ، قالَ: فقدِمتُ علَى الأوزاعِيّ وكانَ كشّافاً لهذهِ الأشياءِ إذا بلَغَته، فقالَ: «صدقَ أرطأةُ، والقولُ ما قالَ، هذا يَنهى عن ذكرِهم، ومتَى يُحذَرُوا إذا لم يُشادَ بذكرِهم؟!»(٢).

وقال الفُضيلُ بنُ عِياض: «لا يمكنُ أن يكونَ صاحبُ سنّةٍ يمالئُ صاحبَ بدعةٍ إلاّ مِن النّفاقِ».

وقالَ ابن عون: «من يجالِسُ أهلَ البدعِ أشدّ علينا مِن أهلِ البدَعِ»(٣).

قالَ الإمامُ محمّد بن الحسينِ الآجُرّيّ: «وبعد هذا نأمرُ بحفظِ السننِ عن رسولِ الله ﷺ، وسننِ أصحابهِ - رضي الله عنه -م، والتابعينَ لهم بإحسانٍ،

---

(١) سبحان الله!، قارن هذا بما تسمعه الآن من كثير من المعاصرين، ما إن يأتي ذكر مبتدع لِيُحذر منه ويُبيّن زيغه وزيفه حتّى تكفهرّ الوجوه وتزيغ الأعين ويُقال للمتكلم: اتق الله، أعرض عن ذكر الناس، أعراض الناس مصانة، لماذا لا تنصحه بينك وبينه؟ لماذا لا ترد عليه وترسل له الرد؟ أليس له حسنات؟ لا تبخس الناس حسناتهم؟ وهكذا في سلسلة من الاعتراضات الّتي تبيّن مدى تأثير هذه الشبهة في تفكير المسلمين اليوم، وهذا بسبب الابتعاد عن منهج السلف وطريقتهم - رضي الله عنهم -.

(٢) تاريخ دمشق (٨ / ٦).

(٣) الإبانة الكبرى (رقم٤٨٦).

وقولِ أئمّةِ المسلمين مثلِ مالكِ ابن أنَس، و الأوزاعِي، و سفيانَ الثّوري، و ابنِ المبارك، وأمثالهم، والشافعيِّ، و أحمدِ بن حنبل، و القاسمِ بن سَلام، ومن كانَ على طريقةِ هؤلاءِ منَ العلماءِ - رضي الله عنهم، وننبذُ مَن سِواهم، ولا نناظِر، ولا نجادِل ولا نخاصِم، وإذا لقيَ صاحبَ بِدعةٍ في طريقٍ أخذَ في غيرِه، وإن حضرَ مجلساً هوَ فيه قامَ عَنه، هكَذا أدّبَنا من مَضى من سلفِنا»[1].

وهذا الّذي نقلتُه عَن أئمّة السّلَفِ هوَ حقيقةٌ قرآنيّةٌ، وأصلٌ إيمانيٌّ متعلّقٌ بالغضبِ لله والرضاِ له، وبالولاءِ للمؤمنينَ، والبراءِ من المجرمين والخارجينَ عن صراطِ الله تعالى، وإلاّ كيفَ تصحُّ دعوَى محبّةِ الله ورسولِه والسنّةِ النبويةِ والسلفِ الصّالحِ، من شخصٍ بطانتُه ورفقاؤه من أعداءِ هذا المنهَج؟!

وكيفَ يصِحُّ منهُ الثناءُ على المخالِفينَ للسنّةِ من أهلِ الأهواءِ، ومحبّتُهم، والمجاهرةُ بتزكيتِهم، والسكوتُ عن منكراتِهم، في نفسِ الوقتِ الّذي يدّعِي انتسابَه وولاءَه للسنّةِ ومنهجِ السّلفِ الصّالحِ؟!

يقولُ الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ

(١) الشريعة (١ / ٤٥٧ -٤٥٨).

عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٧٨-٨١].

وقَد جاء تفسيرُه في السّنةِ، فعَن عبدِ الله بنِ مسعودٍ - رضي الله عنه - قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنّ أوّلَ ما دخلَ النّقصُ على بنِي إسرائيلَ؛ كانَ الرّجلُ يلقَى الرّجلَ، فيقولُ: يا هذَا اتّقِ اللهَ ودَعْ ما تصنَع؛ فإنّه لا يحِلُّ لَك، ثمّ يلقَاه منَ الغدِ فلا يمنعُه ذلكَ أن يكونَ أكيلَه، وشريبَه، وقعيدَه فلمّا فعلُوا ذلِكَ ضربَ اللهُ قلوبَ بعضِهم ببَعض» ثمّ تلا الآية[1]، فإذا كانَ هذا في المعاصِي والعصاةِ، الّذينَ يعلمونَ أنّهم يأتونَ معصيةَ الله، ولا يتّخذونَها ديناً، فكيفَ بالبِدَعِ وأهلِ البدعِ؟!

ثمّ تأمّل كيفَ أنكرَ اللهَ على أولئكَ الملعونينَ جمعَهم بين دعواهُم الإيمانَ بالله والرّسولِ وبينَ اتخاذِهم الكفّارَ أولياءَ، لتعرِف ما في ذلكَ من التناقُض.
وقالَ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠].

قالَ الإمامُ العلاّمةُ أبو جعفرٍ محمّد بنُ جريرٍ الطّبريّ: «يعني: فأنتُم إنْ لَم تقومُوا عنهُم في تلكَ الحالِ مثلُهم في فِعلِهم، لأنّكُم قد عَصَيتُم اللهَ

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (ح٣٠٤٨)، وأبو داود في الملاحم (ح٤٣٣٦)، وابن ماجه في الفتن (ح٤٠٠٦).

بجلوسِكُم معَهم، وأنتُم تسمَعُونَ آياتِ الله يكفَرُ بِها ويُستهزأُ بِها، كَما عصَوهُ باستهزائِهِم بآياتِ الله، فقد أتيتُم مِن معصيةِ الله نحوَ الّذي أتَوهُ مِنها، فأنتُم إذاً مثلُهم فِي رُكوبِكم معصيةَ الله، وإتيانِكم ما نَهاكُم اللهُ عَنهُ، وفِي هَذهِ الآيةِ الدّلالَةُ الواضِحَةُ علَى النّهيِ عَن مجالسةِ أهلِ الباطِلِ مِن كلّ نوعٍ مِن المبتدعةِ، والفسَقَةِ، عندَ خوضِهم فِي باطِلهم»[1].

وقالَ تعَالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:١٤٥].

قال العلاّمةُ الشّوكانِي –رحمه الله–: «فيهِ مِن التّهدِيدِ العظِيم، والزّجرِ البليغِ ما تقشعرُّ لَه الجلودُ، وترجُفُ منه الأفئِدَةُ، وإذا كانَ الميلُ إلَى أهويةِ المخالِفينَ لهذِه الشّريعةِ الغرّاءِ، والملّةِ الشّريفةِ، مِن رسولِ الله × – الّذي هوَ سيّدُ ولدِ آدمَ – يوجِبُ علَيه أَن يكونَ – وحاشاهُ – مِنَ الظّالِمين، فما ظنّكَ بغيرِه مِن أمّتِه، وقَد صانَ الله هذِهِ الفِرقةَ الإسلامِيّةَ بعدَ ثُبوتِ قدمِ الإسلامِ، وارتفاعِ منارِه عَن أَن يمِيلُوا إلَى شَيءٍ مِن هوَى أهلِ الكتابِ، ولَم تبقَ إلاّ دسيسةٌ شيطانِيّةٌ، وَوسِيلةٌ طاغوتيّةٌ، وهيَ ميلُ بعضِ مَن تحمّلَ حُجَجَ الله إلَى هوَى بعضِ طوائِفِ المبتدعةِ، لما يرجوهُ من الحطامِ العاجِلِ من أيدِيهم، أو الجاهِ لَدَيهم، إن كانَ لهم فِي النّاسِ دَولَةٌ، أو كانُوا من ذوِي الصّولَةِ، وهذَا الميلُ ليسَ بدونِ ذلكَ الميلِ، بَل اتّباعُ أهويةِ المبتدعةِ تُشبِهُ اتّباعَ أهويةِ أهلِ الكتابِ، كَما يشبِهُ الماءُ الماءَ، والبيضةُ البيضةَ، والتّمرةُ التّمرةَ، وقَد تكونُ

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن (٤ / ٣٢٨).

مفسدةُ اتباعِ أهويةِ المبتدعةِ أشدّ على هذِه الملّةِ مِن مفسدَةِ اتّباعِ أهويةِ أهلِ المِلَلِ، فإنّ المبتدِعةَ ينتمُونَ إلى الإسلامِ، ويُظهِرونَ للنّاسِ أنّهم ينصُرونَ الدّينَ، ويتّبعُونَ أحسنَه، وهُم على العكسِ مِن ذلكَ، والضدِّ لما هنالِك، فلا يزالونَ ينقلُونَ مَن يميلُ إلى أهويتِهم مِن بِدعةٍ إلى بِدعةٍ، ويَدفعونَه من شنعةٍ إلى شنعةٍ، حتى يسلخُوه من الدّينِ، ويخرجُوه مِنه، وهوَ يظنّ أنّه مِنه في الصّمِيم، وأنّ الصّراطَ الّذِي هُو علَيهِ هوَ الصّراطُ المستقِيم، هذا إن كانَ في عدادِ المقصّرينَ، ومِن جملةِ الجاهِلينَ، وإن كانَ من أهلِ العلمِ والفَهمِ، المميّزينَ بينَ الحقِّ والباطلِ، كانَ في اتّباعِه لأهويتِهم مِمّن أضلّهُ اللهُ على عِلم، وختمَ علَى قلبِه، وصارَ نقمةً على عبادِ اللهِ، ومصيبةً صبّها اللهُ علَى المقصّرينَ، لأنّهم يعتقِدُونَ أنّه في عِلمِه وفَهمِه لا يميلُ إلاّ إلى حقٍّ، ولا يتبعُ إلاّ الصّوابَ، فيضِلّونَ بضلالِه، فيكونُ علَيهِ إثمُهم وإثمُ مَن اقتدَى بهِ إلى يومِ القيامةِ»[1].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[الأنعام:٦٨].

قال الشوكاني: «الخِطابُ للنبيّ ﷺ، أو لكلِّ مَن يصلُح لَه.. والمعنَى: إذا رَأيتَ الّذينَ يخوضُونَ في آياتِنا بالتّكذيبِ والرّدِّ والاستهزاءِ فَدَعْهُم، ولا تقعُدْ معَهم لسَماعِ مثلِ هذَا المنكرِ العظيمِ، حتّى يخوضُوا في حديثٍ مغايرٍ لَه،

(١) فتح القدير للشوكاني(١ / ٢٩١).

انتقل إلى الفهرس

أمرَه اللهُ سبحَانَه بالإعرَاضِ عَن أهْلِ المجالِسِ الّتي يُستهانُ فيهَا بآياتِ اللهِ إلى غايةٍ، هيَ الخوضُ في غيرِ ذلِك.

وفي هذهِ الآيةِ موعِظةٌ عظيمةٌ لمن يتسمّحُ بمجالسةِ المبتدعةِ الّذينَ يحرّفونَ كلامَ اللهِ، ويتلاعَبُونَ بكتابِه وسنّةِ رسولِه، ويردّونَ ذلكَ إلى أهوائِهم المضلّةِ وبدعِهم الفاسدَةِ، فإنّه إذا لم ينكِرْ علَيهم ويغيّرْ ما هُم فيهِ، فأقلّ الأحوالِ أن يترُكَ مجالستَهُم، وذلكَ يسيرٌ علَيهِ غيرُ عسيرٍ.

وقَد يجعلونَ حضورَه معَهُم - مَعَ تنزّهِهِ عمّا يتلبّسونَ بِهِ - شبهةً يشبّهونَ بها علَى العامّةِ، فيكونُ في حضُورِه مفسدةٌ زائدةٌ على مجرّدِ سماعِ المنكرِ.

وقَد شاهَدْنا من هذهِ المجالِسِ الملعونةِ ما لا يأتِي علَيهِ الحصرُ، وقُمنَا في نصرةِ الحقِّ ودفعِ الباطِلِ بما قدِرْنا علَيهِ، وبلغَت إليهِ طاقتُنا، ومَن عرفَ هذِه الشّريعةَ المطهّرةَ حقَّ معرفتِها، عَلِمَ أنّ مجالَسةَ أهلِ البدَعِ المضلّةِ فيها مِن المفسدَةِ أضعافُ أضعافُ مَا في مجالسةِ من يعصِي اللهَ بفعلِ شَيءٍ مِن المحرّماتِ، ولا سيّما لمن كانَ غيرَ راسِخِ القدمِ في عِلمِ الكتابِ والسنّةِ، فإنّه ربّما ينفُقُ علَيهِ مِن كذباتِهم وهذيانِهم ما هوَ مِن البطلانِ بأوضَحِ مكانٍ، فينقدِحُ في قلبِهِ ما يصعبُ علاجُه ويعسُرُ دفعُهُ، فيعملُ بذلكَ مدّةَ عمرِه، ويلقَى اللهَ بِهِ معتقداً أنّه مِن الحقِّ، وهوَ مِن أبطلِ الباطِلِ وأنكرِ المنكرِ»(١).

أخيراً ينبغِي التنبّهُ إلى أمرين في هذه النقطة بالذات:

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢ / ١٨١).

انتقل إلى الفهرس

الأوّل: أنّ المرادَ مِن ذلكَ الجماعة بهيئتِها الاعتبارِيّة، أي أنّ كلامَنا هنا عَن الجماعةِ كجماعةِ، أمّا خصوصُ أفرادِ مَن ينتمِي إليهَا فالأمرُ قد يختلِفُ، وهذا قَد يشكِلُ على البعضِ لكنّه هو المتعيّن، فأنتَ قد تذمّ دولةَ من الدّولِ لانتشارِ المنكَرِ في ربوعِها وتركِ النّاسِ لشريعةِ الله، من حيثُ العمومِ، لكنّ الأفرادَ المنتسبينَ لتلكَ الدّولةِ قد يكونُ فيهِم مَن هُو محلّ ثقةٍ وصاحبُ دينٍ وعِلمٍ، وقد تتحدّث عن حزب سياسي فتذمّه من حيث منهجه وتصنّفه أيّ تصنيف مذموم، لكنّك قد تجد من أفراده من انتسب إليه جهلاً أو اجتهاداً منه لظرف شرعي سياسي زماني أو مكاني.

صحيح أنّه يلام على انتسابه للجماعة أو الحزب لكن هذا له حكمه الخاص وكل حالة لها قيودها وشروطها ولا يعارض هذا إطلاق الحكم العام.

ومن هنا تعرف أنّ الجماعة كثيراً ما تضلّل النّاس بانتساب جماعة من الفضلاء العلماء أو الدعاة إليها، خاصة في المملكة والخليج، وهؤلاء هم طارقوا الأبواب الذين أتحدث عنهم.

وهذا من أشدّ أضرار ومفاسد انتساب الفضلاء إليها، أنّهم يكونون فتنة لغيرهم من الشّباب والعامّة.

فقول البعض إنّه استفاد من كتاب فلان أو فلان من رموز الجماعة ليس حجّة، فقد استفدنا من كتب الأشاعرة في الأصول والفقه والتفسير ولن يجعل ذلك من الأشاعرة فرقة محمودة أبداً.

انتقل إلى الفهرس

الثّاني: وهو الذي يخص فتاوى بعض العلماء المنتشرة في الإنترنت ويُعنون لها بـ"تزكية العلماء لجماعة الإخوان" فإنّ التحذير من هذه الجماعات ومن الانتساب إليها شيءٌ، والتّعامُل معها شيءٌ آخر، فقد يرى المجتهدُ أنّ هذه الجماعات واقعٌ يجبُ التعاملُ معه، بتقليل مفسدتها، وتكثير منفعتها، وذلك بنصح المنتسبين إليها، وتعاهُدهم بالتوجيه ومدحهم والثناء عليهم بما فيهم من خيرٍ، والإنكار عليهم والتحذير مما يقعُون فيه من باطلٍ، وهذا لا يتعارضُ مع أصل النّظر إلى هذه الجماعات وخروجها عن منهج السّلف.

وهذا الذي رأيناه من طريقة العلماء الكبار مع هذه الجماعات، إذ قد تنازع بعضُ النّاس في حقيقة موقف المشايخ ابن بازٍ وابن عثيمين مثلاً في هذه الجماعات، ففي بعض كلامهم ذمٌّ لها، وفي بعض كلامهم توجيهٌ ونصحٌ ومداراة، وكلاهُما منهجٌ شرعيٌّ يتناسقُ ولا يتعارض، فليس في ثنائهم على ما فيهم من الخير تشجيعٌ لعامّة أمرهم أو حثٌّ للشّباب على الانتساب إليها، كما فهم البعضُ للأسف، وسوّقوا به برامج هذه الجماعة وأربّائهم الذي ضلّلوا جيلاً بأكمله إلاّ من رحم الله ونجّاه من سحرهم. والله الموفق.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

السرورية

منذ أن تعاقد وتعاهد الإمامان محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب على إقامة الملة العوجاء وردّ الناس إلى دينهم بسلطان العلم وسلطان السيف، منذ ذلك الحين عادت السلفيّة لتكون مهيمنة على الحياة العلميّة والدينية، لم يكن ذلك سهلاً أمام مقاومة كبيرة من جمهور اعتاد على تحكيم الرجال والتعصب المذهبي عداك عن مظاهر البدع والشرك، لكن الله تعالى أيد أولياءه وأعان من نصر دينه فأعزّهم وجعل كلمة مخالفيهم السفلى وكلمةُ الله هي العليا.

ثم تكالب على دولة التوحيد من تكالب، وغزتها رايات الشرك والبدعة فسقط في سبيل ذلك من سقط من الأئمة، أئمة العلم وأئمة الدولة، حتى قيّض الله الملك عبدالعزيز رحمه الله ليقيمها مرة ثالثة دائمة بإذن الله.

توحدت المملكة على يد الملك عبدالعزيز رحمه الله، وانطلقت مرحلة جديدة من الدعوة السلفية التي فرضت نفسها بما انتشر من رسائل وكتب أئمة الدعوة ومن أجابهم من علماء العالم الإسلامي الذين اقتنعوا بمضمون هذه الدعوة وأنها تمثل حقيقة الدين الذي أرسل به النّبيّ ﷺ.

حمل مشعل الدعوة منذ التأسيس الأئمة والعلماء، ومنهجهم في ذلك منهج أئمة السلف الصالح القائم على ركيزتين: أولهما: تعليم الناس دينهم ونشر السنة وكشف الشبه التي تحول بين الناس وبين الحق، والرد على

مخالفي الدعوة وبيان ضلالهم ومخالفتهم للكتاب والسنة من جهة، ولأئمتهم الذين ينتحلونهم من السلف من جهة أخرى.

وأما الركيزة الثانية: فهي الجماعة، والمحافظة على اجتماع الكلمة بين المسلمين أئمتهم وعامتهم، حكامهم ومحكوميهم، وهذا تجده سمة مستمرة منذ عهد الصحابة، فكل أئمة العلم والسنة تجد عندهم هاتين الركيزتين مهما تبدل حال المسلمين سياسياً، أو اجتماعياً، أو علمياً، بل حتى عندما كانوا يقعون في يد أيدي أهل البدع المتسلطة عليهم ظلماً وعدواناً فقط لأنهم دعاة للسنة لا تجد عندهم خروجا عن هذا المنهج، التعليم والجماعة.

كما فعل الإمام أحمد في محنة القول بخلق القرآن، وكذلك أئمة السنة والحديث الذين كتبوا مؤلفاتهم في فترات كانت الأمة تمر باحتراب واقتتال وفتن، ومع هذا لم يشتغلوا إلا بالعلم من جهة، وترك الفتن والفرقة، وعدم التحريض على الفتن.

في عهد الملك عبدالعزيز جاء حسن البنا يطلب الإذن بافتتاح مكتب رسمي لجماعته في المملكة لكن طلبه قوبل بالرفض، وتلك منة للملك عبدالعزيز في رقبة كل من عاش في هذه البلاد أن دفع عنا بلاء الإخوان منذ توحيدها.

لكن هل سكتت هذه الجماعة؟ لا، بل تواجدت وبقوة وكثافة مستغلة الأحداث التي حصلت في عهد الرئيس المصري جمال عبدالناصر، إذ فرّ كثير منهم إلى دول الخليج وفي مقدمتها المملكة التي استوعبتهم وفتحت لهم

أبوابها استجابة من الملك فيصل رحمه الله لما تمليه عليه واجبات الأخوة الإسلامية وإيواء الطريد والشريد.

كان المفترض أن يكون لأولئك الفارين إلى بلادنا من الأخلاق والمروءة أن يقدروا هذه الضيافة وأن يقابلوها باحترام المنهج والديانة السلفية التي تربي المملكة أفرادها عليها، فإن لم يهتدوا إليها ولم يقتنعوا بها فلا أقلّ من الحياد وعدم التدخّل.

والذي حصل أن هؤلاء استغلوا تمكين المملكة لهم في مناصب التعليم بالذات ووظائفه للقيام بتأسيس حاضنة لفكر الإخوان ومنهجهم، خاصة في الجامعات والمعاهد الشرعيّة.

ولكن البيئة السلفية العلمية والقوية التي يمسك بزمامها العلماء الكبار كانت عصية نوعا ما خاصة على من سبق له التشرب بها، فنشأ تيار إخواني صِرف، على يد معلمي المدارس ومعلمي حلقات تحفيظ القرآن، وتربى على أيديهم جيل ينزع إلى "الإسلاموية" كما يعبر عنها الآن، وهي حالة إعجاب جُمْلي بالإسلام، وانتماء عام للأمة، لكن دون تركيز على التفاصيل، وبدون اكتراث بالتطبيق.

يوازي هذا النشأ نشأٌ آخر تربى في محاضن العلماء نشأة سلفية تقليدية كما يقال، لكن الفتوى والرئاسة الدينية إفتاءً وقضاء كانت بيده، مما ضيّق على الإخوان فضاء الحركة والانتشار.

زاد من ذلك حركة جهيمان وعدوانه على الحرم المكي وما حصل من زيادة التضييق على المناشط الدعوية والرقابة على تحركات الجماعة.

انتقل إلى الفهرس

فحوصرت الجماعة من قبل عامِلَين: العامل الأمني الذي يدقق في مناشطهم ويمنع كثيرا منها رغم ضعفه في تلك الأيام وبدائيته التي سمحت للجماعة المتلونة أن تختفي كثيرا وتعمل في ظلّه.

والعامل الآخر هو التباين بين البيئة السلفية في المملكة التي تتشدد في كثير من المسائل الفقهية وبين طريقة الإخوان التي تفرّط حتى في الفرائض والأصول.

ولم يكن في مقدور الإخوان الجماعة الأم أن تتخلى عن المملكة لأنها قلب العالم الإسلامي والرأي الشرعي الذي لا يصدر عنها مهما يكن سيفقد بريقه وقوته التي تحتاجها الجماعة لشرعنة مشاريعها الفكرية والسياسية.

كان لابد إذن من وسط تذوب فيها الفوارق بين الخطين المتنابذين من جهة، ويحقق نوعا من الحصانة عن طريق الاقتراب من العلماء الرسميين الذين تثق بهم الدولة وتقدرهم وتحسب لرأيهم وكلامهم حسابا من التقدير والاحترام.

وهذا ما كان فعلا، ولن أعرّج على سبب هذا التشكل، وهل كان أمراً مدبراً مدروساً، أو هو استغلال لحالة التأثر بين الإخوان الذين عاشوا في المملكة فأثر فيهم الجو السلفي الذي عاشوا فيه وبين جيل تربى على أيديهم فتأثر بهم في المنهج والطريقة، المهم في المآل أنّه نشأ اتجاه جديد جمع في أفراده ودعوته وطروحاته إيجابيات كان الجيل الناشئ في حضت الصحوة متعطشا لها، كان في السابق يفتقد اجتماعها في اتجاه واحد أو جماعة واحدة.

الطرح السياسي والتحليل الفكري والخبرة بالمذاهب الفكرية ونقدها ونقد الواقع وتحليله وتفسير أحداثه، هذا كان احتياجا نبت أو تمّ استنباته في ذلك الجيل، خاصة بعد أحداث غزو العراق وصدمة الناس بما حدث مع شحّ مصادر المعلومات إلا من إذاعات تبث الأخبار والتحليل السياسي الصرف، وكان الفرد المتديّن يبحث عن التفسير الشرعي والتكييف الفقهي لمجريات الأحداث وهو مالم يكن يجده عند العلماء والدعاة السلفيين، وإنما يجده عند الإخوان الذين لا يميل إلى طريقتهم في العقيدة والولاء لها وموقفهم من المبتدع، إضافة إلى ما قلناه سابقا من ضعف التمسك بالدين أصلاً، باطناً وظاهراً.

ولهذا كان تصدر أفراد من طلبة العلم والمشايخ لتعليم العلم الشرعي والدعوة إلى تعليم الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مضيفين إليه علمهم بالواقع وتحليله وتفسيره وتنزيل النصوص عليه مع معرفة واسعة بالمذاهب الفكرية خاصة التي تتصادم صراحة من حاكمية الشريعة، كان هذا عامل إبهار وإعجاب شديدين عند غالب الشباب والكبار ممن كان متحمسا للدين ومتبنيا لفكرة حاكمية الشريعة.

سحب هذا الاتجاه البساط من تحت جهتين، الأولى: كبار العلماء والدعاة الرسميين، والأخرى الإخوان الجماعة الأم التي كانت ترى هذا الكائن الجديد يتشكل ويضرب حضورها وتأثيرها في الخاصرة.

تم هذا بطريقة ناعمة عكس ما يظهر، وبطريق ما مرّ عليّ أكثر خبثاً ودهاء منها.

أمّا كبار العلماء فاقتربوا منهم جداً وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم، وأظهروا تبجيلهم وتقديرهم، وبالفعل أدى ذلك إلى إقبال الشباب على دروس العلماء الكبار وتزاحم الناس على محاضراتهم، وفرح أكثرهم بذلك ظنا أن هذا بركة الدعوة إلى الله على يد هؤلاء المشايخ من طلابهم السلفيين.

والواقع غير ذلك، لم يكن هؤلاء العلماء يدركون أن هذه الجماعة الناشئة وظفتهم في وظيفتين:

الأولى: وظيفة المحامي عنهم، إذ حصلوا بسبب ذلك على الدعم والحماية والتزكية من قبل هؤلاء العلماء فقدّموهم للناس، بل يكفي وجودهم معهم ليكون ذلك تزكية، وكانوا في البدء يشيدون بالعلماء ووجوب احترامهم وأخذ العلم والفتوى عنهم دون غيرهم من الجهات الرسمية أو غيرها.

كما شكل ذلك درعا تدرّعوا به من القبضة الأمنية التي كانت في تلك الأيام لينة لا لضعف فيها وإنما لأنّ هذا الكائن الجديد كان على درجة من الخبث وإظهار حسن النية وإعطاء الأمان من المكر، مع ما اكتسبوه من تزكية العلماء الكبار الذين كانت الدولة تقدرهم كثيرا.

أما الوظيفة الثانية: فهي إرسال مجموعات من الموالين لهم في محاضن العلماء الكبار ليكونوا أولاً علماء في المسائل العقيدة والفقهية وغيرها، وهذا يعينهم على تنشئة أتباع مكتسبين للعلم الشرعي، ومن جهة أخرى يكونون قريبين للعلماء يوصلون لهم ما يريدون من الأنباء والأخبار ما يريدون حتى

استطاعوا أن يجعلوا بعضهم بوقا لهم يصدح بما يريدون من الفتوى أو تزكية افرادهم ومهاجمة خصومهم.

هذا بالنسبة للعلماء ولم ينج من ذلك إلا القلة، وأما الجماعة الأم فإنهم وقفوا منهم موقف عداء وخصومة في الباطن وإن أظهروا المسالمة الظاهرة، وكان الخلاف يصل بينهم أحيانا إلى التراشق بالتهم وحصل ذلك في مجلس الشيخ ابن باز رحمه الله مرات، لكن الجماعة في النهاية سكتت عن ذلك عندما علمت بعد سنوات أن هذا الكائن لا يعدو أن يكون برعماً ناتئا منها وأنه على عكس ما ظنت لن يكون خصماً بل سيكون أداة لها في تنفيذ أجنداتها في دول المسلمين.

هذه هي "السرورية" التي نشأت في المملكة تحت رعاية ومدّ وتربية عرابها الأول محمد سرور بن نايف زين العابدين، السوري المقيم في لندن إلى أن توفي قبل فترة.

جاء محمد سرور إلى السعودية وعمل بها في مجال التعليم فترة من الزمن قبل أن يغادرها، تاركا خلفه من تبنى فكرته وتولى التبشير باتجاه جديد استطاع احتواء كل المترددين في الانضمام لجماعة الإخوان وتأييدها والمتبرمين كذلك من طريقة العلماء الكبار وهديهم في معالجة الأمور بروية العالم وحكمته وخبرته.

كان لدى الإخوان عامل الحركة والعمل الجماعي والمشاركة السياسية والعلوم العصرية والعلم بالمذاهب الفكرية والسياسية، لكن إهمالهم للعلم الشرعي وعدم الاهتمام بالعقيدة والتوحيد صدّ كثيرا من السعوديين عنهم

ولم تلق حركتهم إقبالاً حقيقياً، خاصة مع النظام الذي يمنع تأسيس الجماعات والأحزاب.

وكان لدى العلماء العلم الشرعي والولاء للعقيدة لكنهم في نظر قطاع عريض من الشباب جاهلون بالواقع ولا يشبعون عاطفة جياشة وحماسا متقدا للعمل في الدعوة وإنكار المنكرات والعمل الجماعي والمؤسسي كما يفعله الإخوان.

عاشت أجيال من الشباب في هذه الفجوة التي شكلت مشكلة فعلاً، استطاع محمد سرور وخلفاؤه سدّ هذه الفجوة، ورأى كثيرون أن السرورية هي الحل إذْ أخذت من الجانبين حسناتهم وتخلت عن سيئاتهم كما ينظر عامة الشباب، فوجد اتجاه جديد يدرس العلم الشرعي والعقيدة ويتكلم في القضايا العقدية والولاء لله ورسوله وأهمية العلم، وفي نفس الوقت يتحدث عن السياسة وينخرط في العمل الدعوي المؤسسي والجماعي ويشارك في السياسة والاقتصاد ويلم بكل المذاهب الفكرية والسياسية.

هذا الاتجاه اكتسح الساحة، واستطاع أن يحصد إعجاب الجماهير حتى أصاب الإخوان المسلمين ومؤسساتهم بالشلل في بعض الأماكن لأن المال والدعم والزخم الجماهيري اتجه إلى حقائب السرورية، وفتحت لهم كل الأبواب الموصدة، حتى العلماء كثير منهم دعم هذا الاتجاه ظنا منهم أنّهم مولود شرعي للبيئة العلمية.

لم تصطدم هذه الجماعة بالعلماء ولا أفراد من علماء السلفيين ودعاتها، بل نشطت في كسب المتعاطفين معها والأتباع لها، مستغلة بذلك مجموعة من

الأدوات، أعني توظيف المواهب والقدرات في شتى المجالات وصهرها في سياق واحد، الأديب والخطيب والمنشد والحركي والتاجر والعسكري والقاضي وذو المنصب السياسي وقبل ذلك كما قلنا العالم والداعية، كل هؤلاء عمل كل منهم بما وهبه الله من ملكات خادما للهدف الذي تخطط له هذه الجماعة، كثير منهم لم يكن يعلم أو يشعر أنه عضو في فريق وإنما يطلب منه فقط أن يسهم في الدعوة إلى الله ونصرة الدين، وهكذا ملأوا السهل والجبل محاضرات وكلمات ودروس علمية وفكرية وكان يستمدون من حبل الدولة ما يمكنهم ومن حبل العلماء ما يمكنهم حتى تضخّم هذا الكائن وشعر بالقوة والقدرة على توجيه الجمهور وتنفيذ ما يريده بهم.

ولله الأمر من قبل ومن بعد، ما إن مرت بالأمّة فتنة العراق والغزو الأمريكي وأحسوا –أو هكذا ظنوا– أن الدولة ضعيفة ومشغولة والقبضة الأمنية منشغلة بالبعثيين والمخربين الآخرين، وفي أجواء تلك المحنة كشرت الجماعة لأول مرة عن أنيابها.

وبدأت في أول خطواتها في الاستقطاب فعملت على أمرين مهمين:

الأول: عزل العلماء واتهامهم بالجهل بالواقع وأنهم مستغفلون من الحكام وأن غاية ما يحسنه ابن باز ومن معه فتاوى الحيض والنفاس!

والآخر: اتهام الدولة وحكامها بالعمالة لأمريكا والغرب وأنهم أعداء للدين والشريعة وإن أظهروا خلاف ذلك.

فاهتزت عند كثير من الناشئة الثقة بولاة أمورهم وبعلمائهم الكبار وطاروا كل مطار، يتتبعون شذاذ الآفاق من الإخونج والسرورية يبتغون

عندهم ما يروي غليلهم ويطفئ نارهم من العلماء الخونة – في تصورهم– والحكام الظلمة الطغاة – كما صوروهم لهم.

مستغلين في إضلال جمهورهم جهله بالعلم الشرعي وتحكم العاطفة فيهم، ورأينا كيف انتشروا في كل مكان يُرجفون ويشيعون الأكاذيب ويقومون بعملية العزل هذه وبصفاقة ووقاحة لا مثيل لها.

حتى سُبّ العلماء واتّهِموا في دينهم من قبل أتباعهم بينما كان رموزهم يكتفون بتهمة الغفلة والجهل بالحال والمآل.

كان ذلك تحت سمع وبصر رجالات الدولة الذين أجلوا الحل معهم حتى انقشعت أزمة العراق والكويت، وأعاد الله بقدرته ورحمته الأمور إلى نصابها، ثم بعد ذلك تم التعامل مع رموزهم بالسجن والإيقاف، وبدأ الناس ينسوهم لولا أن الدولة ولسبب ما قامت بالإفراج عنهم بعد عدة سنوات، فهل تابوا وآبوا؟

الجواب بطبيعة الحال: لا، بل انتقلوا إلى مرحلة أخطر واشد مكرا، فقد تخلى بعض رموزهم عن فكرة الإسلام هو الحل، ونكسوا على رؤوسهم، حتى كفرهم بعض من ربوهم على التكفير من قبل.

وبدأ هؤلاء المنتكسون يشكلون اتجاها أقرب إلى نمط الجماعة الأم لكن في اتجاه اجتماعي أكثر منه شرعياً أو سياسياً، وإن كان الهدف المبطن موجودا.

حلق بعضهم لحاهم وخففها بعضهم، في حركة تشبه سير صغار البط خلف أمهم، فكبيرهم ذو الرأس المائلة يجيد التلاعب بأتباعه حد السخرية،

وأصبحوا رواد القنوات الفضائية التي تقدموا في سبها والتحذير من كُفْرها وتغريبها حتى قبل أن تأتينا.

وأصبح كثير منهم لا يأبه لكثير من المنكرات التي كان يقيم الدنيا ولا يقعدها إذا حدثت في مناسبة وطنية أو رسمية.

وأصبح اندماجهم العلني مع الإخوان وغيرهم من المبتدعة من رافضة أو عقلانية أو علمانية كذلك، بل وحتى اساطين الفجور الأخلاقي أصبحوا لا يتحاشون الظهور معهم والتصوير بل أصبح بعضهم عضوا في إنتاج أفلام ومسلسلات كانت في عرف بعضهم نفاقا.

ولا يهم الآن كذلك هل كان ذلك تغيرا في القناعات – وهذا ما أرجّحه – أو هو مجرد تغيير في الأسلوب.

كان هذا حاصلا من بعض كبرائهم في حين ظل الآخرون غير راضين عن هذا التوجه الجديد لكن كيف يمكن أن يترك الحزبي إخلاصه لأخدانه، ولهذا كظموا خلافهم وإنكارهم عليهم حتى ذابت الفكرة وأصبح الجميع – بدرجات متفاوتة – غير آبهين لذلك، فالمهمّ عندهم حماية الهدف الرئيس، الأممية والحاكمية.

وكل ما أقوله وقلته لدينا شواهده لكن المقال سيطول جدا فيكفي أن من راقب تلك الفترة أو عاشها يعرف صدق ما أقول.

ثم جاءت فتنة ما سمي بالربيع العربي، فما إن عزفت الفرقة معزوفتها حتى امتلأ المسرح بالراقصين، ونصبت منابر الفتنة، فاعتلاها هؤلاء ومريدوهم، ولم يبق صاحب دلو إلا أفرغ فيها من دلوه.

الخطيب، والمنشد، والعالم، والسياسي، والمفكر، والتاجر، والعسكري، وغيرهم، كشفتهم الفتنة كشفا مريعا، ومن شدة ما أذهبت عليهم عقولهم وبصيرتهم لم يتحاشوا التلفظ بكل مكنون كنّته صدورهم، وأعلنوا الخروج صراحة في دول وبشّروا به في دول أخرى.

في ساحاتهم اختلط مالم يكونوا يقبلون مجرد الاقتراب منه، اختلط الصليب بالهلال، واختلط الذكر بالأنثى، واختلط العري بالحجاب، واختلط العلماني والليبرالي بمن رفع طول دهره شعار "لا حكم إلا لله"!

كان المنظر في ساحات الفتنة مقرفا ومثيرا للاستفراغ، أشبه من يجلس على مائدة فيها كل المتناقضات.

خرج شيوخ الفتنة وخطباؤها في ساحات الجمهور يبشرون ويرقصون، منهم من أخبر بنزول الملائكة، ومنهم من رأى النبيﷺ معهم يحوطهم ويؤيدهم، ومنهم من حلف إنه يرى الخلافة الإسلامية قاب قوسين أو أدنى، كتبوا المقالات والكتب، وسجلوا الكلمات ونشطوا على وسائل التواصل وساعدهم في ذلك قنوات إعلامية أداروا بها وفيها حرباً لا هوادة فيها على المجتمعات المسالمة تحت حكومات لا يُدّعى فيها الكمال لكنها مستقرة، واستخفّوا مجموعات من الغوغاء في تلك المجتمعات ليقلبوها رأساً على عقب، تحت ذريعة الكرامة والحرية وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية وغيرها من الشعارات التي سوقها لهم ورتبها المشرّع الأمريكي الذي أراد لهذا المشروع أن ينفذ على يد أخبث وأغبى – مجتمعة- جماعة عرفها التاريخ الإسلامي كلّه.

وكادوا أن ينجحوا، ووصلت النار إلى بلادنا عندما غزت فتنتهم مصر، ثم لما شاء الله أن يطفئ الفتنة قيض لها من داخلها من يفسد فيها.

ظنت هذه الجماعة الغبية أنها بتحالفها مع الغرب وأمريكا ستخدعهم وتحصل منهم على الخلافة – زعموا- في مقابل تنازلات، لا يهم عندهم، المهم أن يصلوا، الغنوشي في تونس أقرّ المثلية والشذوذ وحكم المدنيّة والعلمانية ونادى بالليبرالية ولا أدري أيّ إسلامية كان ينادي بها طيلة عمره؟

وفي مصر استحوذت الجماعة على الحكم وخدعت من ناصرها حتى من العلمانيين بل ذهب تركض لتداهن الرافضة بل وعرض مرسي أن يفرغ غزة من أهلها ويعطيهم من سيناء منزلاً ويتركوا هم غزة لليهود.

كان لديهم استعداد ليبيعوا كل شيء لأجل المنصب والحكم.

فلا دين لهم، ولا أمانة، ولا أمان، ولا نخوة، ولا مروءة، ولا تقلّ عنهم في هذا داجنتهم "السرورية" التي نشطت في تلك الأيام على يد زعمائها، يمدهم بالعون على مخططهم دولة خليجية وأخرى رافضية إضافة إلى عراب المشروع الأمريكي.

وما عرفوا أنهم أقل ذكاء وخبرة من تلك الدول ومن الغرب الكافر الذي مسح بهم مؤخرته ثم ألقى بهم إلى مزابل التاريخ.

قيّض الله لهذه الفتنة غباء الجماعة كما قلنا بالاستحواذ الذي قلب عليها ظهر المجن وتسبب في ظهور الرئيس السيسي وما جرى بعد ذلك من أحداث مسجد رابعة التي كانت بحق حدثا فجا يؤكّد أن الإخوان وأشباه

الرجال من أتباعهم هم أنذل من عرفنا، إذ ظلت الدولة شهراً وأكثر تطلب انصرافهم وفك ذلك التمرد الذي سموه اعتصاما، لكن رؤوس الفتنة أظهروا التحدي وسبوا الحاكم وهددوه بالإعدام وغير ذلك مما يندى له الجبين من الحماقة والعبث بالدماء والأموال.

وجيشوا حولهم غوغاء كثر، وأشدّ ذلك اجتماع النساء والرجال والأطفال والشباب الصغار والفتيات كذلك، والسبب ليس فكرة التمرد بذاتها بقدر ما عرف رموزهم أنّ انصراف الحشد يعني القبض عليهم ومحاكمتهم، ولم يكن أمامهم إلى التمترس خلف الناس وإطالة أمد الاعتصام حتى يحصل لهم مدد من عرّابيهم، لكن ذلك لم يحصل وفضل هؤلاء التضحية بدماء الناس وجعلوهم فداء لهم حتى يهربوا فهرب منهم من هرب وقبض على كثير منهم ومات بسببهم خلق من الناس يسألهم الله عنهم يوم القيامة كما سيسأل قاتلهم كذلك عنهم.

عند ذلك أمدت المملكة مصر بمددها وقام الملك عبدالله رحمه الله قومة رشيدة فوقف مع مصر ضد قوى الاستكبار الغربي التي أرادت لمصر مصيرا كمصير تونس وليبيا واليمن والعراق ليمكن لهم السيطرة عليها والتمكن من خيراتها، وذلك موقف تاريخي في سلسلة المواقف التي يعرفها التاريخ المعاصر لملوك هذه الدولة أيّدها الله.

بطبيعة الحال قامت الجماعة عبر أذرعها الإعلامية بمهاجمة المملكة وسمت عملها دعما للثورة المضادّة، وحق لهم ذلك فإن مشروعهم التخريبي

بالتعاون مع أمريكا والغرب كان قاب قوسين أو أدنى، مكروا مكرا كبارا لكن الله أسرع مكرا.

لم يكن للجماعة الأم كلمة مسموعة لأنّ وجوههم وكلامهم ليس له قبول في الخليج، وإنما انبرت داجنتهم "السرورية" عبر أبواقها مرة أخرى في ترتيب أوضاعهم وأوراقهم والعودة من جديد لبث سمومها وتدريب الشباب على فقه الثورة وأدبياتها، وكانت منهم مؤتمرات وتجمعات ودورات وتدريب حثيث برعاية الدويلة– إيّاها– واستخباراتها ومباركة من الغرب وإيران، ولكنّ الله بفضله ومنّته سلّط عليهم يداً من الحق حاصدة، اجتثت جذورهم واقتلعت أصولهم وسلّط عليهم سيف القانون والشرع ليمنع شرهم وإفسادهم في الأرض، وتلك طريقة هم اختاروها وأيدوها وتعاملوا بها مع خصومهم إبان قوتهم، ومن صنع السمّ لا يلومنّ ساقيه.

هذا مختصر شديد الاختصار لحال هذه الندبة الشوهاء في وجه السلفية التي اصطلح على تسميتها "السرورية"، كانت ثمرة مرة لشجرة الحزبية المقيتة والاستعانة بجماعة مارقة على السّنّة والدين والقانون، هدفها العلو في الأرض والحكم والتسلّط خليا عن أية أغراض مشروعة.

أعضاء وكادر هذه الجماعة يظهر منهم الدعوة للعلم الشرعي والولاء للعقيدة، والبراء من أعداء السنة، وهذا ما غرّ الناشئة بهم، وكثير منهم مُتّع بذكاء ولغة راقية وبيان، ولكن كما قال الذهبي يوما في سياق قريب من هذا "«وما تنفعُ الآدابُ والبحثُ والذّكاء، وصاحِبُها هاوٍ بها في جهنّم».

كان هدف هذه الجماعة انتزاع الريادة في الساحة السلفية من العلماء، وبطريقة غاية في الذكاء، يُبقون العلماء فقط واجهةً وعنواناً لهم يصدّرونهم في الفتوى الفقهية، ويستغلون قوّتهم لدة الدولة في تصفية خصومهم من العلمانيين والحداثيين، بل وحتى السلفيين، باستصدار الفتاوى والبيانات، أو المحاكمات أو الخطابات لوليّ الأمر ونحو ذلك.

بينما يقومون هم بتولي التوجيه الحقيقي فكرياً وحركياً للمجموعات التي تتبعهم، وذلك عبر وسائل عديدة بعضها صريح ومباشر من خلال الدورات والمؤتمرات، وبعضها بالإيحاء والتهيئة النفسية من خلال وسائل التواصل والمحاضرات وغيرها.

يركزون على سلبيات الدول والحكومات، ويضخمون الأخطاء، ويفسرون تصرفات القادة تفسيرات محبطة للشعوب، يغلقون الأمل في نفوس الشباب بالذات، ويصورون المستقبل مع هذه الدول مستقبلاً مظلماً ونفَقاً مجهول النهاية.

وفي نفس الوقت يصدرون الرموز والنماذج سواء من سياسيين متحالفين معهم أو مفكرين خادمين للفكرة أو علماء شرعيين منحرفين عن منهج أهل السنة في هذه الأبواب.

وأرادوا من ذلك كله تغيير وجه السلفية وإضفاء الأبعاد السياسية والحركية والحزبية لها، لتكون مجرد استنساخ للجماعة الأم لكن بمضمون عقدي، ربما كان ذلك بسوء فهم وحسن ظن منهم بأنّ خلل الجماعة الأم في إهمال العقيدة والتوحيد وما شابها من مخالفات تصل للكفر أحياناً هو بسبب

هذا، وأنهم بمجرد زرع بذرة منها في بيئة سلفية سينتج لنا ذلك جماعة إخوانية المنهج بمضمون عقدي سلفي، وبهذا يحققون مبتغاهم في تكوين جماعة المسلمين الحقيقية، التي يجب مبايعتها والهجرة إليها في وقت لاحق حين يتحقق لهم التمكين في بلد من البلاد، لكن السنوات مرت كاشفة لهم في كل مرة أنّ ذلك مستحيل، وأنّ الخلل العقدي في الجماعة الأم ليس ساذجا ولا عابراً بل هو أصلٌ أصيلٌ في تكوينها وشرط في وجودها.

وهنا كان لزاما على أبناء هذه الفرقة الداجنة أن يختاروا بين العقيدة التي زعموا أنهم أبناءها وأنّ ولاءهم لها، وبين الجماعة الأم وأصولها فإذا هم ينساقون كالقطيع في مجاميعها وينتظمون في برامجها ومشاريعها متحالفين ومتضامنين ومتمالئين على الفساد العريض، رغم وضوح باطلهم وانكشاف عمالة الجماعة الأم وخيانتها لله، ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامّتهم.

فرأينا السكوت المطبق من أساطين العقيدة ومن لقبوا يوماً بشيوخ الإسلام رأيناهم ساكتين عن برامج ومشاريع أمّهم حتى في تحالفها مع الرافضة واستجلابهم إياهم إلى بلاد أهل الإسلام وتمكينهم فيها تحت شعارات الجهاد وتحرير الأقصى وإقامة دولة الخلافة.

وبان من أتباع هذه الفرقة الداجنة من الحزبية المقيتة ما يثير الشفقة والحزن عليهم وعلى ما آلت إليه أحوالهم، وكانوا كما قال الشعبي يوماً للحجاج حين استعتبه :"خبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء".

ظللنا فترة كبيرة من الزمن نظن أن هناك تمايزاً بين الإخوان والسرورية، لكن الأيام أثبتت أنّهما كما قال الأعشى:

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما.. بأسحم داج عوض لا تتفرق

كانت السرورية خدعة كبيرة، خدع بها كثير من طلبة العلم والشباب الإسلامي إذ أظهرت الدعوة بالعلم الشرعي ثم لما تبعتها الجماهير إذا بها تتحول إلى رافد من روافد الجماعة الأم، والمصب واحد، فهي وإن خالفتها في بعض الجوانب فكما يخالف الابن أمّه ويعقّها لكنه ابنها في النهاية لا تغضب ولا تدعو عليه، وانتهى الأمر بهم إلى برامج ترفيهية ولقاءات تمجيد وتلميع لبعضهم البعض وحراك سياسي وعسكري لا يقل خطورة عن الجماعة الأم بل هو منفتح بشكل أكبر على جهات أوسع.

ثم في المرحلة اللاحقة رأينا كيف تحولت الجماعة من الدعوة للعلم وبالعلم الشرعي والعقيدة إلى الإصلاح الاجتماعي ومن ثم تبني آراء وأفكار وأقوال رموز الاستنارة والعقلانيين كأمثال القرضاوي مثلاً، وأصبحت برامجهم لا تتدخل في الشأن الشرعي إلاّ للدفاع عن مبتدع أو منحرف فكري أو تسويغ وتخفيف مخالفات الأنظمة التي تدعمهم أو الجمعيات والأشخاص ذوي الشهرة في وسائل التواصل أو الإعلام.

فرجعت السرورية إلى الاتفاق مع الإخوان الجماعة الأم في أسوأ ما تبنته من أفكار العنف والتغيير غير السلمي عبر وسائل سلمية كما يدعون، وساعد على كشف وجهها القبيح ما ظنوه من بشائر النصر في ثورات الخريف العربي فسارعوا لجني الغنائم وإعلان النصر وظنوا أنّهم جاوزوا

مرحلة الإعداد إلى التنفيذ بقلب أنظمة الحكم في كل البلاد العربية تمهيدا لإقامة دولة الخلافة المزعومة، ورأينا كيف خطب سفهاء القوم في مصر بالخلافة وجيشوا الشعوب ضد بلدانهم فخربت البلاد وهلك العباد وانكشف الملعوب الذي لعبته الجماعة الأم مع الغرب الذي تكفّره وتريد جهاده لتخريب بلاد المسلمين.

ولا يزال تخرج منهم خارجة جيلا بعد جيل، لأن البذور التي بذرها البنا ورجالات الجماعة المارقة في الأمة وتأسس عليها كيانات يربي فيها السالفُ الخالفَ ممتدة الجذور واقتلاعها ليس سهلاً إلا أن يشاء الله، ولن تزال بلاد المسلمين تصطلي بنارهم وفجورهم في الخصومة وفسوقهم في المنهج والديانة، لأن الغرب الذي رعى تأسيس هذه الجماعة وأعانها وأحاطها طيلة العقود الماضية يعرف أهميتها ويعرف كيف يستخدمها متى شاء في الطعن في خواصر بلاد المسلمين العرب خاصة والسنة على وجه الخصوص وسيحافظ عليها مهما كلفه الأمر، وإن كانت بعض بلادنا بحمدالله تنبهت أخيرا لعظيم خطرهم وأنهم ليسوا مجرّد أفراد ضلوا السبيل بل هم خونة الأوطان وعملاء الغرب الذي يعيش كثير منهم فيه ومنه ينطلقون في تكفير الدول التي تتعامل معه، صورة فجة ووقحة تعبر عن حال هذه الجماعة وتناقضاتها التي لا تنتهي هي وداجنتها التي أرادت استلاب السلفية وسرقتها فلم تعدُ أن كانت ندبة قبيحة في وجه السلفية، والله المستعان.

❀ ❀ ❀

انتقل إلى الفهرس

الجامية

الجامية أو المدخلية أو المداخلة أو الخلوف أو أهل المدينة. كل هذه ألقاب خلعها الصحويون على الاتجاه السلفي الذي عارض الحراك المعارض للدولة إبان غزو العراق للكويت، وكان الهدف من هذا إضعاف تأثير العلماء الكبار في الرأي العام الذي بات في تلك الأزمة رهينا للخطاب الصحوي وتابعا له.

فهو إطلاق مغالط يخلط الصواب بالخطأ والحق بالباطل، تماما كما أطلق خصوم دعوة التوحيد لقب "الوهابية".

فالجامية من حيث الأصل نسبة للعلامة محمد بن أمان الجامي رحمه الله، سميت به طريق السلفية في نقد مقالات المخالفين للسنة وعلى رأسهم الإخوان وداجنتهم التي سبق الحديث عنها، وكان الهدف تنفير الناس عن قبول كلامهم في مخالفيهم من جماعات التكفير والتخريب.

ربما تتعجب من هذا الكلام لكنه الحقيقة، وقبل أن أسرد لك مختصرا عن الموضوع لابد أن أقر أن هذا الاتجاه – شأنه شأن أي توجه آخر – شابه أخطاء وتصرفات شخصية فردية أو جماعية من بعض الفئات التي انتسبت إليه، في كثير منها حزبية متسترة وفي كثير منها جهل وفي كثير منها تصفية حسابات وفي كثير منها مواقف نابعة من حسد وحقد.

وهذا شيء طبيعي لأن المنتمين إلى الاتجاه السلفي ليسوا ملائكة فهم كغيرهم يعتورهم النقص البشري من حسد وفساد نية وغيرها من آفات العمل.

ولسبب آخر أن المدارس والاتجاهات الثقافية أو الدعوية أو الشرعية أو السياسية وغير ذلك لا تسلم من انتساب أشخاص يسيئون إليها بعمد أو دون عمد.

لذلك عند الحكم على الجامية أو المداخلة كما يُقال عليك أن تحكم عليها من خلال أمرين:

الأول: مضمون الدعوة والاتجاه.

الثاني: رموزها والأسماء التي تنتسب إليها.

أما من حيث المضمون فالسلفية –الجامية– ليس لديها دين جديد أو سنة جديدة أو مذهب جديد تدعو إليها، بل خالص دعوتها هو الرجوع إلى منهج أهل السنة الذي يتمثل في مذهب العلماء الكبار وهو واضح معلن من خلال فتاويهم ودروسهم وبياناتهم الرسمية، لن تجد في كلام أي من دعاة السلفية ومنتسبيها المشهورين حرفا واحدا خلاف ذلك.

هل تجد في كلام بعضهم سبا مقذعاً؟ نعم.

هل في كلام أفراد منهم رائحة الحسد والمنافسة؟ نعم هذا موجود.

هل في مواقف بعضهم غلو ومبالغة خاصة في مسائل الهجر والإنكار على المخالف؟ نعم صحيح.

لكن هل هذا دليل على خطأ المضمون الذي دعوا إليه مخالفيهم؟

أو: هل هذا دليل على صواب مخالفيهم؟

الجواب: قطعا لا.

ولو قيل غير ذلك – وقد قيل- فإن هذا طعن في مذهب السلف كله شعر المتكلم أم لم يشعر.

السلفيون ليس لديهم جديد في باب توحيد الله، ولا في الأسماء والصفات، ولا في السمعيات كلها، ولا في باب القدر، ولا في الموقف من النبوات ولا الصحابة، ولا في القرآن، ولا باب الأسماء والأحكام، ولا في تعريف الإيمان ومنزلة العمل فيه ولا أي من أبواب العقيدة والسلوك والاتباع.

وأما من حيث رجالات السلفية وأئمتهم فهم صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان وأئمة السنة وصولا إلى الزمن المعاصر حيث تعتبر السلفية – الجامية- الشيخ ابن باز والشيخ الألباني والشيخ ابن عثيمين وبقية مشايخ اللجنة الدائمة وهيئة كبار العلماء في المملكة وكل من هو على منهجهم وسنتهم من علماء العالم الإسلامي تعتبرهم المتبوعين في الأمور العامة والفتوى العامة وفي منهج التلقي والاتباع.

هذا خلاصة ما عليه الجامية فلماذا اكتسبت هذا الزخم حتى إنه يتحدث عنها وعن مواقفها بنو الأصفر؟

الحقيقة أن لقب الجامية وما يشبهه كان نوعا من الحملة الدعائية المضادة التي افتعلها الصحويون في سبيل إضعاف أثر السلفية على تصورات الجيل الذي كان يتم مسخ تصوراته وتدجينه لصالح جماعة الخراب والفوضى.

لم يكن الصحويون يخشون الجهات الأمنية لأنهم غذّوا في نفوس الناشئة أن الدولة بأجهزتها الأمنية هي العدو الّذي ستتم مجابهته ولابد من تضحيات في سبيل ذلك.

ولهذا ما إن جاءت الفرصة سانحة في أزمة الخليج الأولى حتى أعلنوا التمرد في شكل محاضرات تطعن ليل نهار في ولاة الأمر وتوجهات الدولة وتراكم مرة بعد مرة الحجب بين الجيل الناشئ وبين الرؤية الصحيحة والمنهج الصحيح في الفتن وفي الأمور العامّة، المتمثل في اتباع الولاة والعلماء.

ولم يكن بينهم وبين هذا إلا العلماء الكبار، وكان من السهل في ذلك الزمان تغييبهم لقلة وضعف قنوات التواصل بين العلماء الكبار وبين الناس، وبطء حركة العلماء كذلك لعوامل عديدة.

وما وصل إلى الناس عبر التلفاز أو المذياع فيتم الطعن فيه أو في مقاصده أو تأويله بما يتوافق مع طروحاتهم.

وكانت محاضرات القوم مهوى أفئدة الجيل الناشئ شباباً وشيباً، وجمهورهم بالآلاف، وكلّهم يتمّ تعبئته نفسياً وشحنه عاطفياً ضد ولي الأمر وكل ما يصدر عنه ومنه.

وعند ذلك برز لهم من لم يكونوا يحسبون له حسابا، الشيخ ربيع بن هادي المدخلي، والشيخ محمد بن أمان الجامي، والحقيقة أنّ من عرف حجم ما كان يواجهه الشيخان يعلم يقينا أنّ ما فعلاه تأييد من الله تعالى وإنقاذ منه لهذه البلاد ولجيل كامل كاد الإخوان والسروريون أن يبتلعوه.

انتقل إلى الفهرس

وقف الشيخان من دعاة الفتنة ورموزها موقفا قويا، ساعدهم على ذلك الحق الذي دعيا إليه، فالكتاب والسنة ومنهج السلف ألجما كل المخالفين، فلم يجدوا أمام هذا إلاّ الألقاب والدعاية المضادة واتهام النيات بالحسد تارة والمال تارة والعمالة للسلطان تارة.

وهيجوا في سبيل ذلك ضدهم آلاف الرعاع والسفهاء من أتباعهم، ومنعوهما من دخول المساجد وإلقاء المحاضرات في حوادث معلومة.

وبلغ بهم الأمر إلى العدوان الجسدي أحياناً وإطفاء الكهرباء في المحافل التي يلقون فيها المحاضرات وأشياء كثيرة يندى لها الجبين.

فقد الصحويّون صوابهم وأصبحوا يقدحون ليل نهار في الأصول التي عليها السلف وأئمتهم وعلماء هذا الزمان عن طريق الطعن في الجامية والمدخلية.. الخ.

تماماً كما طعن أسلافهم في اختراع لقب الوهابية ونسبوا إليها كل نقيصة طعنا في مذهب السلف وأئمة السنة في ثوب الوهابية.

توفي الشيخ محمد رحمه الله مبكرا واستمر الشيخ ربيع رحمه الله من بعده ومعه ثلة من المشايخ وطلبة العلم في المدينة ومن ثم انتشرت المواجهة مع الصحويين في الرياض وجدة وبقية مدن المملكة.

والحقيقة التي يجب الإقرار بها أنّ للشيخ ربيع رحمه الله في رقبة كل السعوديين منّة عظيمة، فوالله الذي لا إله غيره لقد لقي في سبيل مواجهة القوم من صنوف الظلم والبهتان والكيد والمكر ما لا يصدق سليم النية أنه

يصدر من عاقل فضلاً عن مسلم فضلا عمن يرفعون شعار الديانة وتغيير واقع الأمة.

ولم يسلم الشيخ ر حمه الله من الخطأ فهو غير معصوم لكن اتخاذ هذه الأخطاء ذريعة لرد المنهج والدعوة التي قام بها إنما هو سبيل الجهلاء وأهل الأهواء.

الجامية والمدخلية أو سمها ما شئت هي دعوة واتجاه سلفي المضمون، وأئمته ورموزه هم أئمة الدعوة، لكن لا تجعل الأمر كأنك تتكلم عن أصحاب رسول الله ﷺ.

ففي الجامية والمدخلية منتسبون لها على جهل بالدين وجهل حتى بالسلفية التي يدعون إليها وهؤلاء لا يضرون المنهج شيئاً ولا يتخذهم ذريعة للطعن في السلفية إلا أهل الأهواء، كما يتخذ الغرب الدواعش والقاعدة ذريعة لمهاجمة الإسلام واتهامه.

ومن العجب أنّ الشيخ الجامي كان قبل حدوث الفتنة التي كانت إبان غزو العراق للكويت مُعَظما عند غالب أتباع داجنة الإخوان ورموزهم، وكانت دروسه التي رد فيها على خصوم العقيدة السلفية تتلقف وتُباع ويُثنى عليها من قبل رموزهم.

ويبدو أن هذا كان من قبيل حراكهم الذي سبق أن ذكرناه لتسويق منهجهم عبر الثناء على العلماء وتوليّهم.

لكن ما إن خالفهم الشيخ ورد عليهم في أحداث غزو العراق وافتئاتهم على العلماء ومحادتهم للدولة إلا انقلبوا عليه ذماً وسخرية وهمزاً ولمزاً

واتهموه بكل نقيصة حتى قال بعضهم إنه عميل لليهود، وإنّه كان يعين النصارى في الحبشة وكينيا ضد المسلمين ويورد لهم السلاح، سمعت هذا من أحدهم بنفسي.

ذكرني موقفهم هذا بما أقوله دائما عن الإخوان وداجنتهم أنّ بهم شبه من يهود في البهتان، ففي الصحيح أن عبدالله بن سلام رضي الله عنه لما أسلم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"أي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟"قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفرأيتم أن أسلم عبد الله" قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقالوا: شرّنا وابن شرّنا ووقعوا فيه".

وهذا ما فعله الإخوان وداجنتهم مع الشيخ رحمه الله لما خالفهم بهتوه وكل من معه.

وأصبح كل من خالفهم يُرمى بالجامية وهي ليست سبة إلا من حيث معناها الذي اسقطوه وحددوه في نفوس المتلقين أن الجامية قوم من الحسدة وعملاء المباحث الذين لا قيمة لهم ولا علم ولا فقه ولا همّ لهم إلا متابعة العلماء والصالحين والدعاة والزج بهم في السجون أو إبطال الأعمال الدعوية وصد الناس عن سبيل الله وغير ذلك من التهم.

وهنا لابد أن نذكر شيئا مهماً، وهو أنّ الاتجاه العام الذي وقف في وجه الإخوان وداجنتهم خاصة في المملكة هو الاتجاه السلفي الذي هو امتداد لنهج أئمة السلف منذ صحابة رسول الله ﷺ وصولاً إلى أئمة الدعوة وانتهاء بالأئمة الثلاثة ابن باز والألباني وابن عثيمين رحم الله الجميع.

ولا يضر صاحب الحق أن يلمزه المخالفون فقد لمز أهل الشرك والنفاق نبيّ الله ﷺ واتهموه بالجنون والكذب والشعر والخرافة فلم يضره ذلك إذ كن على الحق.

ولا أتباعه كذلك الذين اتهمهم خصومهم بالحشوية والجمود والنابتة والمشبهة والإرجاء والقدر وكل فرقة تتهمهم بضد بدعتها، ومع ذلك ضلّ أئمة السلف على طريقهم وطريقتهم في الاهتداء بأصحاب النّبي ﷺ معتقدا وسلوكا وتفقها.

إذن كيف استطاع الصحويون إضعاف موقف السلفية والحد من تأثيرها على غالب أتباعهم؟

الجواب أنّ الذي جعله كذلك هم فئة من غلاة الأتباع وبعض منتسبيه، إذ غلب عليهم الغلوّ في قضية الموقف من المخالف وصدرت منهم أقوال ومواقف طرّقت للحزبيين ولكل عدو لمذهب السلف على السّنّة وأهلها، كان هؤلاء خاصرة المذهب السلفي الضعيفة التي نفذت فيها رماح مخالفيه، واستطاعوا توظيف أخطائهم لتشويه صورة المذهب السلفي نفسه.

وأريد هنا قبل ذلك أن أفصل بين أهل العلم السلفيين مثل كبار العلماء في المملكة وطلابهم الكبار وبين مكونات الغلاة داخل البيئة السلفيّة.

إذ تضخّمت قضية الموقف من المخالف في تصوراتهم حتى غدت شيئا يشبه طريقة الرافضة في الإمامة أو الولاء لآل البيت، فطغت على الحوار الفقهي والمنهجي والعقدي فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين مخالفيهم من جهة.

وتشكل داخل هذا الاتجاه شيوخ لهم مريدون يدافع كل جماعة منهم عن آراء شيخهم ويبدّعون مخالفيهم على الفور لا لتمشعر ولا إرجاء ولا خروج ولا اعتزال ولا قَدَر ولا شيء من ذلك إلاّ لأن فلاناً لم يوافق شيخهم الذي يقلدونه في ذمّه وتبديعه وأمره بهجر شخصٍ ما من العلماء أو الدعاة أو في فهم قضية معينة تتعلق بالتعامل مع المخالف.

وتجد في عرف هؤلاء من كان إماماً في قضايا الجرح والتعديل قبل شهور تجده بعد ذلك مجرما يُحذِّر منه مَن كان مادحاً له قبل ذلك، لا بل يجعله أخطر من المبتدعة أنفسهم.

لا أريد أن أدخل في تسمية الأشخاص كيلا ينصرف الذهن عن فهم الكلام إلى الحمية للأشخاص.

وهذا الاتجاه حزبي لا يقل حزبية عن الإخوان وداجنتهم بل أمره أكثر سُوءاً كونه ينتحل السلف ومذهب السلف، وغالب رموزه ومتحدّثيه بعيدون كل البعد عن الفقه والمعرفة بالشريعة وأصولها وأحكامها في هذه الأصول.

فالحكم على المخالف تكفيراً أو تبديعاً أو تفسيقاً أو الأمر بهجر فلان ومقاطعة فلان وغير ذلك من الأمور التي كان يتولاها العلماء بل الأئمة

منهم هذه الأحكام كلها ليست مقصودة في ذاتها، بل هي أمور مصلحية يعتورها مقاصد الدين والمصالح المقصودة شرعا.

وهذا يعني في أقل أحوالها أنّها قابلة للاختلاف وتعدّد الاجتهادات، فإذا اتفقت أنا وأنت مثلاً على أنّ الأشعرية بدعة وأنها مذمّة، واتفقنا على التحذير منها ورواية ما ذكره السلف عنها من ذمّ أصحابها وردّ شبهاتهم وجناياتهم على الدين، ثم اختلفنا في الموقف من أشعري معيّن في حال معينة هل يذم ويُهجر ويقاطع لغلبة المصلحة في ذلك وظهورها على المفسدة، أم أنّ مفسدة ذلك غالبة فيُدارى ويُتعامل معه وفق الأطر الشرعية؟ فهذا الاختلاف اختلاف مشروع إذا صدر عن اجتهاد وحسن ظن بعضنا ببعض.

لاحظ أنّ الكلام عن أشعري يعلن أشعريته ويدعو إلى بدعته، فما بالك إذا كان الخلاف في سلفي العقيدة وإنما له اجتهاد في موقفه من الإخوان مثلاً من حيث التعامل معهم وفق المصالح والمفاسد؟ في حال معينة أو مكان وزمان محدّدين؟ فهل هذا يستحق وقوع بعضهم في بعض بهذه الفجاجة من الأحكام التي يخيل لمن يسمعها أنّ المطعون عليه كافر زنديق محارب لله ورسوله، وكل ما في الأمر أنه لم يتفق مع شيوخهم في الموقف من شخص أو اتجاه، حتى لو فرض خطؤه.

لدي الكثير لقوله في تحليل أسباب تكتل هؤلاء وتجمعهم والخصائص النفسية التي تميزهم لكن المقال لا يتسع الآن لذلك وليس من أهدافه.

ولذلك تجد بينهم تشابها في اللغة والخصائص حتى لو اختلفت بلدانهم، والسبب الأكبر في ذلك كون مسائل التجريح مسائل سهلة المأخذ إذ تعتمد

على فريقين: فريق يتصدر لتخطئة مخالف ما في قضية معينة وهذه يتكفل بها رموزهم، ثم يتلقفها طبقة بعدهم فلا يدعون وادياً ولا سهلاً ولا جبلاً إلاّ اشعلوا فيه بتلك الأقوال فتناً لا تهدأ، فيشغلون الناس عن مقاصد الدين الكبرى ويبثون الشقاق بينهم فيما مفسدته أعظم من السكوت عن الخطأ لو فرض الاتفاق على أنه خطأ.

وهؤلاء الأتباع كثير منهم لا فقه ولا علم ولا ديانة إلا في الحميّة الجاهلية لعقائد يظنونها جُنّة لهم من سؤال الله تعالى لهم عن أعراض المسلمين وعن تسلطهم بالباطل على الناس وعلى الدّعوة أحيانا في مناطق يسيطرون فيها على القرار الرسمي أو الشعبي.

ومعيشة بعضهم ليله ونهاره على بذر الشّرّ وزرع العداوات على كلماتٍ تصدر من بعض شيوخهم قد تكون حقاً وقد تكون باطلاً، ومن أسوء ذلك أنّ كثيراً منهم لا يميّز ما يقوله الشّيخ في حال الرّضا والتعقّل وبين ما يقوله في حال الغضب والتسرّع، فإنّ بعض كلمات المشايخ تخرج في ساعة غضبٍ لو تروّى فيها ما نطق بها، ولو روجع لرجع عنها، فيتلقّفها الناشئة فرحين بها[1] ينشرون سوءة شيخهم على الملأ، ولو كان لهم من الفقه اليسير لعرفوا أنّ هذا الكلام الغالي في القدح والثلب ممّا يجب أن يستر ولا ينشر، وأن لا يكون ذلك محور ولاءٍ وبراءٍ وخلفٍ واختلافٍ مع إخوة الدّين والعقيدة،

(١) وهذا من سلبيّات غلبة الناشئة على مجالس العلماء والمشايخ.

ولله ما أجمل قول الإمام الشّعبي حين قال: «حدّثْناهُم بغضب أصحاب محمّد فاتّخذوه ديناً»[1].

وخرّج أبوداودُ عن عمرَ بن أبي مرّةَ قالَ: «كانَ حذيفةُ في المدائنِ، فكانَ يذكرُ أشياءَ قالَها رسولُ الله ﷺ لأُناسٍ من أصحابِه في الغضبِ، فينطلِقُ ناسٌ ممّن سمعَ ذلكَ مِن حذيفةَ فيأتونَ سلمانَ فيذكرونَ لَه قولَ حذيفةَ فيقولُ سلمانُ: حذيفةُ أعلمُ بما يقولُ، فيرجِعونَ إلى حذيفةِ فيقولونَ: ذكَرنا قولكَ لسلمانَ فما صدّقكَ ولا كذّبكَ، فأتى حذيفةُ سلمانَ وهو في مبقلةٍ فقالَ: يا سلمانُ ما يمنعُك أن تصدّقني بما سمعتَ من رسولِ الله ﷺ؟ فقالَ: إنّ رسولَ الله ﷺ كان يغضبُ فيقولُ لناسٍ من أصحابِه، ويرضَى فيقولُ في الرّضى، أما تنتَهِي حتّى تورِثَ رجالاً حبّ رجالٍ ورجالاً بغضَ رجالٍ، وحتّى توقِع اختلافاً وفُرقةً؟ ولقد علِمتَ أنّ رسولَ الله ﷺ خطبَ فقالَ: «أيّما رجلٍ سببتُه سبّة، أو لعنتُه لعنة في غضَبِي فإنّما أنا مِن ولدِ آدمَ أغضبُ كما يغضبونَ، وإنّما بعثني اللهُ رحمةً للعالمين فاجعلها صلاةً عليهِم يومَ القيامةِ»، فوالله لتنتهينّ أو لأكتبنّ إلى عُمَر»[2].

وهذا يبيّن لك أثر نقل الجرح والمثالب في بعض النّاس لبعض، فإنّه سبب رئيس في زرع البغض في قلوب المسلمين لبعضهم، وقد يكون هذا البعض

---

(١) تاريخ دمشق (٣٢/ ٣٩)، أي نقلنا لهم من الأخبار ما فيه كلام بعض الصحابة في بعض كما يغضب الأخ على أخيه والوالد على ابنه، فهي كلمات لم يقلها الصحابي ديناً فاتخذها بعض أتباعهم كذلك.

(٢) أخرجه أحمد (ح ٢٣١٩٤)، وأبوداود (ح ٤٦٥٩)، وهذا لفظُه.

من العلماء والدعاة والصالحين، وهذا يقوله سلمان في عصر كان لله ولرسوله وللدار الآخرة منزلة عظيمة في قلوب النّاس، فكيف بعصورنا هذه عصور الأنانية وتأليه الذّوات والاستماتة في سبيل الدنيا ورئاستها؟!

وكثيرٌ من الطّلاّب يتوهّم في شيخه مثالاً وأنموذجاً لا يتطرّق إليه الخطأ، أو لا يتصوّر منه الظّلم والبغي والاعتداء، وهذا خطأٌ، فإنّ مثل هذا لا يكاد يرى في عصرنا إلاّ قليلاً، كما قال العلاّمة ابن الوزير في مناسبةٍ تشبه هذه: «فإنّ أهل الورع الشّحيح ورياضة النّفوس على دقائق المراقبة أعزّ من العيّوق[1] ملمساً ومن الكبريت الأحمر وجوداً فإن وجدتهم لم تجدهم أهل التّدريس والفتوى والشّهادة بين أهل اللّجاج، والحضور عند أهل الخصومات، وإذا تأمّلت وجدت السّالم من جميع المعاصي من أهل الفتوى والتّدريس عديم الوجود.

فمن منهم الّذي لا يسمع منه غيبة أحدٍ، ولا يداهن على مثل ذلك أحداً، ويصدع بمرّ الحقّ في كلّ موقفٍ، ولا تأخذه في الله لومة لائمٍ، ولا يتخلّف عن إنكار منكرٍ يجب إنكاره، ولا يتثاقل عن أداء واجبٍ عليه لعدوّ، ولا يترخّص إن وجب عليه عداوة صديقٍ، ولا يلين بالمداهنة لأميرٍ، ولا يتكبّر على فقيرٍ»[2]، ولقد صدق -رحمه الله-، والغرض من إيراد كلامه أن نتعلّم هذه الحقيقة ونوقن بها في مشايخنا ومعظّمينا من أهل العلم والسنة، الكبار

---

(١) العيّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن يتلو الثريّا لا يتقدّمها. قاله في القاموس المحيط (ص/ ١١٧٩).

(٢) الروض الباسم (١ / ٥٤).

قبل الصّغار – وليس في أهل العلم والسنّة صغير – حتّى لا يعظم علينا أن نخالف أحدهم إذا رأيناه تنكّب طريق الحقّ، ولا نكبر في نفوسنا أن نظنّ فيه اتّباعه هواه أو انتصاره لنفسه أو مذهبه في مسألةٍ ما، فنقع في حمأة التقليد والتعصّب، بل نعذره ونقدّره ونردّ عليه خطأه كما عُلّمنا أن نفعل مع مشايخنا وعلمائنا دون أن نهضمه حقّه وقدره، والله يعفو عنّا جميعاً ويكل سيّئاتنا إلى حسناتنا بكرمه وجوده وإحسانه.

ومن جميل ما يؤيّد هذا المعنى ما قال محمّد بن إبراهيم بن دينار: «كان مالك وعبدالعزيز بن أبي سلمة يختلفون إلى ابن هرمز[1]، فكان إذا سأله مالكٌ وعبدالعزيز يجيبهما وإذا سألته أنا ومن معي لم يجبنا فسألته عن ذلك، فقال: أوقع ذلك في قلبك يابن أخي؟ قال: نعم، قال: "إنّي قد كبرت سنّي، ورقّ عظمي، وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الّذي خالطني في بدني، ومالكٌ وعبدالعزيز عالمان فقيهان، إذا سمعا منّي حقّاً قبلاه، وإذا سمعا خطأً تركاه، وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه".

قال محمّد بن حارث[2]: هذا والله هو الدّين الكامل، والعقل الرّاجح، لا كمن يأتي بالهذيان، ويريد أن ينزل من القلوب منزلة القرآن»[3].

---

(١) فقيه المدينة أبو بكر عبدالله بن يزيد بن هرمز الأصمّ، أحد الأعلام عداده في التابعين، جالسه مالك كثيراً وأخذ عنه، توفي سنة ١٤٨هـ.

(٢) الحافظ الإمام محمد بن حارث بن أسد الخشني أبو عبدالله القيرواني صاحب التواليف، كان من أعيان الشعراء، توفي سنة ٣٦١هـ.

(٣) ترتيب المدارك للقاضي عياض(١ / ١٦٥).

قلت: هذا الاتجاه الذي نشأ داخل السلفية يتغذى على مسائلها ويتخذ منها سوطاً يجلد به مخالفيه متذرعاً بحماية الدين والذود عن حياضه، ونسي أو جهل أن هذه الحماية إن كانت فريضة شرعية فلها شروطها وضوابطها وأصولها، فمن قام بها على غير هدى من الله ومن سنة نبيه ﷺ وطريقة أهل العلم الكبار فعمله فساد في الأرض وإن ظن أنه من المصلحين.

تماما كما ظن الخوارج المعاصرون أن الجهاد هو مجرد قتال الكفار دون الرجوع إلى ضوابط وشروط وأصول الجهاد في الكتاب والسنة فرجع الأمر إلى الطغيان والتكفير لأهل الإسلام بدلا عن جهاد الكفار.

هذا الاتجاه السلفي – زعما- اتجاه حزبي وإن ظهر أنه يحارب الحزبية، ولديهم بيعة صامتة، فإنّ الحزبية التقليدية هي مبايعة رمز يُطاع ولا يُعصى، ويوالى على فكرته ومذهبه ويعادى مخالفوه.

وهؤلاء لا يختلفون في حزبيتهم عن هؤلاء، في كل أدبيات الحزبية، إلا أنها أشبه بالزواج العرفي غير المكتوب، فلديهم ولاء وبراء حول شيخهم ومذاهبه واختياراته في مسائل الخلاف التي كما قلنا لا تعدو أن تكون من قبيل الاجتهاد الشخصي.

ومما يزيد أمرهم سخرية ظنّ كثير منهم في نفسه من العلم وسلطان العلم ما يؤهله للحكم على الناس تبديعاً وعزلاً وهجراً، مع أنه لا منصب ولا جاه ولا فقه ولا قبول في الأرض، ومع هذا تجد فيهم من الكبر وإرادة العلو في الأرض ما لا يقلّون فيه عن مخالفيهم من الإخوان وداجنتهم التي تحدثنا عنها فيما مضى.

وقد حضرت في مجالسهم ردحا من الزمن فما وجدتها إلاّ مجالس تظلم القلب وتوحش النفس وتوغر الصدر خاصة إذا رأيت رعاع الناس يتصدرون.

وبعضهم أهل علم ودراية لكنهم ضيعوا أنفسهم في الصراعات النفسية، حتى إني رأيت خمسة منهم كانت كلمتهم واحدة في مخالفيهم فما استدار الزمان إلا كل واحد منهم يطعن في الآخر بل يعدّه أخطر على الأمة ودينها من المبتدعة الحقيقيين.

وبلغ بهم الأمر أن فضلوا أنفسهم على الأئمة من أمثال ابن باز والألباني وابن عثيمين، مع أني اقولها -ديانة والله لا مناكفة-: إنّ السلفيّة الحقيقية هي سلفية هؤلاء الثلاثة وما سواها "خلٌّ وبَقْل"!

ولسهولة هذه البضاعة – بضاعة القدح والجرح- فقد حملت إلى أرجاء الأرض وعرضت في أسواق الناس في بلاد قد لا يعرف أهلها الإسلام ولا سمعوا به فإذا هم بمن يعرض عليهم أن الداعية الوحيد في البلد الذي يدعوهم للإسلام يحذرهم منه بأنه مبتدع!

ومنهم من ذهب يزاحم غيره ببضاعته هذه كل أحد فلا هو ربح ولا ترك غيره يربح بل كان غاية جهده أن أَدْخل العامة وقليلي العلم في الشك والريب والتردد.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: «سئل أحمد عن الجهميّة أيعاديهم أم يداريهم؟ فقال: أهل خراسان لا يقوون بهم» ثمّ قال شيخ الإسلام: «فالهجرة تارةً تكون من نوع التّقوى إذا كانت هجراً للسّيّئات، وتارةً تكون

من نوع الجهاد والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وهو عقوبة من اعتدى وكان ظالماً، وعقوبة الظّالم وتعزيره مشروطٌ بالقدرة، فلهذا اختلف حكم الشّرع في نوعي الهجرتين بين القادر والعاجز، وبين قلّة نوع الظّالم المبتدع وكثرته، وقوّته وضعفه، كما يختلف الحكم بذلك في سائر أنواع الظّلم... فالهجران قد يكون مقصوده الجهاد والنّهي عن المنكر وعقوبة الظّالمين لينزجروا وليقوى الإيمان عند أهله، فإذا لم يكن في هجرانه انزجار أحدٍ ولا انتهاء أحدٍ، بل بطلان كثيرٍ من الحسنات المأمور بها ؛ لم تكن هجرةً مأموراً بها، كما ذكره أحمد عن أهل خراسان إذ ذاك: أنّهم لم يكونوا يقوون بالجهميّة، فإذا عجزوا عن إظهار العداوة لهم سقط الأمر بفعل هذه الحسنة، وكان مداراتهم فيه دفع الضّرر عن المؤمن الضّعيف، ولعلّه أن يكون فيه تأليف الفاجر القويّ»[1].

وهذا النصّ ينبّهنا إلى أن لا نتعامل مع من نعلمه من أهل السنة في كلّ بقاع الأرض بميزان واحد، وأن نعرف أنّه يسوغ لأهل السنة في بلدٍ ما ووقتٍ ما من التحالفات والتعامل مع المخالفين ما لا يسوغ لهم في وقت ومكان آخرين، لأنّ الأمر كما قال شيخ الإسلام يقوم على تحقيق المصالح ودرء المفاسد، فمن الخطأ سوء الظن بأحد من أهل السنة فقط لتصريح صرح به أو موقف وقفه يفهم منه السكوت عن أهل البدع والأهواء أو التحالف مع بعضهم، فلابدّ من تقدير الظرف المكاني والزماني الّذي يمر به

(١) الفتاوى (٢٨ / ٢١٠ - ٢١٢) بتصرّف.

من نريد تقويم أقواله وأفعاله، وهذا هو حقيقة الفقه في هذه المسألة، وأنه راجع للتقدير المصلحي وليس حكما جامدا تعبديا لا يتغير في كل حال، وهذا مالا يفقهه أتباع هذا الاتجاه.

ومن صفاتهم كما سبق الاستعلاء على الآخرين يتفننون في إظهار دونية من سواهم حتى لو كان من داخل الاتجاه نفسه إذا كان لا يحذو حذوهم، فإذا تسلط أحدهم على منصب في مؤسسة أو شركة أو مدرسة أو غير ذلك تجده لا يراعي إلاّ شفاء صدره من مخالفيه لا مصلحة الدعوة ولا مصلحة الأمة ولا الدين ولا حتى المنهج السلفي الذي ينسب نفسه إليه، أما شيخ الإسلام ابن تيمية فيذكر ابن كثير أنّ «السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير، وأنّهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضًا، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم، وإنّما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سَعَوْا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير، ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء، وينكرُ أن يُنالَ أحدٌ منهم بسوء وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مرارًا، فقال الشيخ: من آذاني فهو في حِل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه» فتأمل قوله: «إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم» فهو يراعي في الموقف منهم مصلحة الشريعة، فهؤلاء القضاة هم أفضل الموجود على بدعتهم، فبقاؤهم مع أطرهم على الحق ومنعهم من نشر بدعتهم خير من عزلهم أو قتلهم ثم يضطر السلطان للاستعانة بغير الأكفاء فقط لأنهم على السنّة فتضيع حقوق العباد،

وهذه طريقة الإمام أحمد كما ذكره ابن القيم في أعلام الموقعين فقال: «وأحمد يوجب تولية الأصلح فالأصلح من الموجودين، وكلُّ زمان بحسبه. فيقدَّم الأديَن العدلُ على الأعلم الفاجر، وقضاةُ السنة على قضاة الجهمية، وإن كان الجهمي أفقه.

ولما سأله المتوكِّل عن القضاة أرسل إليه دَرْجًا مع وزيره، يذكر فيه تولية أناس وعزْلَ أناس، وأمسَكَ عن أناس وقال: لا أعرفهم. وروجع في بعض من سمَّى لقلَّة علمه، فقال: لو لم يولُّوه لولَّوا فلانًا، وفي توليته مضرة على المسلمين.

وكذلك أمَر أن يولَّى على الأموال الديِّنُ السنِّي، دون الداعي إلى التعطيل، لأنه يضرُّ الناس في دينهم.

وسئل عن رجلين: أحدهما أنكى في العدو مع شربه الخمر، والآخر أديَن، فقال: يُغزى مع الأنكى في العدو، لأنه أنفع للمسلمين.

وبهذا مضت سنةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان يولِّي الأنفعَ للمسلمين».

أما هذه الطائفة الحزبية المتسترة بالسلفية فخراب الدعوة والقضاء ودور العلم وكل ما يتصل بالشريعة عندهم مقدم على تولية من لا يوافقهم على مقالاتهم وآرائهم مهما بلغت في الفجاجة والحمق أحياناً، هذا يفعلونه مع سلفيين مثلهم فقط لأنّه لا يعرف الشيخ الفلاني من معظَّميهم أو يعرفه لكن لا يشيد به ولا يعده رمزاً من رموز الأمة وعَلَماً إماماً حاملاً لألوية الإسلام كلها!

أما إذا جاء الأمر لمن هو خارج سياج السلفية من الجماعات الحزبية بل وأتباع الفرق المخالفة للسنة فحدث ولا حرج، فبعض اتباعهم تقر عينه ببقاء بلدة أو مدينة كاملة في بلاد الكفار على الكفر ولا أن يرى فيها أشعرياً مثلاً أو إخوانياً يدعوهم للتوحيد أو للإسلام بشكل عام، تماما كما يفضل الرافضي بقاء الكفار كفارا على أن يدخلوا الإسلام على السنّة!

هل قرأت كلام ابن تيمية في القضاة الذي نقلته لك آنفا، انظر ما يقول عنهم في رسالته لأهله بعد أن أعزّه الله :«وقد أذلَّ الله رقاب الخصوم، وطلب أكابرهم من السلم ما يطول وصفه، وقد اشترطنا عليهم من الشروط ما فيه عز الإسلام والسنة، وما فيه قمع الباطل والبدعة، وقد دخلوا تحت ذلك كله، وامتنعنا من قبول ذلك منهم، حتى يظهر إلى الفعل، فلم نثق لهم بقول ولا عهد، ولم نجبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولا والمذكور مفعولًا، ويظهر من عز الإسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم» كل هذا القول يقوله فيهم ومع هذا أبى على السلطان أن يقتلهم ويعزلهم لأنّ ذلك يؤدي إلى فراغ بل يكون كذلك بحسب الإمكان حتى يوجد البديل الأفضل فالأفضل، أما أن نأتي بالحمقى فنسلمهم ولايات ومناصب شرعية كالقضاء والإفتاء ونصدرهم فقط لأنهم من أهل السنة أو من خاصتهم وخاصّة خاصّـتهم فهذا خيانة للأمانة وتضييع للدعوة برمّتها.

انتقل إلى الفهرس

هذا الاتجاه لا يعدو أن يكون تطرفا في جانب التمسك بالسنة لا يقلّ سوءا عن تطرف الإخوان وداجنتهم السرورية في الطرف المقابل من الجفاء والبعد عن السنة.

والأمر كله في نهاية الأمر أهواء ومنافسة ومغالبة وعلوّ في الأرض، ولهذا -سبحان الله- لا بركة في أعمالهم ولا في أنشطتهم، غاية ما هناك أنّهم كمالك الوهم كل منهم جمع حوله ثلة تشبهه في السمت والفكر وضحالة الفهم والنفس الغضبية الجهولة والتسرع في البغي والعدوان ليصبح إمامهم وقدوتهم في نفس المسائل ونفس الكلام يفترقون عليه ويتشرذمون كل عام مرة أو مرتين "ثم لا يتوبون ولا هم يذّكّرون".

قالَ شيخُ الإسلامِ -رحمه الله-: «ثمّ القائلُ في ذلكَ بعِلمٍ لابدّ لَه من حُسنِ النّيّةِ، فلو تكلّمَ بحقٍّ لِقَصْدِ العلوّ في الأرضِ أو الفسادِ كانَ بمنزلةِ الّذي يقاتِلُ حميّةً ورياءً، وإن تكلّمَ لأجلِ الله تعالى مخلِصاً لَه الدّين كانَ من المجاهدينَ في سبيلِ الله، من ورثةِ الأنبياءِ خُلفاءِ الرّسلِ»[1].

وقالَ أيضاً: «وهذا كلّه يجِبُ أن يكونَ على وجهِ النّصحِ، وابتغاءَ وجهِ الله تعَالى، لا لِهوَى الشّخصِ معَ الإنسانِ، مثل أن يكونَ بينَهما عداوةٌ دنيويّةٌ، أو تحاسدٌ، أو تباغضٌ، أو تنازعٌ علَى الرّئاسةِ، فيتكلّمُ بمساويهِ مُظهِراً للنّصحِ وقصدُه في الباطنِ الغضُّ من الشّخصِ واستيفاؤه منه، فهذا من عملِ

(١) الفتاوى (٢٨ / ٢٣٥).

الشّيطانِ، وَ«إنّما الأعمالُ بالنّيّاتِ، وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوَى»[1]، بل يكونُ النّاصحُ قصدُه أن يصلِحَ اللهُ ذلكَ الشّخصِ، وأن يكفيَ المسلمينَ ضررَه في دينِهم ودنياهُم، ويسلكَ في هذا أيسرَ الطّرقِ الممكنةِ»[2].

ومن علامات سوءِ النّيّة: أن يكونَ المتكلّمُ من أهلِ البطالةِ، الّذين لا عملَ لهم في دعوةٍ ولا عبادةٍ ولا عِلم، وإنّما - كما سبقَ - لا يُعرفُ أحدُهم إلاّ بالكلامِ في النّاسِ، حتّى ولَو كانوا أهلَ بِدَع، قالَ شيخُ الإسلامِ - نوّرَ اللهُ ضريحَه - في معرضِ كلامِه عن بدعِ المولدِ وما شابهَها من بدعِ العباداتِ: «ولا ينبغِي لأحدٍ أن يتركَ خيراً إلاّ إلى مثلِه أو خيرٍ منه، فإنّه كما أنّ الفاعلينَ لهذهِ البدَعِ معيبُون قد أتَوا مكرُوهاً، فالتّاركونَ للسّننِ مذمومونَ أيضاً.

وكثيرٌ من المنكرينَ لبدعِ العباداتِ تجدُهم مقصّرينَ في فِعلِ السّننِ من ذلكَ، أو الأمرِ بهِ، ولعلّ حالُ كثيرٍ منهم يكونُ أسوأَ من حالِ من يأتِي بتلكَ العباداتِ المشتملةِ على نوعٍ من الكراهةِ.. فمن تعبّدَ ببعضِ هذه العباداتِ المشتملةِ على نوعٍ من الكراهةِ كالوصالِ، وتركِ جنسِ الشّهواتَ، أو قصدِ إحياء ليالٍ لا خصوصَ لها كأوّل ليلةٍ من رجبٍ ونحوِ ذلك، (قد) يكونُ حالُه خيراً من حالِ البطّالِ، الّذي ليس فيهِ حرصٌ على عبادةِ الله وطاعتِه، بل كثيرٌ من هؤلاءِ الّذين ينكِرُون هذهِ الأشياءِ زاهِدونَ في جنسِ عبادةِ الله من العلمِ النّافعِ والعملِ الصّالِح أو في أحدِهما، لا يحبّونَها ولا يرغبونَ فيها،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوحي (ح١).

(٢) الفتاوى (٢٨ / ٢٢١).

لكن لا يمكنُهم ذلك في المشروعِ، فيصرِفُون قوّتَهم إلى هذهِ الأشياءِ، فهُم بأحوالِهم منكرونَ للمشروعِ وغيرِ المشروعِ، وبأقوالِهم لا يمكنُهم إلاّ إنكارُ غيرِ المشروعِ»(١).

وهذا كله نقد لحال هؤلاء وليس ذماً لنفس شريعة إنكار المنكر على المخطئين والرد على المخالفين بل هذا شيء آخر لا خلاف فيه بين أئمة السلف بحمدالله قدماء ومعاصرين.

وخلاصة الأمر أنّ السلفية الحقة منهج الأنبياء والرسل وخاتمهم محمد بن عبدالله ﷺ، معالمه معروفة، وأعلامه منشورة، لا يخالف فيها إلاّ مبتدع ضال صاحب هوى.

ودعاة هذه الدعوة هم أئمة العلم الكبار الأعلام من السلف والخلف، وهم القدوة إذا اجتمعوا على شيء، وإن اختلف الكبار فالمسألة فيها أقوال، فلا تبديع ولا تفسيق وإنما تخطئة ومحبة ودعاء بظهر الغيب، فلا هذا شر من اليهود والنصارى، ولا الآخر الذي خالفه أخطر على السلفية من الملاحدة!!

والحمدلله أنه اتجاه محصور لا وزن له حتى عند السلفيين أنفسهم وإنما كتبت هذا المقال تبرئة للسلفية من أتباعه الذين لا تخطئهم العين وإن كان خيرة العلماء وطلاب العلم ظلموا بسبب اتفاقهم معهم في ظاهر الأمر، وإصابةُ هؤلاء في الكلام على أهل بدعٍ وضلاّل بأعيانهم، وهم في ذلك موافقون لأهل العلم لا العكس، وليس ذلك فقهاً منهم ودقة فهم وبصر،

---

(١) مختصر من اقتضاء الصّراط المستقيم (ص٢٩٧ - ٢٩٩).

بل الأمر كما قال ابن خلف: "اختصم رجلان إلى بعض الولاة فلم يحسن أن يقضي بينهما فضربهما وقال: الحمد لله الذي لم يفتني الظالم منهما".

فليس فقهاً ولا علماً ولا بصراً أن يتكلم الرجل بكلام على غير هدى فيصيب به خلقا من الناس، بعضهم يصح فيه القول الذي قاله، فهذا ليس نظرا وفقها صائبا، بل هو على منهج الوالي الذي حكى ابن خلف قصّته.

العالم الحق هو الذي يفصل القول ويحكم الحكم حتى لا يصيب حكمه وقوله من لا يستحقه من الناس فيقع في الظلم، وإذا كان العالم مجتهدا في القول والحكم على الناس فخطؤه في تزكية من لا يستحق خير من خطئه في جرح وظلم من لا يستحق العقوبة، وهو في ذلك بين أجر وأجرين لا كما يظن هؤلاء أنه بين إثم وإثمَين!

ولعل كثيرا من الناس يستنكر سكوت العلماء منذ ظهورهم عن الإنكار عليهم والرد على تصرفاتهم، ويظن ذلك موافقة لهم، كما يظن كثير من الناس انتماء بعض الفضلاء من علماء وطلبة علم لهذا الاتجاه، فقط لأنّهم متفقون في بعض المواقف من الجماعات الحزبية بالذات، وكذلك مسائل السمع والطاعة والموقف من ولاة أمور المسلمين ونحو ذلك مما اتفقت عليه كلمة أئمة السلف سلفا وخلفاً.

والحق أن سكوت العلماء وطلبة العلم الكبار على هؤلاء لأسباب في رأيي وتقديري: منها: أنّ هؤلاء محسوبون على الدعوة السلفية والكلام فيهم لا يفهم منه عند عامة الناس إلا أنّه إبطال لأقوالهم ومذاهبهم ومواقفهم من الجماعات ورموزها، وهذا ما يدندن حوله أهل الأهواء والمارقون عن السنّة،

فأي كلام في هذا الاتجاه يتلقفه المبتدعة من الحزبيين على وجه الخصوص ليكون مادة لهم ودليلاً يلبّسون على الناس به أن العلماء الكبار لا يوافقون على تبديع الجماعات ومنتسبيها أو تخطئتهم، وهذا فعلوه سابقا في مناسبات عدة من أشهرها خطاب الشيخ الإمام حقا وصدقا عبدالعزيز بن باز أيام نشوء الفتنة بعد حرب العراق إذ أخذوه ووظفوه لصالح توجهاتهم حتى اضطر الشيخ أن يلحقه بخطاب أنكر فيه أنه موجه لأحد وكذّب من وظف خطابه الأوّل لصالح توجهات الحزبيين.

وقد يضطر العالم أو الإمام أو السلطان لمصلحة راجحة أن يسكت ولا يعاقب من يمرق على الشريعة والقانون، وقد قال النّبيّ ﷺ لمن سأله عقوبة المنافقين: "لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه" ولو تكلم العلماء في هؤلاء لكان مدعاة لمثل هذه المفسدة.

ومن الأسباب كذلك أن كثيرا من هذه الفئة يزيدها النصح والإنكار شرا، فإذا رد عليهم أحد ولو بعلم وحكمة وأدب تجد لهم عشرات الردود والصخب والضجيج، وهذا يعني زيادة شرهم واتساع رقعته، وإشغال الناس بهم، والحكمة في مثل هذا السكوت عنهم وتركهم منشغلين بأنفسهم واحترابهم مع بعضهم البعض.

ولا يخفى على أحد فتوى شيخ الإسلام رحمه الله في التتر الذين يشربون الخمر وأمره أصحابه أن يدعوا الإنكار عليهم لأنهم إذا صحوا قتلوا المسلمين، فبقاء هؤلاء في سكرهم اقل شرا من سراية فسادهم إلى من حولهم من الناس.

ووالله لولا أني أحببت نفي سبّة انتماء هذه الفئة إلى الدعوة السلفية وتشويههم لمقاصدها ومراميها وأثرهم السلبي جدا على إقبال الناس عليها لأبقيتهم في درج الإهمال والإعراض الذي ألقيتهم فيه من سنوات طويلة، ولكنه تنبيه لبعض من سأل وبيان لما في طريقتهم من الحزبية التي يحاربون الناس بسببها دون أن يشعروا، والله أعلم وأحكم.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

التبليغ

جماعة التبليغ جماعة إسلامية أقرب ما تكون إلى جماعة وعظ وإرشاد منها إلى جماعة منظمة، تقوم دعوتها – بزعمهم–على تبليغ فضائل الإسلام لكل من تستطيع الوصول إليه، ملزمةً أتباعها بأن يقتطع كل واحد منهم جزءً من وقته لتبليغ الدعوة ونشرها بعيداً عن التشكيلات الحزبية والقضايا السياسية، ويلجأ أعضاؤها إلى الخروج للدعوة ومخالطة المسلمين في مساجدهم ودورهم ومتاجرهم ونواديهم، وإلقاء المواعظ والدروس والترغيب في الخروج معهم للدعوة. وينصحون بعدم الدخول في جدل مع المسلمين أو خصومات مع الحكومات.

أسّسها محمد إلياس الكاندهلوي المتوفى سنة ١٣٦٤هـ وخلفه عليها من بعده ابنه محمد يوسف الكاندهلوي ألف أماني الأخبار وهو شرح معاني الآثار للطحاوي، وكتابه الشهير حياة الصحابة كما خلّف ولداً اسمه الشيخ محمد هارون يسير على منهجه وطريقته.

ومن شخصيات هذه الجماعة محمد زكريا الكاندهلوي المتوفى سنة ١٣٦٤هـ وهو ابن عم الشيخ محمد يوسف وزوج أخته، وهو الذي أشرف على تربيته وتوجيهه، ويصفونه بأنه ريحانة الهند وبركة العصر، كان شيخ الحديث والمشرف الأعلى لجماعة التبليغ.

ومنهم إنعام الحسن وهو الأمير الثالث للجماعة إذ تولاها بعد وفاة الشيخ محمد يوسف وما يزال في منصبه إلى الآن، كان صديقاً للشيخ محمد

يوسف في دراسته ورحلاته فهما متقاربان في السن متماثلان في الحركة والدعوة.

تقوم طريقتهم في نشر الدعوة على ما يلي:

ـ تنتدب مجموعة منهم نفسها لدعوة أهل بلد ما، ويخرجون متجولين في أنحاء البلدة والأسواق والحوانيت، ذاكرين الله داعين الناس لسماع الخطبة أو "البيان" كما يسمونه، وإذا حان موعد البيان التقوا جميعاً لسماعه، وبعد انتهاء البيان يطالبون الحضور بالخروج في سبيل الله، وبعد صلاة الفجر يقسّمون الناس الحاضرين إلى مجموعات يتولى كل داعية منهم مجموعة يعلمهم الفاتحة وبعض من قصار السور، ويكررون ذلك عدداً من الأيام.

وقبل أن تنتهي إقامتهم في هذا المكان يحثون الناس للخروج معهم لتبليغ الدعوة، حيث يتطوع الأشخاص لمرافقتهم يوماً أو ثلاثة أيام أو أسبوعاً، أو شهراً، كل بحسب طاقته وإمكاناته ومدى تفرغه.

والعدد الأمثل للخروج أن يكون يوماً في الأسبوع وثلاثة أيام في الشهر وأربعين يوماً في السنة وأربعة أشهر في العمر كله.

وهم لا يتعرضون إلى فكرة إزالة المنكرات، معتقدين بأنهم الآن في مرحلة إيجاد المناخ الملائم للحياة الإسلامية، وأن القيام بهذا العمل قد يضع العراقيل في طريقهم وينفّر الناس منهم.

وهم متأثرون بالطرق الصوفية المنتشرة في بلاد الهند، ولهذا ينتهجون منهج الصوفية في كثير من الأمور، فلابد لكل مريد من شيخ يبايعه، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية. وكثيراً ما تتم البيعة للشيخ في

مكان عام تُنشر على الناس أردية واسعة مربوط بعضها ببعض مرددين البيعة بشكل جماعي، ويُـفعل ذلك في جمع غفير من النساء كذلك.

يقيمون المنامات مقام الحقائق حتى تكون هذه المنامات قاعدة تبنى عليها أمور تترك أثرها على مسيرة الدعوة.

ويعتقدون أن التصوف هو أقرب الطرق لاستشعار حلاوة الإيمان في القلوب.

وتقوم طريقتهم على الترغيب والترهيب والتأثير العاطفي، وقد استطاعوا أن يجذبوا إلى رحاب الإيمان كثيراً من الذين انغمسوا في الملذات والآثام وحوّلوهم إلى العبادة والذكر والتلاوة.

ولا يتكلمون في السياسة، وينهون أفراد جماعتهم عن الخوض في مشاكلها، وينتقدون كل من يتدخل فيها، ويقولون بأن السياسة هي أن تترك السياسة.

ولا يهتمون ببيان ونشر عقيدة السلف والتوحيد الخالص بين أتباعهم ؛ بل يكتفون بالعموميات التي لاتغني في دين الله شيئًا، كذلك لايُنكرون الشركيات والبدع التي تعج بها بلاد المسلمين ؛ لاسيما الهند والباكستان منشأ الجماعة.

خطورة هذه الجماعة أنها تحشد شباب المسلمين وكل أتباعها بعاطفة متقدة للدين والدعوة دون مضمون ومحتوى.

وليتها مع هذا تركت الأمر لاختيار أفرادها، لا، بل تربي اتباعها على رفض العلم والعلماء، السلفيين منهم بالذات، وتنشئهم على معاداتهم

والنفرة منهم ومن أصولهم، خاصة الدعوة للتوحيد والنهي عن الشرك ونبذ البدع.

وهي في طرائقها وأساليبها متأثرة جدا بالديانات التي ترتكز فقط على المعاني الإنسانية العامة، كالرحمة والأخلاق والعطاء.. ولولا أنها تنتمي للإسلام في أساس تأسيسها لما قيل بإسلامهم وإلاّ فإنّ طريقتها وأسلوبها لا يختلف عن البوذي والزرادشتي والنصراني من حيث الفراغ العبادي والعلمي والعقدي.

وما يوجد في أفراد منهم من العلم أو التعبد السني فهذا مصدره شيء آخر إما تربية الأسرة أو المعلم أو البيئة التي نشأ بها.

أما عن دورها في الأيام الخالية فإنها نشطت جدا في الخليج واكتسبت جمهوراً كبير، واستفادت من وجود الصحويين من وجهين، أولهما: انشغال السلفيين بالإخوان والسرورية رداً وإنكاراً وتتبعاً، والآخر: ما وفره لهم الجو الذي سيطر فيه الصحويون على مجريات الدعوة من مناخ داعم للانتشار، فهم كغيرهم من الأحزاب العاملة للإسلام يجري عليهم خراج الصحويين وتزكيتهم والوقوف معهم، والدفاع عنهم إذا ما جوبهوا بإنكار السلفيين.

ومما ساعد على ذلك أنهم لا يتقاطعون ظاهرا مع الصحويين كونهم لا يتكلمون في السياسة وليس لديهم مقصد سياسي، وبهذا سلموا من استهداف الصحويين.

بل اعتبرهم الصحويون رافداً لهم يرفدهم بالمقبلين على الدين وغالبهم خلو من الفكر والعلم، فيسهل اصطياد ذوي المواهب منهم لاصطفائه للجماعة الأم.

والباقي يبقى مددا للصحوة يزيد عدد الغوغاء الذين يصفقون للصحويين ويشكلون جمهوراً إضافياً يدعم مشاريعهم، وهذا وقع مشهود يشهد له أعداد المنخرطين والمتحمسين للثورات والخراب والفوضى.

❀ ❀ ❀

انتقل إلى الفهرس

وهم التأثير

هناك موقف لا أنساه رغم أنّه مضى عليه قرابة الأربعين عاماً، كنت يومها في أوّل فترة التدين والالتزام، بالكاد بلغت السادسة عشرة، ولكن ظهر سلوكي المضاد في الأسرة من التزام بالصلاة في المسجد واعتزال ما يفعلونه من مخالفات شائعة خاصة متابعة المسلسلات ونحو ذلك.

زارنا أحد أقارب الوالد -رحم الله الاثنين- ولاحظ ما ظهر عليّ من سمت التدين ومظهره، قال لي ممازحاً " الدولة ما تخاف إلاّ منكم" فانتهره الوالد وقال لي بحزم: إن ما قاله الضيف خطأ.

الحقيقة أني لم أركّز كثيرا في كلام الوالد لأنّ ذهني قد التقط كلمة ذلك القريب رحمه الله وتحولت كلماته إلى طاقة عجيبة وانتشاء وزهو، وسرح خيالي في تصور مضحك عن الندية بيني أنا وأترابي وبين رجال الدولة وأجهزتها الأمنية، ورسخ في ذهني من ساعتها أنّي محطّ أنظار كل رجل أمن وأنّي مطارد ومراقب ووو الخ.

هذا تفكير شاب مراهق جاهل ساذج خِلْوٍ من أيّ قيمة إيجابية، والحمدلله أن ذلك لم يدم طويلاً وانتهى بقليل من العلم الذي تلقيته قراءة في كتب كبار علماء هذه البلاد.

لكن دعني الآن أعود إلى ما بدأته، لأنّ ذلك الذي ذكرته لك آنفاً واحد من أكبر أخطاء الأمس، تربية الجيل الناشئ على مفاهيم مغلوطة عن النفس وعن الآخر، أو قل عن الخصم، حقيقيا كان أو متوهماً.

بالنسبة للنفس أعطى قيادات الصحوة لأتباعهم شعورا بالقوة والندية للخصوم المفترضين، وأوّلهم الدولة ورجال الدولة التي يعيشون فيها، وهو شعور لا يمكن أن يعرف أثره إلاّ مراهق صغير السن، أو مهمّش لا قيمة له ولا يقدم لنفسه ولا لمجتمعه قيمة.

وهذا التصور انعكس بشكل كبير على شخصية المتديّن خاصة أولئك الذين يعيشون في مجموعات أو جماعات أو تجمّعات يربط بينهم وحدة هدف أو موضوع.

موقف بسيط من عسكري أو موظف حكومي أو مسؤول يترجمه هؤلاء مباشرة إلى حدث في سياق الندية ومقاومة الدعوة والجماعة.

وهذا الأمر الذي يفترض أنّه يثير الحزن أو الخوف في نفس الشخص الطبيعي، إلاّ إنّه في نفوس الشباب المتحمس أو حتى صغار العقول من المربين وبعض قيادات العمل الدعوي شيء محفز ودافع لأنّه يشعر هؤلاء بوجودهم وأثرهم المفترض، حتى إنّهم يخشاهم مسؤولوا الدولة ويحسبون حسابهم!

وهذا المرض النفسي استغله المتربصون بنا من دول الغرب والشرق، وبثوا في نفوس الشباب وقياداتهم أنّهم قادرون على مواجهة دولهم وأنّ الدول تخشاهم، وأنّهم يمكن أن يكونوا ورقة ضغط لتحقيق مكاسب للإسلام وتحكيم الشريعة ومن ثم إقامة دولة الخلافة، وكثير منهم لا يفكر بهذه الأخيرة بقدر ما يهمه الحقوق المدنية كما يسميها، وفسّر هؤلاء صبر الأنظمة عليهم ومحاولة تجنيب المجتمع آثار التصادم معهم فسروه بضعف

الأنظمة وخوفها منهم، أو بقوتهم هم وأنّهم ورقة رابحة لا يستطيع أحد تجاهلها، وغرهم في ذلك الجماهير الغفيرة التي استخفوها فأطاعتهم واستجهلوها فاتبعتهم، ونسوا أنّ هذه الجماهير التي يتقوون بها ليس لديها مضمون إلاّ اتباع هؤلاء الرؤوس، فإذا سقط الرأس فلا بقاء للجسد، ولهذا لما كشّرت الأنظمة عن أنيابها وأظهرت لهم القوة الحقيقية إذا بهم بين سجين وجريح وقتيل وهارب في بلاد الغرب أو الشرق رهن نفسه لدول معادية جعلت منه كلباً نابحا يثير القلاقل والفتن انتصارا لنفسه ولأمجاده التي هوت.

وإذا رجعنا بالذاكرة إلى أيام فتنة ابن لادن ونشأة القاعدة سنجد كيف استغل الأعداء وجود هؤلاء والنفخ فيهم ليتعاظموا عند أنفسهم ويغتر بهم الجمهور ويكوّن بهم موجات من الفتن يدمر بها بلاد المسلمين، وكان الإعلام العالمي يقدم ابن لادن على أنّه المطلوب الأول لأمريكا وأنه وأنه، حتى قيل: «رجل ضد دولة ودولة ضد رجل»، بل ظن كثير من الجهال أنّه كالمهدي الذي سيملأ الأرض عدلا ويعيد الخلافة ويقاتل الروم، هذا هو المجاهد الصنديد الذي عاش سنوات في جحور وكهوف أفغانستان، ورأينا كيف استغل هذا لتجميع شباب المسلمين من الصالحين والتغرير بهم في فكرة القاعدة الجهادية لتكون أفغانستان محرقتهم جميعا ومن ثم توليد خلفاء لابن لادن في كل مجتمع يعيد نفس السيناريو المشؤوم.

لكن الدول العربية -والخليجية بالذات- تنبهت بحمدالله في وقت مناسب واستدركت خطورة هذا النشأ المشوّه على المجتمعات ووجوب استئصاله من جذوره بأي ثمن، وهذا ما كان.

على المؤمن الصالح والداعية والعالم أن يعرف قدر نفسه وقدر قوته وإمكاناته، هذا على افتراض صحة الفكرة من أساسها، لكن على الأقل كما قال الشعبي حين سأله الحجاج في فتنة ابن الأشعث عن سبب خروجه فقال: «خبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء».

وهذه حقا فتنة الجماعات الجهادية والحزبية السياسية، فليسوا أهل تقوى وعلم واتباع وإيمان فينصرون بذلك، ولا هم فجرة أقوياء فينصرون بقوتهم وبأسباب الغلبة الطبيعية.

والنتيجة، بقاؤهم شوكة في جنب الدول والمجتمعات المسلمة، يثيرون القلاقل ويشغلون الدول عن شؤونها ويضعفون شوكتها، ويكونون مركبا لكل الغزاة الذين يأتون إلى بلادنا بذرائع شتى، وقد رأيناهم في العراق وسوريا ومصر وليبيا وفي كل مكان، يتواطؤون ويتحالفون ويؤلبون دول الكفر من الشرق والغرب لغزو بلاد المسلمين بذريعة رفع الظلم والجور وكأنّهم يعيشون في خلافة عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق، وليس في كندا وأمريكا وبريطانيا.

انتقل إلى الفهرس

اختصار!

واحد من أكبر أخطاء المرحلة الصحوية هو الاختصار المخل، نعم، كانت الصحوة في غالبها اختصاراً مخلاً للدين، أعني أنّ العيب ليس في الاختصار بالضرورة، وإنّما في كونه كان مخلاً، لأنّه لم يكن اختصارا يراعي الاستجابة لضرورة واقع، أو ظروف مرحلة، أو الترجيح والموازنة المشروعة بين ما هو مهم وما هو أهم، بين المصلحة والمفسدة، بين الصالح والأصلح، والفاسد والأفسد.

كان الاختصار يتبع الطبيعة التي ينطلق منها التديّن في الفئة المعينة أو المنطقة أو الجماعة.

لم يكن ذلك منطوقاً بالضرورة، لكنك تلمسه واضحا من خلال الممارسات ومن خلال العلاقات، ومن خلال مساحة الحديث، ومن خلال تقدير المسائل.

وهذا الاختصار مارسته اتجاهات عدة، جهات علمية، وجهات دعوية، وجماعات وأفراد.

بعض الفئات اختصرت التدين في مجموعة مسائل تقيم دين الفرد والجماعة بل والمجتمع بها، اللحية وكشف وجه المرأة والتدخين وتشمير الثياب وتكفير تارك الصلاة وتحريم التصوير الفوتوغرافي.

غلب هذا على اتجاهات علمية معروفة، وكانت الفتوى تتردد بهذه المسائل وتغلب على نقاشات وطروحات أصحابها ويتبعهم مجاميع كثيرة

وسرى ذلك فيهم لحدّ التسطيح، وكانت المخالفة في هذه المسائل كفيلة بصدور بيان من لجان علمية بالتبديع أو التفسيق أو المحاربة والإقصاء من مؤسسات علمية أو شرعية.

بينما اختصرت الجماعات الحزبية السياسية الدين في العمل الجماعي ومفاهيم الجهاد وإقامة دولة الخلافة، والأخوة الإسلامية والتجميع، وكان المخالف لهم في شيء من ذلك شبيها بالعدوّ، يتم محاربته وإقصاؤه وتشويه سمعته بل ولا يبعد أن يتم التواصل مع جهات تقوم بسجنه أو تصفيته.

أمّا التبليغ فاختصرت الدين في معاني الرحمة بالمخالفين والعصاة ودعوتهم لسلوك الخروج معهم وترك دروب الخطيئة والتضحية من أجل المدعوين بالأهل والمال وكل شيء.

وهذه الفئات التي تنتسب في الجملة لأهل السنة أما الفرق الأخرى فالأمر فيها واضح.

وهؤلاء هم متسيدوا الصحوة وموجّهوا حركتها، ومن الخطأ النظر إلى اختصارهم هذا على أنّه نوع من التخصص كما دافع بذلك عنها بعض الناس، بل إنّ هذا يشكل في حسهم وتصورهم جوهر الدين والدعوة الذي لأجله يمكن أن يرتكبوا صوراً من القطيعة والهجر والمنافرة بل والكيد أحياناً.

والحقيقة أني لا أعتب على الجماعات الحزبية ولا التبليغ ولا أمثالهم لأنّ الأصل فيهم الجهل والضلال.

إنّما العتب على المؤسسات والمجاميع العلمية وبعضها تضم علماء مشهود لهم بالفضل والعلم كيف انحسر الفعل الدعوي والعلمي على مجموعة مسائل.

أنا أعرف أنّهم يعلّمون العلم كله في أبواب الفقه وكتب العقائد، لكني أعني انحسار التقييم والتقدير في تصور بعضهم أو على الأقل في مشاعره وعاطفته حول هذه المسائل، وتركوا العمل للمشاريع الكبرى وتربية الجيل على العمل في العلم وتبليغه واحتواء المخالفين بالعلم لا بالجهل والتجهيل والتبديع.

كذلك الحديث عن شمولية الدين والتحدث عن مسائله العامة ومشاريع الإسلام الكبرى من منطلق شرعي سلفي كان كفيلاً بشغل طاقات طلبة العلم بالعلم والتبصر بالدين وعمق الفهم والفقه الذي يمكّنهم من التعامل مع الواقع بشمولية الشريعة ويكون لديهم بذلك الحصانة من الوقوع في مصائد الجماعات والأحزاب أو رموز الضلال الذين استغلوا المساحات الشاغرة ليتواجدوا فيها.

وحتى تعي قوة هذ الأثر في المزاج العام للصحوة، فانظر كيف تسببت فتوى الشيخ الألباني في جواز كشف وجه المرأة بشروط ذكرها في كتبه، بغض النظر عن صوابه من خطئه، إلاّ أنّه لم يكن داعية ضلال أو سفور، وكان ذلك في وقت لا وسائل تواصل ولا إعلام يمكن أن ينشر فتواه على نطاق واسع مثلا، ومع ذلك كانت هذه الفتوى سببا في إخراجه من المملكة

وحرمان الجامعة الإسلامية بل وطلبة العالم الإسلامي كله الذين درسوا فيها من علم الشيخ الذي كان مكسبا لكل بلد يحل فيه.

ضاق عطن علماء معينين فجيشوا ضد الشيخ وألّفت الردود عليه وفي بعضها اتهام له بالدعوة للسفور، بينما وجد في المملكة ومازال من قديم علماء وقيادات لبعض الجماعات يخالفون في أمور تتصل بالعقيدة وبأصول الدين ومع ذلك احتضنوهم وصدّروهم ومكّنوهم في جامعات المملكة عقودا من الزمن، أليس هذا مفارقة سببها ذلك الاختصار المخل الذي ذكرته لك؟

أمّا الجماعات والأحزاب فالأمر فيهم أوضح بكثير، فحربهم ضد كل عالم سلفي أو طالب علم يتحدث في غير أهداف الجماعة ومقاصدها المعروفة كثيرة قصصه وحوادثه الدامية أحيانا.

فقضية الخلافة مثلا والأمة الواحدة هي شغلهم الشاغل حتى دب وسرى في هذه الجماعات قياداتها وقواعدها الجهل بالدين بل بأبجدياته، بل لا تعجب أنّهم يحاربون الدين وشرائع السنة وأصول العقيدة أحيانا لأجل ما يتصورون أنه يؤثر ويضعف الأصل الذي قامت عليه دعوتهم وهو التجميع والتكديس لأجل إقامة الخلافة الراشدة، وكيف يأتي الرشد من الجهل والبدعة؟

ونتج عن هذا الاختصار تقييم الناس والأفراد والجماعات بحسب ذلك التصور المختلّ.

فيكفي أن تلبس البشت وتقصر الثوب وتسدل اللحية وتنافح عن تلك المسائل لتكون مرحبا بك في كل محفل شرعي وتكون رمزا للديانة

والتمسك، ولا آبه لقضية الترميز لو كانت مجرد ألقاب، إنّما المحزن أنّ هذا كان هو التزكية التي تسهل لك الحصول على الفرص التعليمية والعملية والمناصب والتبرعات المالية وأحيانا الزيجات الفريدة !!

أمّا إذا أردت أن تكون قائدا وموجها في العمل الحزبي فلتكن صاحب مهارات معينة كالخطابة والتنظيم والصوت العالي والشدة إضافة إلى التعصب للحزب والجماعة فبهذا تكون منافسا لذلك الأوّل في كل ما ذكرته.

كان الاحتراب على كل ذلك يدور بين هؤلاء "المختَصِرين" وكلٌّ يزعم أنّه في هذا خادم للدين والشريعة، يسوّغون ظلمهم واستئثارهم بما ليس لهم ظلماً وبدون وجه حق أنّ مصلحة الأمّة والدعوة تستلزم ذلك.

وبين هذا وذاك يضيع أصحاب الكفاءات غير المؤدلجين الذين ينطلقون من قضية الإتقان والاحتراف وخدمة أنفسهم وأهليهم وبلادهم.

ولولا أني لا أحب أن يستغل المخالفون الأمر استغلالاً سيئا لذكرت من القصص الواقعية ما يشيب له الشعر، لكن حسبي أن كل منصف عايش الفترة التي عشتها يعرف طرفا من ذلك.

يكفي أن يكتب في تزكيتك أنك محب لفلان وفلان لتفتح لك كل الأبواب الموصدة.

أو يشار إلى أنّك من حزب فلان وفلان لتنصب عليك الحمم والحروب حتى لو اضطر الأمر أن يخرجوك أو يقتلوك.

وهذا نوع أسوأ من الاختصار، وهو اختصار الدين في الأشخاص أو الأحزاب أو الجمعيات أو أي كيان، من أحب فلان وتبعه فهو المتدين المستحق للولاء، ومن أبغضه أو خالفه فليس منا.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

طارقوا الأبواب

اعتقد كثيرون أنّ جماعة الإخوان وتشكلاتها المختلفة من سرورية وقاعدية وداعشية وغيرها قد انحسرت أو ضعفت، والأشدّ سذاجة من يظنها انتهت إلى الأبد.

جماعة الإخوان رغم كل مافيها من الخلل العقائدي والمنهجي والانحرافات والتشوهات البالغة في فهم الإسلام والشريعة – عكس ما يظنون في نفسهم- إلاّ أنّ شيئاً واحدا لابدّ من الاعتراف لهم به، ألا وهو القدرة على البقاء، لا أقول أيّ بقاء كما بقيت فلول الاشتراكيين والشيوعيين العرب، بل هو بقاء قويّ ومؤثر وإن ظنّ البعض خلاف لك.

جابهت أنظمة عدة هذه الجماعة بالقوة العسكرية والقضائية والسياسية والفكرية، لكنها بقيت رغم ذلك حاضرة مكتنزة تظهر بوضوح في أوقات يُسمح لها بذلك ثم إذا جوبهت بقوة انكفأت وكمنت كما تكمن الأفاعي في جحورها تنتظر الفرصة السانحة للظهور.

يعينها على ذلك أمران، الأوّل ذاتي، وهو ما يرجع إلى طبيعة الجماعة ومنهجها المتلوّن القابل للتشكل بأيّ ظرف مرحلي، فليس لدى هؤلاء القوم مبدأ أو قيمة يهمهم المحافظة عليها.

والأمر الآخر يرجع إلى عامل خارج عنها، وهو ما تُمدّ به من أسباب القوة والدعم من القوى الدولية الّتي تحتفظ بصلاتها بهم دائما ورقة ضغط

على الدول العربية وتستخدمها لإشغال الدول والحكومات بهم من جهة، واستخدامهم كمعول تخريب وإثارة للفوضى.

ورغم أنّ هذا استمر نظريّة تحدث بها السلفيون وغيرهم سنوات طويلة إلاّ أنّ فوضى "الخريف العربي" الذي شهدناه قبل سنوات قد أبان عن هذا بشكل واضح وقدمت الجماعة وكل مناديبها في الدول العربية الأدلة الواضحة واليقينية التي حوّلت النظرية إلى حقيقة لا شك فيها.

كتبت سابقا عن دولة الإخوان العميقة، وقلت إنّ هذه الجماعة ربما لا تظهر في صورتها الحقيقية لظروف سياسية أو قانونية كما في دول الخليج مثلا وبالذات في السعودية والإمارات، لكنّها موجودة عبر وكلاء لا حصر لهم ما زالوا يؤمنون بالقيم الّتي ينادي بها الإخوان ويخدعون بها الجماهير.

وحتى نتصور خطورة هذا الأمر لنتأمّل كيف أنّ المملكة التي لا يجوز فيها إنشاء أحزاب سياسية أو جماعات منظمة بشكل ظاهر، كيف أنّ الإخوان قد استطاعوا التواجد في البيئة السلفية التي تتعارض أصلاً مع أدبيات الجماعة، ووصل فكرهم ومنهجهم إلى العمق، وأعني بذلك وصولهم إلى المحاضن العلمية، وكذلك المناصب الحكومية.

أمّا العلماء فمنهم من تم تطويعه لفكر الجماعة، ومنهم من استطاعوا ضمّه لجوقة المدافعين عنها والملتمسين لها الأعذار والمشجعين لها في مشاريعها الدعوية – زعموا- والسياسية في بلدان حولنا على أساس أنّهم المرابطين على الثغر السياسي.

ومن لم يستطيعوا جعله من إحدى المجموعتين استغلوا شخصيته وطريقته وثقة الناس في علمه وحياده في تصفية خصومهم من السلفيين بالذات.

حدث ذلك عبر سياسة سمّيتها "طارقوا الأبواب".. وهذه يعرفها من يعمل في الجهات الأمنية التي تضطر لمداهمة أوكار مخالفة للأنظمة، إذ يقومون أحيانا بالقبض على شخص من ضمن المطلوبين ثمّ يأتون به أمام الباب ليطلب من أعضاء الوكر أن يفتحوا الباب فيفتحونه ثقة بهذا الذي يظنونه منهم.

استطاعت الجماعة وعبر سنوات عديدة أن تربي جيلا من المتعاطفين معها ومع مقاصدها وأهدافها، لأنّها أهداف براقة وحالمة مثل الحكم بالشريعة وإعادة الخلافة وتطويع الناس لرب الناس..الخ.

ونشأ أفراد أذكياء وبارزون في العلم الشرعي كلامهم يشبه كلام أهل العلم والسنة، لكنهم يحملون في صدورهم روح المنهج والولاء للإخوان، واستطاع هؤلاء أن يكونوا طارقي أبواب العلماء، فمنهم من سقط معهم، ومنهم -كما قلت لك- حوّلوه إلى بوق يدافع عنهم، ومنهم من سلطوه على مخالفيهم.

ولم يسلم من العلماء إلاّ من سلمه الله بعلمه وديانته وبصيرته بالسنة ومناهج المنحرفين عنها، ولا أريد أن أسمّي أحداً صيانة للخواطر وحتى أبتعد بالمقال عن التشخيص، لكن من كان ذا بصيرة عرف ما أعنيه ومن أعنيه.

ولما حظي أولئك بهذه المكانة من العلماء اكتسبوا ثقة الساسة، فكان تزكياتهم – بلسان الحال وليس شرطاً المقال- تبوئهم لمناصب حساسة خاصة مؤسسات التعليم، فأصبحوا يسيطرون على كل شيء، فيملؤون الوظائف والفرص التعليمية والعملية بكل من شاكَلهم ووافقهم، وبالمقابل قاموا بعمليات إقصاء عنيفة واستحواذ وطرد كل من يرون فيه ممانعة لمنهجهم ودعوتهم الحزبية المغالية في التحزب.

سنوات طويلة مرّت رَبَى فيها أجيال كثيرة، تشربوا الفكر الإخواني – دون أن يعلموا – واقتنعوا به، وإن كان ظاهر أمرهم طلب العلم والدعوة السلفية والاهتمام بالعقيدة، فهذا للأسف لا يعدوا أن يكون دوراً وظيفياً يؤدونه بدون شعور.

أمّا القلب والهوى فما إن تتحرك قاطرة الإخوان ويفتح لهم باب إلى الفتنة إلاّ وجدت هؤلاء قبل أولئك.

لذلك أقول حقا وصدقا بدون تحيّز أو ردّ فعل.. مهما تكن عاطفتك الدينية وحماسك للدين وللشريعة فإياك أن يدخل قلبك شيء من الشك والتردد في ضلال هذه الفرقة التي تسمي نفسها جماعة، ولا يدري غالب الناس أيّ شرّ صرف الله به عن هذه الأمّة بصرف الإخوان عن زمام الحكم في مصر أو غيرها من الدول العربية، مهما قيل عن دعوتهم وما يرفعون به عقيرتهم من الدعوة للإسلام فهي مجرد شعارات لا قيمة لها عندهم، وليس عند هذه الجماعة إلاّ التجسير لكلّ مشاريع الخراب إلى بلاد المسلمين بحماقة

وجهل، وهل أكثر دلالة على ذلك للعقلاء من صورهم في المحافل مع أعدى أعداء الأمة في إيران وأمريكا؟!

طارقوا الأبواب ما زالوا في كل مؤسساتنا وحياتنا اليومية موجودون، كثير منهم نعرفهم ونعرف حسن مقصدهم وطيبة قلوبهم وحبهم لله ورسوله وتعاطفهم مع قضايا الإسلام، لكن هذا لا يكفي، حسن القصد وحده بدون حسن الفهم عن الله ورسوله أنشأ جيشا من المسوقين للإخوان وأفكارهم بدون شعور.

أمّا من جمع سوء القصد مع سوء الفهم فلا عذر له أمام الله تعالى، أولئك الذين يصرون على الاصطفاف مع الإخوان رغم ما انكشف له في السنوات القليلة الماضية حجم الفساد والخراب الذي منيت به الدول بسبب اتباع مناهج وشعارات وفكر الإخوان.

انتقل إلى الفهرس

أفلاطون السلفي!

في أثينا عاش سقراط.. أبو الفلسفة، أو نبي الفلاسفة كما يسمى، وهازم السوفسطائية، ومؤسس المناهج الفلسفية القديمة، وكان قد عاش حياته في صراع قِيَميّ مع القوى السياسية والفكرية في أثينا، حتى وصفه بعض تلاميذه بـ(ذبابة الخيل)، فذبابة الخيل تلدغ الخيل فتسوقها إلى أفعال أو سلوك اتجاه معيّن، وهكذا كان سقراط في حثٍّ ونصح دائم لـ"أثينا" لاتخاذ المواقف المثالية وسلوك السبل القويمة عن طريق لدغها بالانتقادات اللاذعة، ووصل به الأمر إلى إثارة حكام المدينة، إذ كان كثير النقد والتوجيه لهم بوجوب تحقيق العدل والسعي وراء الخير، حتى بلغ به الأمر محاولاته تغيير مفهوم العدل الذي ينتهجه الأثينيون، ووقف في وجه محاكمات ظالمة لآخرين مما سوّغ لأولئك الذين أزعجهم بانتقاداته أن يقدّموه للمحاكمة والحكم عليه بالإعدام بعد اتهامه بالهرطقة، وأعدم فعلا بشرب السمّ.

كان المجلس الذي حكم على سقراط بالموت مجلس شيوخ المدينة الذي حكمها بالديموقراطية، وهذه المفارقة أوجدت سخط تلميذ سقراط الفيلسوف الشهير "افلاطون" الذي شكلت محاكمة معلمه سقراط ومن ثم قتله صدمة كبيرة من وجهين: الأولى: كيف يكون مصير المصلح الحكيم أن يموت إعداما على يد من يسعى لصلاحهم؟ والثاني: كيف يمكن أن يؤدي الحكم في ظل الديموقراطية إلى إعدام المصلحين لأجل آرائهم فقط؟ فأين الديموقراطية إذن؟

خرج أفلاطون من أثينا مغضباً وساخطا على الديموقراطية التي لم تكفل العدالة لمعلمه، وأسّس موقفه منها على أساس أن مثل هذه الديمقراطيات كانت تتبع غرائز المواطنين بدلاً من السعي وراء الصالح العام، وأن مثل هذه الديمقراطيات يديرها في العادة مجموعة من الأغبياء.

وقد هاجم أفلاطون الديمقراطيات الأثينية لكونها مجتمعات مؤمنة بحرية الإرادة؛ حيث يُعتقد خطأً أن الفوضوية هي الحرية، وأن هذا النوع من الديمقراطيات ليس أكثر من مجرد مجموعة من الأفراد تقيم في مكان مشترك وليس شكلاً من التنظيم السياسي.

وعلى العموم فهناك الكثير من الكلام الأفلاطوني حول السياسة وأشكال الحكم، كثير منها على التحقيق هو رجوع إلى سنّة الأنبياء والرسل.

ويهمني منها سخطه على الديموقراطية الّتي أعدمت سقراط، إذ أيقن بعدها أن الحكومة العادلة لا تُرْتَجل ارتجالًا، وإنما يجب التمهيد لها بالتربية والتعليم، فقضى حياته يفكر في السياسة ويمهد لها بالفلسفة، ولم تكن له قط مشاركة عملية فيها.

أكاد أجزم أنّ تسويق الديموقراطية في بلاد العرب والمسلمين واستبدال الملكيات بها هدفه تخريب البلاد وتضييعها، والسر في ذلك هو ما ذكره أفلاطون، وأنا أنطلق هنا منه ليرى بعض المغفلين أنّ النظرة للديموقراطية ونبذها ليس موقفاً شرعياً فقط، بل هو موقف كثير من الفلاسفة، وسأعود لتأصيل ذلك شرعيا.

المهم أنّ افلاطون ذكر هذه العبارة التي انتهى إليها بعد تفكير عميق منطلقا من واقع أثينا الذي عايش فيه الصراع وما انتهى إليه حال معلمه سقراط.

والسؤال: كيف يمكن للنظام والقانون المحكوم بالمثل الديموقراطية أن يكون هُوَ نفسه وسيلة وآلة الظلم والقتل؟

الجواب: هو ما ذكره أفلاطون وانتهى إليه، إنّ مهمة القوانين والنظم السياسية والقضائية وغيرها هي تحقيق الصالح العام – أو هكذا يفترض – وهي في النهاية آليات وبروتوكولات وأدوات، ليس لها عقل ولا روح فيها.

وهذه الآليات لا تؤدي الصالح المقصود منها إلاّ بيد الإنسان، الحاكم الحقيقي، وهذا الحاكم إذا لم يكن فيه صفات الحكَم العادل، ولم يكن كذلك حكيما – حسب وصف أفلاطون- فإنّه سيفسد أكثر مما يصلح، فالعدل وتحقيق المساواة وصالح المجتمع هو في حقيقته إرادة الحاكم بهذا النظام السياسي أو ذاك، نعم، قوة ومتانة الآلية تمكنه من تحقيق مقصوده، لكن إذا فسدت الإرادة فلا ينفع معها أفضل وأكثر الأنظمة والقوانين، فمهما كانت موثقة ووثيقة ومحكمة فإنّ ليد الإنسان القدرة في التلاعب بها وتوجيهها حيث يريد.

ومن هنا قال أفلاطون كما قال معلّمه بتفضيل حكم الأقلية (الأرستقراطية =حكم الأفضلية) وذلك بأن يصبح الفلاسفة حكامًا، أو يمارس الحكام والقادة الفلسفة بصدق وكما ينبغي.

انتقل إلى الفهرس

وفي حوارته يسأل سقراط أيهما أفضل: ديمقراطية سيئة أو دولة يحكمها طاغية؟

فيرى أن الحكم من قبل طاغية شرير أفضل من الحكم بواسطة الديمقراطية، لأنه في الحالة الثانية يكون كل الشعب مسؤولًا عن الأفعال السيئة، بدلًا من قيام فرد واحد بارتكابها.

وبغض النظر عن تسويغ هذا التفضيل الذي ذكره فالمهم أنّه كان لدى سقراط وتلميذه نظرة مصلحية توازن بين النظم السياسية وترجح الأقلّ فساداً، "واحتفِظ بهذا لآخر المقال".

ولم يكن هذا رأياً انفردا به بل عارض الديموقراطية كثير من الفلاسفة المعاصرين والقدماء يمكن البحث في (جوجل) للمتعجل لمعرفة بعضهم وما قالوه فيها.

وخلاصة أقوالهم ترجع إلى القول بأنّ الديموقراطية ليست إلاّ توسيعا لدائرة اللصوص والأغبياء الذين يحكمون، فبدلاً من دكتاتور واحد يحكم قابل للتغير أو الموت، تأتي الديموقراطية بعدد لا محدود من الطغاة واللصوص والأغبياء تحت مظلة أحزاب لا تنتهي ولا يعرف ممن يُؤخذ الحق فيها.

الكلام طويل، وإنّما لخصت منه ما أحاول الانطلاق منه إلى معرفة كم أفسدت الحركات والأحزاب الإسلامية والجماعات وغيرها حين وقعت في نفس الجاهلية الأثينية.

عندما تقرأ القر آن ستجد أنّ الله تعالى ذكر في غير ما آية أنّه أرسل الرسل بثلاث مهام: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، تبليغ الآيات والوحي، وتعليم الحكمة أي السنة والشريعة، والتزكية.

فلماذا التزكية؟

التزكية لمن لا يتصورها أو يفهم معناها هي التطهير، أي تطهير نفوسهم من أدران الشرك والبدع والخرافة وكذلك المعاصي والشهوات المحرمة، وتهذيب طبائعهم حتى تكون معتدلة.

وأهمية التزكية تأتي لأنّ الشريعة لا تنتج وحدها الخير والصلاح للفرد ولا للأمة إلا إذا صادفت نفسا زكية تمت تربيتها بالوحي والأدب والأخلاق.

فحتى القرآن وهو وحي الله المحكم يزداد به بعض الناس إجراما، قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:٦٤].

وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٥].

هذان مثالان من القرآن، الأول عن المجموعة والآخر عن فرد، لم يزدادوا بالوحي والآيات إلاّ ضلالا وكفرا.

ولهذا ستغرق النّبيّ ﷺ زمناً ليربي جيلاً زكاهم وأدبهم، قبل أن يبحث عن الحكم والإمارة والتفصيل في التشريعات، لأنّه يعلم مما علمه ربّه أنّ الشريعة بغير تزكية يمكن أن تكون وبالاً على الناس، شأنها في ذلك شأن أيّ نظام سياسي آخر، لا يمكن أن يحقق العدالة والسياسة الرشيدة بلا هذه النفوس الزكيّة.

ولهذا لما مات النّبيّ ﷺ وحمل الأمانة بعده الخلفاء الأربعة مُتّع الناس بالحكم الرشيد على منهاج النبوة زمنا بلغت فيه رقعة الدولة مشرق الشمس ومغربها مع وفرة العدالة والسياسة الراشدة، مع تفاوت بطبيعة الحال من خليفة لآخر.

ولم يكن ذلك مقصورا على الخلفاء الحاكمين بل كذلك المحكومون، روى ابن زنجويه في الأموال عن سعيد بن المسيب قال: لما أتي عمر بخمس الأعاجم، فلما رآه قال: إنّ قوما أَدَّوا هذا لأمناء».

وفي مجموع الفتاوى: «حمل مرة إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – مال عظيم من الخمس فقال: إن قوما أدوا الأمانة في هذا لأمناء، فقال له بعض الحاضرين: إنك أديت الأمانة إلى الله تعالى فأدوا إليك الأمانة، ولو رتعت لرتعوا» وهو في "البداية والنهاية" لابن كثير، وأنّ القائل له هو علي رضي الله عنه.

هذا هو الجيل الحاكم والمحكوم الذي زكّاه النّبيّ ﷺ.

نعود الآن للحركات الإسلامية من أحزاب وجماعات سياسية وعسكرية وغيرها ممن حمل همّ تحكيم الشريعة وإقامة الدولة الإسلامية

والحكم بالقرآن والسنة، فقد وقعت جميعها في نفس الخطأ، إذ حسبوا أنّ دولة الإسلام والحكم الرشيد يكفي فيه أن يقرر الحكم بالشريعة، هكذا فقط، تعلن الدولة – أياً كانت- أنّها تحكم بشرع الله، ويؤتى بالقرآن والسنة وكتب المذاهب الفقهية، وحينئذ يختفي الظلم وتتحقق العدالة الاجتماعية والمساواة وينتشر العدل وتقوم راية الجهاد وتعلن الخلافة ووو الخ.

وهذا التفكير الحالم المغرق في السذاجة والجهل نسي أن يستحضر أهمّ مقوّم لقيام هذا الأمر المنشود، ألا وهو التزكية.

تُرى من سيحكم بالكتاب والسنة؟ رموز وقادة تلك الجماعات المتورّمة جهلاً بالله وبرسوله وسنته وشريعته، المنتفخة بكم لا يحصى من الخرافة والبدع والأهواء والتناقضات؟

لن أسأل عن برامج سياسية ولا غيرها مما يطالبه بها العلمانيون وأعداء الشرائع، لا ولكني أسأل عن الجيل المزكّى الذي يمكن أن يحمل على عاتقه فعلا مسؤولية الحكم الرشيد، وهذا غير موجود ألبتة، فالقائمون على هذه الجماعات والأحزاب إمّا سياسيون لا يقيمون للكتاب والسنة في شأنهم ولا واقعهم قيمة، وعلى رأسهم الإخوان المسلمون الذين رأيناهم في كل موقع حكموه كانوا أعداء للسنة وأكثر مطاوعة للتفسخ من النظم التي زعموا الثورة عليها، رأيناهم في تونس وفي مصر وغيرها.

وأكثر منهم تدليسا أربّاء الإخوان (السرورية) الذين خدعوا جيل الصحوة بالعلم الشرعي ورفع عقيرتهم بالسنة والعقيدة ثمّ لما سالت بهم الأودية إذا مصبّهم ومصبّ الإخوان واحد.

والشق الآخر هم الجهاديون – زعموا- الذين فيهم من جينات ذي الخويصرة والقرامطة ما لو بعث هذان لتقاصرا عنهم جهلاً ودموية، وتمثلهم هنا القاعدة وداعش.

تحكيم الشريعة لن ينتج الجيل الإسلامي ويؤتي ثماره إلاّ بعد تربية الناس وتزكية عقائدهم وتصفيتها، وهو درب طويل وشاق، هذا صحيح، لكنه الدرب الوحيد المشروع، وسالكوه قبلنا هم الأنبياء والرسل، وليس مطلوبا من العالِم المسلم إلاّ هذا، لا المزاحمة على الحكم والسياسة والقتال ومشاريع (أعدوا) فكل هذا هدم للفكرة من أساسها ويفقدها صوابها.

الشريعة إذا لم يكن منفّذها والقائم عليها والمحكوم بها قد سبق تربيتهم وتأهيلهم لها وإلاّ جاءت النتائج عكسية.

وأكبر دليل على هذا هو الجيل الذي نشأ الآن كارهاً للشريعة وللأحكام، فإنّ هذا ليس سببه فقط الضخ الإعلامي الغربي، لا بل هذا الضخ وجد واستعمل دلائله من داخل المجتمعات الإسلامية وعبر حملة الشريعة أنفسهم لا أستثني منهم العلماء ولا طلبة العلم ولا الدعاة وأنا أوّلهم، إلاّ نفرا قليلا ظل يردد الحق لكن صوته كان ضعيفا وسط ضجيج دعاة الفتن.

إذ جاء تطبيقنا لهذه الأحكام الشرعية في الغالب مشوها ليس على وفق منهج تربوي صحيح، وذلك في جوانب كثيرة.

إذا كنا عجزنا في مؤسسات صغيرة سيطر عليها إسلاميون سواء منها مؤسسات رسمية حكومية أو مؤسسات أهلية أو مجموعات حزبية أو غيرها، أقول إذا ظهر أثر فقد التزكية في الفشل الذي اعتور إدارة هذه

المؤسسات وظهور السلطوية والإقصاء للآخرين والاستئثار بالمناصب والأموال ولن أتحدث عن السرقة والنهب حتى لأموال الزكاة، إذن كيف يمكن أن تدير هذه الجماعات دولاً بأكملها وتحكمها بالشريعة وباسم الشريعة؟

وإذا عجزت هذه الجماعات في التواصل مع مخالفيها من داخل السياج نفسه مع وحدة الهدف والموضوع، فكيف يمكن لها أن تتواصل وتتعامل مع مخالفيها من خارج السياج دولاً ومنظمات؟

رأينا في مواقع وساحات القتال -التي يسمونها مواطن الجهاد- كم تتعدد الرايات والأمراء وتوجه البنادق في النهاية لصدور بعضهم البعض، ولا عذر في اختراق العدو لهم لأنّ ذلك يؤكد فقدان عامل التزكية المشروط.

أما طريقة فهمهم في إقامة الشريعة وأحكامها فانظر كيف تعاملوا مع سكان المناطق التي سيطروا عليها إذ طبقوا فيها تصورات وأحكام كانت نهاية الكتاب في السيرة النبوية بدؤوا هم بها أولاً، مثال ذلك بدؤهم برجم الزناة وقطع أيدي السارقين وإقفال المقاهي -مثلا – كما فعلوا في الصومال وغيرها، وهذه الأمور جاءت متأخرة في السياق الدعوي والتشريعي، ولا يُقال هنا إنّ هذه المناطق مناطق مسلمة، لأن العبرة والعلة واحدة، وهي أنّ التشريع والحكم بالشريعة وإقامتها لابد له من تهيئة وتربية متدرجة وسابقة.

وأيا كان الصواب في هذا المثال فإنّ أحداً لا يمكن أن يجادل – إلاّ مخصُوماً – أنّ الشريعة بأحكامها ونظمها بحاجة إلى تربية جيل قادر على

حملها زكته النصوص والسيرة النبوية وفَقِهَ دينه كما كان السلف لا كما شوّهه الخلف.

وهذه الحكمة هي التي انتهى إليها أئمة السلف أخذا من منهج الأنبياء في الدعوة تعليما وتبليغا وتزكية على المنهج، ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[يوسف:١٠٨].

وهو ما أداه إليه فكر أفلاطون وتأمله في ديموقراطية أثينا، التي تشبه إلى حد بعيد ديموقراطيات الدول العربية التي ما جلبت لتلك البلاد إلاّ الخراب والضياع، إذ كل الدول التي حكمها الملوك كانت أكثر رخاء وأمناً وديانة من الديموقراطيات، ومازلنا للآن نشاهد الدول الملكية خيرا من الديموقراطية المزعومة حيث النزاع والصراع السياسي لا ينتهي مشغلاً إياهم بملهاة الديموقراطية والحريات المزعومة عن التنمية والبناء، فلا يكاد ينتخب برلمان وتشكل حكومة حتى تنشغل بالمماحكات الحزبية والتصيد هذا إذا سلمت من حجب الثقة ومن ثم السقوط والانتخاب مرة أخرى وهكذا دواليك.

أو تقع تحت فريسة الحزب الأوحد الذي يسيطر على كل مناحي الحياة كما وصفهم سقراط وتلميذه باللصوص والأغبياء، هذا يسرق وهذا يجامل ويخدع بالصويت والصراخ في البرلمان وتستمر اللعبة.

والخلاصة: إذا اردنا أن نعيش بعيدا عن الفتن وأن نسلك درب الأنبياء وأئمة السلف الصالح الذي طالما عُيّرنا به فليس إلاّ القعود لنشر العلم والسنة والتزكية الّتي كان الشيخ الألباني رحمه الله يصر عليها تحت مسمى "التصفية والتربية"، والعيش مع الناس وتربيتهم وتعليمهم ومخالطتهم

والصبر عليهم، ومدّ الجسور مع ولاة الأمور والدعاء لهم والتعاون معهم على البر والتقوى واستعمال كل فرصة ومساحة لإشاعة الإيمان والخير حتى يلقى الله الواحد منا خفيف الظهر من حقوق أهل الإسلام ثقيل الميزان من البر والتقوى والعلم النافع والعمل الصالح، والله المستعان وعليه التكلان.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

أبو ذر "المعاصر"!

أبو ذر، جندب بن جنادة رضي الله عنه، صاحب رسول الله ﷺ، من السابقين الأوّلين، حتى قيل إنّه أسلم رابع أربعة أو خامس خمسة.

عُرف بالعلم، وعرف بالشجاعة والقوة في الحق، وعرف بالزّهد، زكّاه النّبيّ ﷺ في غيرما موقف، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «**ما تقل الغبراء ولا تظل الخضراء - على ذي لهجة - أصدق وأوفى من أبي ذر - شبيه عيسى ابن مريم**» على نبينا وعليه السلام، قال الراوي: فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا نبي الله أفنعرف ذلك له؟ قال: «**نعم فاعرفوا له**».

وقد وقع بينه وبين الأمراء في وقته منافرة، كانت سبباً في خروجه إلى الربذة – منطقة خارج المدينة- وانفراده عن الناس، وكان سبب المنافرة فيما روي موقفه من تعامل الصحابة مع الدنيا، كان الرجل زاهداً من الزهاد، وكان فيما روي عنه يأمر بالتمسك بعهد النّبيّ ﷺ بالتخفف من الدنيا، وقد رأى كيف حصل الانفتاح في عهد عثمان بعد مقتل عمر رضي الله عنه، وهذا شكّل صدمة لكثيرين من جيل الصحابة وكبار التابعين وليس لأبي ذر وحده، واختلفت ردة فعل كل منهم، وكان ذلك أحد الأسباب في نشأة التصوف كردة فعل، وسببا كذلك في خروج الخوارج وأحد مسوّغات وجودهم.

ولا يهمنا كل ذلك على سبيل التحقيق، المهم أن نشير الآن إلى سبب عميق من أسباب الفشل الذي اكتنف مسيرة الدعوة في الفترة الماضية على يد بعض أبنائها وهي سنة تتكرر في كل جيل.

إنّك إذا قرأت في سيرة أبي ذر ستجده موصوفاً بالشدة والمواجهة والقوة في التمسك، حتى روي أنّه أوّل ما أسلم جهر بإسلامه في مكة فضُرب حتى دَمِيَ.

وبعد إسلامه كذلك كانت مواقفه قوية صارمة مع الصحابة حتى خرج إلى الشام فكتب معاوية إلى عثمان -وكان الخليفة-: «إن أبا ذر قد أفسد الناس بالشام»، فبعث إليه عثمان فقدم عليه.

قال حصين عن زيد بن وهب: مررت بالربذة فإذا أنا بأبي ذر، قال فقلت ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤]، قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، قال: فقلت: نزلت فينا وفيهم، قال فكان بيني وبينه في ذلك كلام فكتب يشكوني إلى عثمان، قال: فكتب إليّ عثمان أن أقدم المدينة، فقدمت المدينة وكثر الناس عليَّ كأنهم لم يروني قبل ذلك، قال فذكر ذلك لعثمان فقال لي: إن شئت تنحَّيت فكنت قريبا، فذاك أنزلني هذا المنزل ولو أُمّر عليَّ حبشيّ لسمعت ولأطعت».

وبطبيعة الحال لم يكن الأمر خلافاً في تفسير آية، بل كان خلافاً في تفسير الحياة والتعامل مع الدنيا ومتغيراتها وفق هذه الآية.

ومع هذه الشخصية القوية، جاء أبو ذر يسأل النّبي ﷺ أن يوليه الإمارة فقال له: «**يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**».

كل هذه الصرامة والقوة، ومع هذا يصفه بالضعف؟

قال القرطبي: «أي: ضعيف عن القيام بما يتعين على الأمير من مراعاة مصالح رعيته الدنيوية والدينية، ووجه ضعف أبي ذر عن ذلك أن الغالب عليه كان الزهد واحتقار الدنيا وترك الاحتفال بها، ومن كان هذا حاله لم يعتن بمصالح الدنيا ولا بأموالها اللّذَين بمراعاتهما تنتظم مصالح الدين ويتم أمره، وقد كان أبو ذر أفرط في الزهد في الدنيا، حتى انتهى به الحال إلى أن يفتي بتحريم الجمع للمال وإن أُخْرِجَت زكاته، وكان يرى أنّه الكنز الذي توعّد الله عليه بِكَيِّ الوجوه والجُنوب والظهور»، حول هذا يدور غالب تفسير الشرّاح للضعف الذي وصف به النبيّ ﷺ أبا ذر.

وهو صواب بلا شك لكنه يحتاج إلى إبراز شيء يهمنا كثيراً، وهو ضعف الاستيعاب والتقبل والمشاركة، وهذه ميزة من القوة الإيمانية لا يمتلكها كل شخص، بل قد تكون مع الأقل إيماناً وزهداً وتعلقاً أكثر.

وقد قال ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير وأحب إلى الله من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**».

هذا وجه قوة للقدرة على مخالطة المختلف واحتواء التغاير في المواقف والمفاهيم بل وحتى في الدين.

ومنصب الإمارة يقابل فيه الأمراء التحولات ويتعاملون مع الاختلاف ويحتاج إلى سياسة هؤلاء المتغايرين والمختلفين، وهذه قوة يضعف عنها أبو ذر رضي الله عنه، ومثل هذه الشخصيات في مثل هذه المواقع لا تصبر بل قد تخرج إلى الشدة والغلظة التي تفسد الناس وتضيق عليهم حياتهم.

أو إلى الانحلال والاستسلام الذي لا يحفظ ديناً ولا دنيا.

وهذا النمط من الشخصيات على دينها وجلالة قدرها وقوة علاقتها مع الله ليست مؤهلة للقيادة السياسية ولا العلمية حتى، بل ولا حتى في مجال الفتوى العامة.

وكثير منهم لا يقبل أيّ نوع من التغيّر أو الاختلاف عن السيرة الّتي نشأ إيمانه ودينه عليها، ويشعر بالقلق الكثير والمبالغ فيه أحياناً من أي تغيير أو اختلاف عما عهده.

ويفشلون فشلاً ذريعا في استيعاب المتغير الزماني أو المكاني والتفاعل معه إيجابياً بالتأثير فيه وتنمية الخير، والصبر على مافيه من شر والتقليل منه، دون عزلة أو تصادم معه.

ومثل هذه الشخصيات وجدت في زمان الصحوة وكان كثير منها عائقاً عن تقدم وتطور الدعوة وقدرتها على التفاعل مع المحيط ومقاومة آثار الانفتاح العالمي.

منهم من كان في مصاف العلماء، ومنهم من كان في طبقة طلاب العلم الكبار، ومنهم دعاة وصالحون في فئات مجتمعية متنوعة.

كان عند هؤلاء تصور أنّ لدى الدول القدرة على الانعزال والانكفاء ومقاومة العولمة بطريقة التمسك بالنمط الاجتماعي أو الدعوي أو العلمي الذي نشؤوا عليه، وأنّ الأمر لا يعدو أن يكون قراراً بيد النظم الحاكمة، وبالتالي ركزوا جهودهم على تجييش الشباب والجيل في خندق المقاومة والعزلة فقط، وجرّوا معهم كثيرين إلى هذا، وأوجدوا الكثير من الشعور بالاضطراب والتردد والحيرة في نفوس الجيل الناشئ في ظروف وأزمنة وأمكنة تختلف عنهم، **بين إعجاب بالسمات الشخصية لهؤلاء من قوة الشخصية والصرامة والتمسك بالدين وكثير من العلم -المحفوظ غالباً-**، وبين ما يرون من مصالح وضرورات يقفون عائقاً في طريقها بآراء فقهية هم فيه بين أجر وأجرين، ويزيد من تأثير هؤلاء جمهورٌ يقلد بشكل عمومي دون البحث في التفاصيل، وهذا يكوّن موجات من المعجبين والمتحمسين والمناصرين حتى بدون رؤيتهم بل بمجرد السماع عنهم وعن سيرهم من النقلة وفي كثير منها مبالغات لا تخفى على العقلاء وكذبات أحيانا، وهذه عادة قديمة يعرفها من يقرأ كتب السير والتاريخ.

والسيّء من هذا كله ليس وجودهم -فكما قلت: لن يخلو زمنٌ من هذا النمط من الناس على فضلهم ودينهم- لكنّه ترميزهم وتصديرهم كنماذج وحيدة للتأسي والصواب والطريق المستقيم، وهذا خطأ كبير، إذ لا يجوز أن تكون تصورات هؤلاء الثلة وفهمهم للشريعة وعلاقتها بالواقع هو الحاكم على الحياة برمتها، لسببين، الأوّل: أنّهم مهما قيل عن علمهم وفضلهم يظلون بشراً يعتريهم النقص والخطأ والجهل كذلك، بل إنّ هذه الحال التي

يعيشونها على خلاف ما يتصور البعض هي ضعف في حقيقتها وليست قوة، ضعف عن استيعاب التحولات والتأقلم بالحياة معها وفق سنن المدافعة الكونية والشرعية.

والسبب الآخر.. أنّ الانفتاح والتغيرات والتطورات في المجتمع الإسلامي والإنساني سنة كونية لن يستطيع أحد أن يوقفها، وليس من شريعة الله ولا دينه أصلاً تحمّل مهمّة إيقافها، بل السنة والشريعة هي التعامل معها في إطار السنن الكونية التي قضت أنّه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، وأنّ الشر بكل أنواعه باقٍ بقاء الخير في الأرض، وأنّ الشريعة والإسلام كتب لهما حظهما من الدول في كل طيات التاريخ، مرة تنتصر بأسباب النصر الطبيعية دنيوية كانت أو دينية، وتهزم مرة كذلك باسباب الهزيمة الطبيعية.

هذه الشخصيات كانت مسيطرة ولها حضورها العلمي وأحيانا الرسمي، ويخشى العاملون في الدعوة إغضابها أو مخالفتها لأنّ الجمهور يحبها ومقتنع بصواب كل ما يخرج عنها، وبعض الرموز التي أفسدت الدعوة من الإخوان أو السرورية ومن نحا نحوهم رغم مواقفهم السلبية من العلماء ورغم استعدادهم أكثر من غيرهم للتضحية بالأصول الشرعية إلاّ أنّهم حافظوا على علاقة جيدة مع شخصيات عديدة من هذا النمط، بل أشهروهم وجعلوهم في المشهد لتحقيق مكاسب عدة، منها كسب ثقة جمهور الناشئة، إذ هؤلاء عندهم صورة حقيقة للعالم الزاهد البعيد عن السلطان والدولة فهو إذن يمثل الحقيقة الشرعية.

ومنها جعل هؤلاء رأس حربة في وجه العلماء الذين استجابوا للمتغيرات وحاولوا تغيير بعض الثوابت المتوهّمة من خلال رؤيتهم المستقبلية واستشراف المستقبل، وكذلك في نحر أجهزة الدولة يستخدمونها في إثارة البلبلة والمصادمة لأيّ تغيير أو تحوّل اجتماعي لا يقع منهم موقع الرضا، على مبدأ «إن كسبوا فَلَنا ولهَم، وإن ضربتهم الجهات الرسمية فعليهم لا علينا»!

وأضرب لك مثالاً يقرب لك الصورة، فقضية الغناء مثلاً والموسيقى والتعامل بها في المدارس أو الاحتفالات، كم استخدمت في مقارعة الدولة والصدام مع الجهات الرسمية بشكل فجّ وعلني، يتزعمه طبعا الشخصيات التي ذكرتها لك، وأنا هنا لا أختلف معهم من حيث حكم الموسيقى والغناء فهذا رأي العلماء الكبار الذين يعتمدهم ولي الأمر أصلاً، وإنّما أريد أن أقرب لك صورة استغلال الجماعات الحزبية لهم.

لأنّه في الوقت الذي يقوم هؤلاء بكل هذه المواجهات بالقوة والصرامة مع الدولة تجد لهم علاقات طيبة ومجاملات مع منتسبي الإخوان والسرورية ممن يفتي بحل الموسيقى والغناء ويرقص على أنغامها ويهتز طرباً بها، ومن أشهر هؤلاء القرضاوي الذي كان له علاقات طيبة جدا برموز الصحوة هنا في المملكة، فأين هذا من ذاك؟ ومن أولى بالشدة والمواجهة؟ إنّك لن تجد لأولئك كلمة واحدة في ذم القرضاوي وأربّائه في السعودية أبداً، لماذا؟ لأنّهم وظّفوهم بكل ذكاء واستغلوا فيهم النمط السلوكي الذي ذكرته لك أعلاه.

هذا مثال واحد والأمثلة عديدة لولا خشية الإطالة.

عوداً على ذي بدء، تلك الشخصيات من مات منهم ومن بقي تريد أن تبقى بنفس الرتم السابق من البيئة الشرعية والدعوية، وهي غير شاعرة ولا مشاهدة لتطور الأوضاع الاجتماعية في البلاد والعباد، وليس يعنيني هنا مضمون هذا التطور، رفضه أو قبوله، فهو ككلّ ما يخلقه الله في الحياة فيه نافع وفيه ضار، فيه مقبول وفيه مرفوض، فيه ما يصل حد الضرورة وفيه ما لا يتجاوز كونه ترفا، فيه التغيير المحرم الذي يتصادم مع القرآن والسنة، وفيه المباح أو القابل للخلاف الذي يرفضه هؤلاء بناء على وضعية كانت تناسب أزمنة مضت.

الصدمة التي عاشها هؤلاء في العقدين الأخيرين بالذات مفهومة جدا لأنّها موجة اجتاحت العالم كلّه، وأحدثت تغييرا في الأسلوب والفكر والآلة والمادة في كل مكان.

التقنية والاتصالات تحولات ضخمة لا يمكن لمن يعيش في الأرض أن يبقى بمعزل عنها وإلاّ مات وانتهى.

وموقف المسلمين منها ليس واحداً بل كثير متنوع مختلف بحسب موقع كل منهم وثقافته وبيئته وحاجته كذلك.

والشريعة – وهذا مربط الفرس كما يقال- ليست بمعزل عن هذه التغيرات ولا غائبة عن المشهد، بل إيماننا بثباتها وشمولها يجعلنا على يقين بقدرتها وقدرتنا معها على التجاوب والتفاعل وتطويع التحولات والتغيرات لتكون إضافة للأمّة بكل دولها ومجتمعاتها، إذا أحسنّا الفقه في

دين الله، وشريعة الله، وسنن الله، وتأملنا موروثنا العلمي والشرعي والفقهي سنجد ذلك بوضوح.

وفي فترات التاريخ الإسلامي عِبَر وأمثلة من أهمها فترة الصحابة بالذات كونهم قدوات لا يمكن الطعن فيهم، فانظر إلى تعامل الصحابة مع آثار الانفتاح، حين دخل الناس إلى الجزيرة من خارجها، وجاؤوا بعاداتهم وثقافاتهم وعلومهم إلى مكة والمدينة وغيرها من مدن المسلمين وأعادوا بذلك تشكيل خارطة التنوّع المجتمعي، ولا شك أن هذا جلب الكثير من السلبيات تحدث عنها السلف في كتبهم، سلبيات في الأخلاق والأفكار والتصورات، وحتى في طبيعة التدين نفسه وطريقة المتدين في تدينه أصبح هناك صور متعددة ومتنوعة.

وهذا من أكبر عوامل ظهور التصوف البدعي كرد فعل مبالغ تجاه ما فتح الله على الأمّة من أنماط الحياة والسعة فيها.

اسمع الآن لحادثة وقعت قبل ذلك لتعرف أنّه فقه شرعي عتيق، في تاريخ ابن عساكر: لما قدم عمر بن الخطاب الشام تلقاه معاوية في موكب عظيم فلما دنا منه قال عمر: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: مع ما بلغني من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: مع ما بلغك من ذلك، قال: ولم تفعل هذا؟ قال: نحن بأرضٍ جواسيس العدوّ بها كثيرة، فيجب أن نظهر من عزّ السلطان ما يرهبهم به فإن أمرتني فعلتُ، وإن نهيتني انتهيت، فقال عمر: يا معاوية ما أسألك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضرس، لئن كان ما قلتَ حقا إنه لرأي أريب، ولئن كان

باطلاً إنه لخدعة أديب، قال: فمُرني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا آمرك ولا أنهاك، فقال بعض من كان معهم: يا أمير المؤمنين ما أحسن ما صدر الفتى عما أورَدْتَه فيه، فقال عمر: لِحُسْنِ مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه».

أقول: وُجود معاوية في أرض متاخمة للعدو جعله يغير من نمط الحكم من الخلافة إلى الملك، مع مَن؟ مع عمر، وما أدراك ما عمر، وكان هذا من فقه معاوية رضي الله عنه وتفاعله مع المتغير المكاني، فالشام غير المدينة ومكة، ففي السير للذهبي: قدم معاوية وهو أبضّ الناس وأجملهم؛ فخرج مع عمر إلى الحج، وكان عمر ينظر إليه، فيعجب، ويضع أصبعه على متنه، ثم يرفعها عن مثل الشراك (١)، فيقول: بخ بخ، نحن إذا خير الناس إن جمع لنا خير الدنيا والآخرة.

قال: يا أمير المؤمنين! سأحدثك؛ إنا بأرض الحمامات والريف.

قال عمر: «سأحدثك، ما بك إلا إلطافك نفسك بأطيب الطعام، وتصبّحك حتى تضرب الشمس مَتْنَيك (٢)، وذوو الحاجات وراء الباب».

كل هذا يراه عمر ومع هذا لم يعزله ولم ينهه، وإنما كان حريصاً على إبقاء نظره عليه ورقابته، أمّا تغير سلوك معاوية بحسب البلاد التي كان فيها فلا، فالشام كانت بلاد التجارة والتماس مع الشرق والغرب، وفيها أهل الكتاب بعاداتهم وتجاراتهم، ومنها الخمر، وفي الشام كان رجل آخر من أصحاب النّبيّ ﷺ له كذلك موقف مع معاوية رضي الله عنه، ففي التاريخ كذلك أن

---

(١) يعني أنّه كان متنعما يظهر أثر الضغط على جلده احمرارا.

(٢) يعني أنّه لا يخرج للديوان باكرا.

عبادة بن الصامت مرّت عليه جمال وهو وبالشام تحمل الخمر فقال: ما هذه؟ قيل: خمرٌ تباع لفلان، فأخذ شفرة من السّوق فقام إليها فلم يذر فيها رواية إلا بقرها، وأبو هريرة إذ ذاك بالشام فأرسل معاوية إلى أبي هريرة فقال: ألا تمسك عنا أخاك عبادة بن الصامت، أما بالغدوات فيغدوا إلى السوق فيفسد على أهل الذمّة متاجرهم، وأمّا بالعشي فيقعد بالمسجد ليس له عمل إلا شتم أعراضنا وعَيْبنا، فأمسك عنا أخاك.

فأقبل أبو هريرة يمشي حتى دخل على عبادة فقال: يا عبادة، ما لك ولمعاوية، ذَرْه وما حُمّل، قال: «يا أبو هريرة لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله ﷺ، بايعناه على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن نقول في الله لا تأخذنا في الله لومة لائم»، فلم يكلمه أبو هريرة بشيء فكتب معاوية إلى عثمان بالمدينة إنّ عبادة بن الصامت قد أفسد عليّ الشام وأهله فإمّا أن يكفّ عبادة وإما أن اخلّي بينه وبين الشام، فكتب عثمان إليه أن أرحله إلى داره من المدينة، فبعث به حتى قدم المدينة فدخل على عثمان الدار وليس فيها إلا رجل من السابقين بعينه ومن التابعين الذين أدركوا القوم متوافرين فالتفت إليه فقال: ما لنا ولك يا عبادة؟

فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ أبا القاسم يقول: «**سيلي أموركم بعدي رجال يعرفونكم ما تنكرون وينكرون عليكم ما تعرفون فلا طاعة لمن عصى**

فلا تعتلوا بربكم» فو الذي نفس عبادة بيده إن فلاناً – يعني معاوية– لمن أولئك، فما راجعه عثمان بحرف». انتهت القصة.

وسكوت عثمان هنا وقبل ذلك أبو هريرة ليس عجزاً عن جواب عبادة أو الاحتجاج عليه، فأولئك الصحابة ليسوا أقلّ فقهاً أو تقوى من عبادة، ولكنه سكوت عن الحجاج فيما لا فائدة فيه، إذ كان هذا رأياً أصرّ هو عليه، فتركه وشأنه في أن يرى ما يرى، لكن أحداً منهم لا أبو هريرة ولا عثمان قد غيّر وأنكر على معاوية سياسته تلك في الشام، وهو أميرها من قِبَل عمر قَبْل عثمان.

ففيه إضاءة جميلة وجيدة تكشف مواقف العلماء وأهل الشريعة من التغيرات الاجتماعية وغيرها وكيفية التعامل معها، وكيف الفرق بين أهل السياسة وأهل الأنماط الحدية في التدين والتمسك التي لا ضير في أن تعامل نفسها بذلك، أمّا أطر المجتمع والناس كلهم بهذا ومصادمة التحولات دون البحث عن منافذ الرخص الشرعية لا لتحليل ما حرّمه الله، كلا، وإنّما لمعرفة ما للمؤمن في الشريعة من المندوحة في التعامل والاحتواء والمشاركة والتعايش مع الواقع الذي غالبا ما يكون أقوى منه وعصياً على الاستجابة، بل ومقاوماً عنيفاً أحياناً.

وهذ الذي أقوله لا يمكن تربية الجيل عليه مالم يكن قناعةً عند ذوي الرأي والحكمة من العلماء وطلبة العلم، وأنا أعلم يقينا أن كثيرين حملوا وما زالوا نفس الفكرة، لكن الخوف من الإقصاء والهجوم والعزل يسيطر

عليهم، إضافة إلى مجاملة بعض الكبار الذين نكن لهم كل التقدير والاحترام لكنّنا نكن للحق والمصلحة تقديراً أكبر.

أمّا بعد:

فإهمال ما سبق أن ذكرته لك كان سببا للصدام ووجود الفجوة بين ما يريده الناس بمن فيهم السياسي والاقتصادي وحتى أفرادهم، وبين ما يريده أهل الدعوة في الجملة بمن فيهم العلماء والدعاة وجماهير تتبعهم في ذلك.

وبقيت هذه الفجوة تتسع ولا تجد من يملؤها لأسباب عديدة يهمنا منها هنا التركيز على النقطة التي أتحدث عنها وهي تصلب الموقف العلمي الشرعي تجاه قضايا خلافية حتى ولو كانت خلاف الراجح، بل سأتجاوز لأقول حتى لو كانت مخالفة للنص ولقطعيات شرعية في رأينا، ففي الشريعة ونصوص السنة كثير من المرونة لاحتواء تلك المخالفات وتحجيمها والسيطرة عليها تقليلاً لشرها وليس إزالتها بالضرورة.

وكانت النتيجة أن الجهة الأخرى- أعني خصوم الشريعة- قويت واستغلّت ذلك جيدا وأبرزوا العلماء والدعاة في صورة العدو لمصالح البلاد والعباد وعائقاً في تطور ومواكبة العالم، وما ظنها البعض خصوصية وميزة تحول إلى نقطة ضعف وثغرة تم تمرير الكثير والكثير من الدّخَن والتشويش

انتقل إلى الفهرس

والتعمية من خلالها إلى عقول أجيال نشأت في غير الظروف التي نشأنا فيها ونشأ فيها أولئك النفر الذين أشرنا إليهم، وجاءت الجهات الرسمية لتتدخل أخيرا وتضع نهاية لهذا الاحتقان بتمرير كل ما رأت أنّه مصلحة للناس وشرّعت الكثير مما كان محرما بالفتوى السائدة وكان الأمر بقوة القانون الذي لا مفر من الانصياع له، دون أن يجبر أحد على مخالفة قناعاته الشرعية، فهل تعلّمنا الدرس أم لا؟

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

الحالة الوطنية في المملكة السعودية

كل من يراقب الحالة الشعبية في السعودية وظهور حالة الانتماء الوطني التي أصبحت ملحوظة وبشكل مبالغ فيه في بعض المواضيع يصيبه العجب وتنتابه الحيرة خاصة أولئك الذين عاصروا وعاشوا في عقود مضت، أو الذين يعاصرون هذه الحالة من خارج البلاد ويرون ردة الفعل الشعبية ضد أي نقد ولو كان موضوعيا تجاه المملكة وقادتها أو أيا من شؤونها.

الأمر ليس سهلاً وساذجاً واعتباطياً، بل هو صادم حقا من جهتين، من جهة القوة والدافعية التي تحرّكه، ومن جهة مناقضته للحالة السابقة مناقضة تامّة، كما تناقض الحياة الموت وكما يناقض الحركة السّكون.

ولهذا تفسير يجب أن نقف عليه ونتيجة يجب أن نقيّمها، ولمزيد من الفهم لسبب هذه الحالة لابد أن نعود إلى بدايات الحراك الدعوي في المملكة منذ أوليات القرن الماضي، فقد كانت الحالة الدينية في المملكة هادئة ساكنة إلا من دروس ومواعظ العلماء الكبار في مساجدهم.

لم يكن في المملكة تنوّع فكري كما يقال، بل كانت بيئة ساذجة بسيطة غير معقدة، لم تتعرض للعصف الفكري الذي تعرضت له الشعوب في دول أخرى مجاورة لنا كمصر والشام والمغرب العربي والعراق وغيرها، وهذا يعني أنّها بيئة خصبة جداً لاستزراع الفكر الأيدولوجي أيا كان مضمونه أو توجّهه.

فخارج مجالس العلم الصغيرة المنغلقة على نفسها والتي لا تشارك من خارجها إلا حين يكون هناك طلب لفتوى أو مشاركة اجتماعية أو قضائية. كانت الساحة مهيئة والفرصة سانحة لمن أراد، وبالفعل، نشأ وفي وقت مبكر أفكار يسارية شيوعية انضم لها وانتسب عدد كبير من جيل تلك المرحلة، خاصة أولئك الذين اتصلوا بطريقة أو أخرى بالخارج سواء عبر الرحلات أو عبر وسائل الإعلام والكتاب على بساطتها تلك الأيام.

وعلى الرغم أن الشيوعية واليسارية تتناقض بشكل حاد جدا مع طبيعة التدين في نجد والقصيم والحجاز لكن صدّق أولا تصدق أنّها وجدت قبولا في عقول بعض أبناء ذلك الجيل. في غفلة وعدم دراية من الآباء والمعلمين الذين كان غاية ما يرون من مظاهر البعد عن الدين هو شرب الدخان أو استماع الموسيقى.

ثم تأسست جماعات الدعوة الإسلامية كالإخوان في مصر وغيرها فيها وفي الشام وذلك عقب سقوط الدولة العثمانية ووجود الاستعمار في بعض البلاد المسلمة وكان تأسيسها يومها تحت شعار استعادة الخلافة الإسلامية التي مثلها في تصورهم الدولة العثمانية.

وبدعم غربي خفي ومكر كبير توسعت أنشطة هذه الجماعات وبدأت بغزو الدول الأخرى، وكان من أهم الساحات التي قصدوها أرض هذه البلاد التي كانت مغنما كبيراً طمحوا إليه بشدّة، لسببين: أما الأول: فهو ما أشرنا إليه من خلو الذهنية العربية السعودية من الأفكار والأيدلوجيات السابقة التي يُخشى أن تكون منافرة لهذا الوافد الجديد.

انتقل إلى الفهرس

والسبب الآخر: أن طبيعة الناس في السعودية طبيعة تميل إلى التديّن بشكل حقيقي، خاصة في نجد والقصيم وهما مركز الثقل الديني، وهذا يعني اختصار الوقت والجهد في تطويع الناس للفكر الجديد وسهولة انتسابهم إليه.

وأنت ترى أن اليسارية والعلمانية والحداثة والشيوعية كلها مجتمعة كانت تحارب في الساحة وكادت تسيطر في زمنٍ مّا على مراكز الثقافة في الجامعات، وبدا تيار متشبع بتلك الأفكار وجيل مستعد لتقبلها ينشا ويمد جذوره في الأرض.

ولما جاء رؤوس جماعة الإخوان أول مرة في عهد الملك عبدالعزيز وطلبوا أن يكون لهم مكتب رسمي في المملكة، رُفض هذ من قبل الملك الرّشيد رحمه الله، ولكنهم لم ييأسوا، بل تسللوا من خلال المجلات والكتب، حتى جاء عهد الملك فيصل وحدث الصدام مع عبدالناصر وفرّ الإخوان وغيرهم من جحيم اليساري البعثي عبدالناصر إلى الإسلامي فيصل بن عبدالعزيز، في وقت كانت النهضة التعليمية في المملكة في شدّة انبعاثها، فملأ الإخوان السهل والجبل، وتسللوا إلى كلّ منصب أو ثغر استطاعوا، بل أُسّست جمعيات وجامعات هدفها مضادّة الفكر الناصري الذي بدأ يظهر على السطح في حقبة سابقة في صفحات الجرائد والمجلات والمذياع والتلفاز، وإن كان بشكل حذر خشية سطوة العلماء والمؤسسة الدينية.

هذا التيار الإسلامي التنظيمي الذي اكتسب دعماً من المؤسسة الدينية لأنّه قدّم نفسه منافحاً عن الإسلام والسنة وتم الدفاع عنه في كلّ محفل حتى

من علماء كبار لهم مكانتهم عند وليّ الأمر، ثم في وقت لاحق جاء جيل لاحق من عمق البيئة السعودية نفسها يلبس البشت والشماغ معتقداً نفس العقائد التي يتبناها المشايخ الكبار ويدرّس نفس المتون التي يدرّسونها فزادت الرقعة اتساعاً وانتشر نتاج هذا الجيل في كل مكان، ووصل إلى القرى البعيدة بعد أن ملأ المدن الكبيرة، كلّ هذا في غفلة عن حقيقة ما يبطنه الكبار الذين يوجّهونه.

أقول: إن هذا التيار الديني وذلك التيار اللاديني -بكل ألوانه وأطيافه- رغم تناقض أتباعهما إلا أنّهم يجمعهم فكرة واحدة يتفقان عليها ويجمع كل من ينتمي إليهم على خطورتها وضرورة تدميرها وحرقها في نفوس السعوديين، لأنّ تأثيرها يحدّ وقد يمنع استمرارية الاتجاهات الأيدولوجية المتناقضة.

هذه الفكرة هي فكرة الوطنيّة، فالاشتراكية والماركسية وكل التيارات الفكرية التي تتسامق معها كما نعلم كانت لها دولة راعية لها وتحتها كذلك دول أصغر فرعية ترعى أفراد هذا الفكر وتدعمهم مالياً وسياسياً، ولابدّ لهم من الولاء لها ولأيّ دولة أو حزب يحمل نفس الأفكار.

وكذلك التنظيمات الإسلامية من إخوان وغيرها لا يمكن أن يتم لهم مرادهم من السيطرة على الأفراد إلا بقطع الصلة بينهم وبين الأنظمة والأسر الحاكمة لبلدانهم.

كان من السهل على الماركسيين أن يقنعوا أفرادهم من السعوديين بفكرة الولاء للخارج لأنّ من قطع صلته بالله ودينه سهُل أن يفعل ذلك مع ولاة أمره ودولته التي ينتمي إليها.

لكن كان من الصعب على الفرد المنتمي للتنظيم الإسلامي القناعة بفكرة القطيعة مع دولتهم وحكامهم، إذ كيف يشرحون له ضرورة ذلك مع أنّ ظاهر تلك الجماعات إقامة الدين ونشر الدعوة؟

ومن هنا نشأت فكرة شيطنة الوطن والوطنية، وأنها فكرة علمانية ماسونية، وأنّ الأمة واحدة، وأن الولاء لله ورسوله ودينه وأنّ الأخوّة أخوّة الإيمان، واستُكْتِب بعض العلماء الكبار حتى قيل إنّ الوطن وثنٌ يُعبد من دون الله، وأنّ الوطنية كفر بالله ودينه.

كان هذا مرحلة أوّليّة للجمهور العريض، لكن بقي أفراد يحتاجون إلى جرعة زائدة لتحقيق هذه القطيعة، فتم إبراز فكرة الحكم بغير ما أنزل الله، وبناء عليه قُطعت الصّلة مع عامّة الدول التي تحكم بالقانون الوضعي، ومع ذلك مازالت المملكة حالةً خاصة تحتاج إلى مزيد من الضغط العاطفي والفكري، فجاءت حرب أفغانستان ومن قبلها أيّ حدث يتعرض فيه المسلمون جماعات أو افراد للظلم في أي بلد لتتم المناداة بالأخوّة الإسلامية ومن لم يهتمّ بأمر المسلمين فليس منهم، وأنّ الانتماء للأوطان فكرة سخيفة تدلّ على نقص الدين أو نقص العقل، وبدأت فكرة الوطنية تنتقل إلى حيّز أضيق من الاحتقار والتسفيه، وهذا كلّه عشناه ومُورس علينا، ففكرة

الاهتمام بالمسلمين أصبحت مترجمة إلى إهمال الأهل والولد والوطن، وفكرة أخوّة الدين أصبحت مترجمة إلى القطيعة مع الأهل والعشيرة والوطن.

عشنا ردحاً من الزمن يستحي الشاب أن يباهي أو على الأقل يدافع عن السعودية كوطن أو عن ولاة أمره، رغم أني شهدت بنفسي زملاء من كل الدول ما إن تنتقد وضعاً فيه بلادهم إلا وانتفضوا مدافعين ومسوّغين ومعتذرين.

كان السعودي [1] وحْده من يجب أن يتحمل هذه الأخوّة فيضحّي من أجلها بماله ونفسه وأهله ووطنه.

رأينا بأمّ أعيننا من يفضّل أيّ جنسية أخرى غير ابن بلده يقدّمهم في كل شيء حتى بالتبرع، يقدمون المال والتبرعات لعامل الشارع الآسيوي لكنه لا يمدّ يده ابداً لابن بلده إلاّ قليلاً، لأنه يريد أن يظهر أخوّة الدين أما أخوّة الوطن فهي عنده إما كفر أو على الأقلّ في غيهب النسيان.

وهذا الذي وقع من كثير من الناس نتيجة طبيعية لعشرات السنين من التربية في مناهج التعليم عن أخوّة الدين وجعلها مناقضة لأخوّة الوطن ولا تجامعها في قلب مسلم.

كان السعودي مأموراً على لسان رموز الإخوان والسرورية أن يتخلّى عن كل شيء لصالح أخوّة الدين التي اكتشفنا فيما بعد أنّها أخوّة الحزب والجماعة والمال والنساء والتسلّط.

---

(١) شاركنا في هذه الخليجيون وإن كان بنسبة اقل قليلا.

وكان من السّهل على رموز هذا الفكر غسل أدمغة الجيل لأنّ العاطفة الدينية التي هيّجوها في نفوسهم كانت عاطفةً عمياء لا بصيرة لها ولا عقل، فسهل عليهم شيطنة الوطن وشيطنة كل من يهمه أمر الوطن وتكفيره واستباحة دمه وعرضه وماله.

في خضم تلك الحقبة التي تحدثنا عنها عاشت جماهير كبيرة أيضا ليست متدينة وإنما تعيش دينها الاجتماعي في مستواه الشعبي، ليست مؤدلجة ولا لها تطلعات حزبية لكنها عاشت مع حيرة الانتماء، محبة الوطن والولاء له ولمن يقوده مع فتاوى ومقالات تجرّم هذا الانتماء والولاء وتجعل من يصرح به مكبوتاً في كل المجالس ومشاراً إليه بالجهل بالدين.

بَنَت تلك الجماعة مشروعها العابر للحدود على أهداف بعيدة المدى صبرت عليها سنوات طويلة وكان لديها من المخزون البشري المتعاطف فضلاً عن المنتسب ما حقّق لها القدرة على قلب الأوضاع في عدد من الدول فيما سُمّي بالربيع العربي، وتطلّعت نفوسهم واشرأبت أعناقهم إلى المملكة السعودية التي كانت بفضل الله الرصيف الذي كسر أمواجهم وشتت شملهم.

ولعلّ في ذلك من الخير لنا ولكافّة الدول العربية التي لولا الله لكانت هذه الجماعات التي طوّعها الغرب وجعل منها أداة للاستيلاء على ثرواتها وهدمها على رؤرس من فيها.

نعود الآن لتفسير الظاهرة التي أشرنا إليها، وسببها، هو ذلك الكبت الذي مرّ عليه عقود شبّ عليه فيها الصغير وهرم الكبير، الكبت الذي

مارسته الجماعات العابرة للحدود حتى يتمّ لها ما أرادته من تسخير الجموع في تنفيذ مشاريعها الاستعمارية التي تتعاون فيها مع دول الغرب أو الشرق.

في عاصفة ما سُمّي بالربيع العربي أفقنا من غفلتنا على كابوس وكارثة تجتاح العالم العربي، رأينا بأم أعيننا الجموع تُساق بغير وعي في حراك نتيجته الطبيعية هدم الدول والكيانات، كثيرٌ من هؤلاء لم يكن يهمّه فكرة الوطن، تَمّ سحقها في نفسه من قِبَل التيارات اليسارية والغربية الليبرالية وغيرها تحت شعار الحقوق والكرامة والحريات المدنية، ومن قِبَل التيارات الدينية تحت شعار الأمة الواحدة.

رأينا ما حلّ بالدول التي استسلمت لهذا الحراك وكيف أصبحت ثرواتها منهوبة ومستقبل أبنائها مرهون بجماعات وتيارات مرتبطة بالخارج.

وبطبيعة الحال هبّ من داخل المملكة أفراد وجماعات كانت فاعلة في تلك التحركات دعماً للدول التي تحرّكت فيها الفوضى وتمهيداً لنقل التجربة إلى الداخل، ثم حدثت نكستها بفضل الله ثم بفضل الحنكة والسياسة التي متع بها قادة هذه البلاد.

ومنذ ذلك الحين اتخذت الدول إجراءات علاجية أرى أنّ المملكة كانت التجربة الأكثر وضوحاً ونجاحاً ساعدها على ذلك عوامل اقتصادية واجتماعية ليس هذا محل شرحها.

وكان مجيء الملك سلمان ووليّ عهده الأمير محمد طوق النجاة الذي أنقذ الله به هذه البلاد من الانجراف، وكان من أهمّ ما تم في نظري هو إعادة حبل الوصل الذي قطعته الأيدولوجيا بين الوطن بمفهومه السياسي والاجتماعي

والعاطفي وبين الفرد السعودي، إجراءات كثيرة تمت في خضم رؤية المملكة ٢٠٣٠ كانت هذه سمتها البارزة، وساعد في ذلك ما لمسه المواطن من تغيرات في طبيعة نمط الحكم وتطبيق القانون وحوكمة وهيكلة الاقتصاد والكيانات العاملة في الدولة، أشياء كثيرة جعلت إحساس المواطن بوطنيّته كبيراً وفخماً وعظيماً.

التجربة السعودية الحالية فريدة، دعني أعطيك مثالاً، في عمري كلّه لم أتوقف يوماً عند أيّ تشكيل وزاريّ، كان الوزراء يأتون ويذهبون وبعضهم لا يذهب إلاّ بالموت، ولكنّي لم أعلم عن أحدهم شيئا، ولا أعلم كيف ولا أين يدير وزارته. في الحقيقة هذا كان يمثل عامل انفصال بين الجمهور وبين الطبقة التي تحكم.

في العهد الجديد يعرف الصغار قبل الكبار أسماء الوزراء، بل ويعرف كيف يديرون وزاراتهم، وأصبحنا نعرف ما يدور بينهم وبين القيادة، خرج كلّ وزير في لقاءات متلفزة مطوّلة يتحدثون عن تفاصيل يسمعها المواطن لأوّل مرة، عن مشاكل وعقبات كيف تم تجاوزها، عن مشاريع وإنجازات كيف تم تحقيقها، كل ذلك بشفافية ومصداقية تؤكدها معطيات الواقع.

في العهود السابقة كنا نسمع سبّ المملكة وشتمها وانتقاصها في كل مكان، وكان المواطن يسمع هذا أحيانا فلا يجد ما يرد به على القائل لأنه صدقاً لا يعرف إن كان حقيقة أو كذباً.

كان اسم المملكة يتردد في المحافل الدولية مقترناً بالإرهاب ومنع الحقوق والعدوان والتخلف الحضاري.

في العهد الجديد أصبح اسم المملكة يتردّد صداه في كل مكان مقترناً بالتطور والتقدم والتميز حتى على دول غربية تُسمى العالم الأول.

أصبح قرار المملكة في أيّ شأن سياسي أو اقتصادي أو حتى رياضي مؤثراً على العالم كله، أصبح اسمها معلوماً وموقعها معروفاً للناس في القارات الخمس بفضل سياسة الانفتاح والتوسع التي رسمتها الرؤية.

في العقود الماضية كان الاحتفال باليوم الوطني مناسبة سنوية لموجة التحقير والسخرية بالوطن ومنجزاته وفضله.. كانت عبارة "ماذا قدّم لك الوطن"عبارة تتكرر وتبرز في وجه المحتفِل، لم يكن الخطاب شرعياً بمعنى "حكم الاحتفال ؟" بل كان الخطاب تحقيرياً وغَمْطا للوطن وبخساً لولاة الأمور فضلهم لتكريس حالة القطيعة بين المواطن والوطن الذي قدم له كل شيء.

في العهد الجديد تعمل الآلة الإعلامية والأقلام الواعية لإعادة الصورة الحقيقية للوطن في نفس المواطن ومسح الغبار الذي تراكم على تلك الصورة فأخفت معالمه وشوّهتها وهبطت بقيمتها في نفوس الناس.

كل هذا الزخم أعاد الوطن والانتماء للوطن إلى موقعه الطبيعي في ذهن الجيل الجديد وبقايا الجيل القديم، إلاّ شراذم من عُمْي البصائر ما زالت أعينهم لا تطيق رؤية شمس الحقيقة.

والمقارنة بين الحالة القديمة والحالة الجديدة تفسّر هذا التحفّز وتلك الدافعية المفعمة والجارفة لدى السعوديين للدفاع عن بلادهم وقادتهم مهما قيل ومهما ادّعى المدّعون أو مهما كان العتب في بعض الأحيان على قرارات

أو تصرّفات لا يرضونها إلاّ أنّ قيمة واحدة انضمت إلى القيم الأخرى في تشكيل خطوط السعوديين الحمراء: الدين، الملك، الوطن.

لن يستمع لك السعودي جرحاً أو قدحاً أو تطاولاً بل ولا مساساً بوطنه أو قيادته، لقد أدرك السعوديون أنّهم عزيزون، أقوياء، عظماء، مميزون، محسودون، مغبوطون، ما داموا واصلين لوطنهم وممسكين بيد قيادتهم وجماعتهم، يد الله معهم.

وأنهم مهما تخلّوا عن هذا الانتماء فإنّ مصيرهم التمزيق والتشريد والذّلة والمهانة، ووالله لن يقف معهم أحد ولن يمدّ لهم يده أحد حتى أولئك الذين مدّوا لهم يدهم وبذلوا لهم أرواحهم وأموالهم بدافع الأخوّة الدينية ثم شاهدوا بأم أعينهم الحقد والشماتة والحسد في كل مرة تتعرض له المملكة لعدوان أو هزة.

لا تتعجبوا من اندفاع السعودي في الدفاع عن وطنه بلسانه وقلمه ويده وسنانه، لأنّه أخيراً عرف مكركم وعرف خُبْثكم وعرف أنّكم تقطعون ما أمر الله به أن يُوصل، وأنّ أيّ قدح أو هجوم على بلاده وولاة أمره هو هجوم عليه شخصيا.

بالله عليكم لا تثيروا ضحكنا عندما يقول أحدكم "أنا لا أتحدث عن الشعب السعودي وإنما عن حكام المملكة" فهذه العبارة التي طالما لعبتم بها على مشاعر الشعوب وشكّلت باباً تنفذون منه إلى العبث والإفساد والتحريش لم تعد تمرّ علينا، فالسعودي هذه المرحلة لا يجد ولا يرى ولا يحسّ بفرق بين ذاته وبين أيّ مسؤول في الدولة فضلاً عن قيادته العلياء

وولاة أمره، فالقدح والعداء لهم هو عداء سافر ومكشوف لكل سعودي بحق أو بباطل.

كل مشاعر الخجل والانزواء التي كانت تصيب بعض السعوديين حين التحدث عن بلادهم وقادتهم انقلبت الآن إلى مشاعر فخر واعتزاز في كل محفل ديني أو دنيوي.

أصبح الانتماء للسعودية مغنماً لكل شخص على وجه الأرض مما يرى من كرامة السعودي وقوته واعتزازه بنفسه وبلاده.

ولهذا فعلى كلّ من يحاول الكلام في شأن سعوديّ بدءا من ولاة الأمر وانتهاء بأبسط من يعيش على هذه الأرض بل حتى الشجر والحجر والحيوان؛ عليه أن يفكّر ألف مرّة وأن يحسب حساب كل كلمة ينبس بها لأنّ الجماهيرية الطاغية من السعوديين ومن شعوب كثيرة تحبّهم وتتعاطف معهم لن ترحمهم.

لم يعد السّفيه ولا قليل الأدب يستغلّ أدب السعوديين وتربيتهم بالطعن فيهم مرتكزا على أنّ السعوديين شعب مؤدب وخلوق ومتسامح، ذلك الزمن ولّى، وأصبح لسان حالهم:

ألا لا يجهلن أحد علينا... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

من يحترم السعودية سيجد من السعوديين كل الاحترام، ومن يتطاول أو يعتدي سيجد رداً مضاعفا تأديبا له وردعا لغيره.

أخيرا: وقد عرفنا تفسير الحالة ونتيجتها هل يمكن أن نقول إنّ هذه حالة إيجابية أو سلبية؟

الحقيقة أنّ مثل هذه الظواهر لا تتأثر بالتقييم لأنها حالة انفعالية لها أسبابها وكثير منها ردّات فعل تساوي قوة السبب الذي حرّكها، ولهذا يصبح الحكم عليها سلباً أو إيجابا غير ذي جدوى.

وهذه الحالة ليست فردية أو راجعة إلى جماعة محدّدة النمط يمكن توصيفها ومن ثم توجيهها، بل هي حالة جمهور مختلف الطبقة والتعليم والفكر والتوجه لكنه يتفق في الفكرة ويتبناها لسبب أو آخر.

ولهذا لا ينبغي مهاجمة الحالة كون بعض مخرجاتها يكون مبالغاً فيه وخارجاً عن حدود الشرع أو الأدب والأخلاق، بل وحتى القانون. فالحالة نفسها استجابة طبيعية كما قلنا.

وما يصدر من خطأ يوصف مجرداً عنها. حتى لا نؤثر على الإيجابية التي فيها، ولهذا شواهد حتى من تصرفات الشريعة.

على العقلاء وذوي الرأي تشجيع العاطفة بإيجابية وعدم مواجهة الحالة بالإنكار أو التسخيف لأنّها لا عقل لها أصلاً، مع التوجيه غير المباشر على الخطأ إن حصل من أفراد أو قطاعات داخل الحالة.

وقد رأينا بعض الأحداث التي أدّى فيها الإنكار على الحالة كلّها إلى مزيدٍ من الإصرار والعناد.

وهذه القمّة والصعود في رأيي مؤقتة سببها القاع الذي عاشه الجيل في عقود مضت من الإنكار والكبت في الانتماء، وبعد فترة سيعود الوضع طبيعياً بإذن الله وسيكون تحقيق الانتماء لهذا الوطن بالعمل واكتساب المعرفة وتحقيق المنجزات التي حدّدتها الرؤية فهذا هو الانتماء في جوهره.

انتقل إلى الفهرس

بقي سؤال لاشك أنه طرأ وألح في عقول البعض وهو ماذا عن الفتوى بأن الوطنية كفر أو بدعة؟ سنناقش هذا في مقال لاحق إن شاء الله. والسلام.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

الوطنية!

ربما يصدم المرء إذا قيل إنّ الوطن قبل الدّين، وهذا بسبب تصور قائم في الذهن يفترض التضاد المطلق بين الفكرتين أو المبدأين.. ولو تأمّل عرف غلط هذا التصور، فهذا التقديم ليس ترتيباً حسب الأهمية، وإنما حسب الاشتراط الوجودي أو التكويني، فعندما نقول: "الطهارة قبل الصلاة" ليس لأن الطهارة أهم من الصلاة بل لأنّها شرط صحتها..

بطبيعة الحال أردت بهذا العنوان إعادة مفهوم "الوطن" الذي يعيش فيه المسلم إلى دائرة الاهتمام في برنامج الداعية و العالم بل وكل مسلم، وإلاّ ففي الأمر تفصيلات كثيرة وصور عديدة، فمراتب الدين ليست واحدة، والأوطان كذلك ليست واحدة، والعامل الزماني والمكاني كذلك له أثره على معادلة الدين أو الوطن أو كليهما.

الوطنية ومفهوم الانتماء للوطن كان محل استهداف من رموز الصحوة بشكل عام، فلدى الفكر "الصّحوي" في مجمل تشكلاته افتراض التضاد المطلق بين الانتماء إلى الوطن وبين الانتماء إلى الدين والولاء له..

وأصبح المقبل على الدين خاصة من الشباب المتحمس لا يحمل في قلبه أي انتماء إلى الوطن الذي يعيش فيه وتربى على أرضه وخضع لقيادته السياسية.. بل تطلعه دائم إلى الأمّة لا بمفهومها الإيماني الوجداني فهذا لا خلاف فيه، وإنّما بمفهومها السياسي الولائي..

وهذا رسخته الجماعة الأم – كما تسمي نفسها- هذه الجماعة التي تحمل تناقضات وتشوهات فكرية علمية لا حدود لها.. هذا واحد من أخطرها..

لأنّ هذا الذي ذكرناه من افتراض التناقض لم ينتج عنه فقط إهمال الولاء للوطن بمفهومه بل تجاوز إلى افتراض العداوة بين المتدين وبين مكونات الوطن السياسية والعسكرية بل وحتى المجتمع نفسه، بعد أن تم ترسيخ مفهوم جاهلية المجتمعات الإسلامية بإطلاق..

الوطن.. وما أدراك ما الوطن، ملايين البشر يعيشون على أرض تجمعهم وحدة سياسية اسمها الدولة، يحكمها نظام ما، بغض النظر عن اسمه أو نوعه أو حتّى ديانته.

قبل فترة كنت في أسير في أحد الطرق السريعة الحديثة في جنوب المملكة، مئات الكيلومترات..وعلى جانبي هذا الطريق تتناثر القرى والمدن الصغيرة التي وصلتها هذه الطرق الضخمة والفخمة، ووصلتها الكهرباء والمياه والاتصالات بأنواعها والمدارس والمستشفيات..

وذهبت في تفكير عميق أحسب حجم التكلفة لهذا الذي أراه، كم بُذل فيه من الأموال والأعمار والمجهودات لسنوات طويلة تفوق الخمسين فيما عاصرته أنا دعك عمّا قبلي بعقود.. تُرى هل يدرك كل من غرّرت به هذه الجماعات كم هي قيمة هذه المنجزات؟!

وأهمّ من هذا كله ما تعيشه الجموع والكتل البشرية الضخمة على هذه الأرض مِن أَمْن واستقرار.. وهدوء، ووفرة المأكل والمشرب، وسائر النعم..

كلّ هذا الذي أراه ويراه غيري، لا يحسب له المنتمون للفكر المتأخون أي حساب..

ويرون أنّه كله ليس لله، وأنّه ثمن زهيد لأجل إقامة مشروع الخلافة والأمة المزعوم على أيديهم ووفق تصوراتهم..

وإذا عرفنا كم استغرق بناء هذه الدولة ومنشآتها، فكم يا ترى يستغرق من الزمن هدم الأبنية وقطع الطرقات وكسر الجسور وفقدان الأمن والاستقرار وكل ما ذكرته؟ أظن تجارب الدول حولنا كفيلة بالجواب..

ليس بيننا وبين الخوف والجوع والتشريد إلاّ أن نستجيب لدعوات الثورة والكرامة والحقوق الدستورية المزعومة.. التي نعق بها الإخوان في كل منبر وباستعمال أصوات كثيرة بعضهم صريح الانتماء لهم وبعضهم من أربّائهم اللذين في حجورهم!

أعود مرة أخرى للوطن.. أحببتَ أم كرهتَ، فالوطن قيمة عظيمة جدا..

الشريعة والسيرة يؤكدان ذلك.. لأنّ الدين والشريعة أصلاً لا يمكن أن يكون لهما وجود أو نماء أو كيان دون وطن، ولهذا كان جهد النبي ﷺ في هذا الاتجاه واضحا، البحث عن أرض، لا أقول ليطبق فيها الشريعة وحكم الله كما يفهمه المعاصرون، وإنّما كان يبحث عن أرض تُضمن فيها حرية الدعوة دون مضايقة..

عن ابن شهاب، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف قوم

لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤوه ويمنعوه، ويقول: «**لا أُكرِهُ أحدا منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كَرِهَ لم أُكْرِهْه**، إنما أريد أن تحرزوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي وحتى يقضي الله عز وجل لي ولمن صحبني بما شاء الله».

ولا أريد التعمق في أهداف ومقاصد تأسيس الدولة لأن في هذا كلاما طويلا لا يحتمله المقام.

إنّما أردت بيان كم هو مهم أن يكون للمرء وطن مستقر آمن، حتى لو كان مقصوده إقامة دولة الخلافة، لا يمكن أن يتحقق هذا أصلاً دون وطن آمن مستقر ولولم يكن هذا الوطن إسلامياً شرعياً في تصوره، فهو قيمة كبرى يجب أن يساهم ويسهم بكل ما أوتي في أمنه واستقراره، لأنّه إن كان داعية يريد نشر دين الله فلن يكون هذا إلا في بيئة الأمن والاستقرار، ثمّ بعد ذلك يمكن أن تؤتي أيّ دعوة ثمارها..

لذلك لا تعجب عندما تلتقي مصالح خصوم الإسلام مع هؤلاء الزاعمين نَصْره بهذا الفهم المنكوس، فقد رأينا كيف أعانت أمريكا ودول الغرب دعاة الثورة والفوضى، ليس فقط لأجل نهب ثروات البلاد المستهدفة، بل الأعمق من ذلك، معرفتها أنّ المكاسب التي حققتها الدعوة عبر عقود على يد طلبة العلم والعلماء الكبار ومؤسسات الدول الإسلامية من هيئات ومدارس وجامعات، كل ذلك لن يمكن تدميره وإعاقته إلا بخلق الفوضى والدمار في تلك البلاد، وعلى يد من؟ على يد من ينتسب للدعوة والجهاد والشريعة! مفارقة مستعصية على الفهم السليم.

في بيئة الخوف والجوع لن يكون هناك وقت للتفكير في الدين أو التمسك أو تطوير الدعوة ونشرها.. بل على العكس تصبح هذه المجتمعات المدمرة بيئة خصبة لأفكار الإلحاد والشذوذ الناتجة أصلا عن مشاعر الخوف والقلق والتوتر بسبب حالة المجهولية التي تكتنف كل مناحي الحياة..

وسأعطيك دليلين من واقع سيرة النّبيّ ﷺ تبين كم هي مهمة قيمة الأمن للداعية الصادق قبل كلّ أحد.

الحديبية

في الحديبية سار النّبيّ ﷺ بألف وأربعمئة تقريباً من أصحابه إلى مكة يريد العمرة، كانوا في قمة الشوق إلى مكة، وقد وعدهم النّبيّ ﷺ بذلك، وأخبرهم بأنّهم سيعتمرون، وهو الصادق المصدوق، ولم يحمل الصحابة معهم إلاّ سلاح الراكب كما يقال، أي أنّهم غير متوجهين لقتال أهل مكة ومن معهم من العرب، وكان بإمكانه ﷺ وهو المؤيد من ربه بالحق، وبالملائكة، لو أراد أن تكون ملحمة، لجعلها كذلك، لكن الذي حدث العكس، فمازال في الحديبية يستقبل موفدي قريش واحداً بعد آخر ويقول لأصحابه: «**والذي نفس محمد بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلاّ أعطيتهم إياها**» قال بعض أهل العلم: مقصوده بحرمات الله ترك القتال في الحرم، والجنوح إلى المسالمة، والكف عن إراقة الدماء، ولهذا ما إن جاء سهيل بن عمرو إلاّ وافقه النّبيّ ﷺ في كلّ ما قال، حتى في تلك الشروط المجحفة، حتى قبل ﷺ أن يمحو عن اسمه لقب الرسالة، وآثر الصلح الّذي كان ظاهره ضدّ مصلحة المسلمين، مما أثار حفيظة البعض كعمر بن الخطاب

رضي الله عنه، ومع ذلك فإنّ القرآن نزل مسمياً ذلك الصلح فتحاً، وهكذا كان حقاً وصدقاً، فتحٌ لم تُرق فيه قطرة دم واحدة، كسبت فيه الدعوة الإسلامية مكاسب لا حصر لها، وتحققت لها أهداف عظيمة بلا قتال، لم يجعل النّبيّ ﷺ الغيظ والرغبة في النيل من قريش مانعاً من التفاوض معها وإعطائها بعض ما تريد، لتحقيق مكاسب للدعوة في ظل أمن وأمان الجزيرة العربية بمن فيها.

قال الإمام التابعي محمد بن مسلم بن شهاب الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئا، إلا دخل فيه، **ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر**».

ويعقب عليه ابن هشام صاحب السيرة رحمه الله فيقول: «والدليل على قول الزهري، أن رسول الله – ﷺ – خرج إلى الحديبية، في ألف وأربعمائة.. **ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف**».

ورجع إلى المدينة مظفراً، ولم يمر على الأمر سنوات معدودة إلاّ فتح الله له مكة، وعندما استتبّ له الأمر، وأصبح في إمكانه أن يشفي صدور المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم تأمّل في حاله وحال الأمر الّذي أُرسل به، وعرف أنّ العفو يحقق له وللأمر الذي أُرسل به أكثر مما يحققه الانتقام، فقال لأهل مكة: اذهبوا فأنتم الطلقاء، فترك حظوظ النفس وأبطلها في سبيل

الهدف الأسمى والأعلى، وهو أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً.. وهذا ما كان.

في أيّ موقف يمكن أن يتقي فيه النّبيّ ﷺ القتال كان يتّقيه، رغم إنّه ﷺ قائد الدولة السياسي وتحت إمرته الجيوش، ولم يأخذ الأمر بالعزة والأنفة، أو بالعاطفة الروحية واستصحاب معية الملائكة، وإنّما نظر نظرة مصلحية مقاصدية.

حديث خباب

في حديث خباب بن الأرت –رضي الله عنه– عن النّبيّ –ﷺ– أنّه قال: «والله ليُتِمّنّ اللهُ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله أو الذئب على غنمه».

هذا الحديث العجيب تحدث فيه الجميع وغرف كلّ متكلم ومتخصص منه في إنائه؛ إذ فيه إشارات عجيبة، وتربية جادة، وإصرار على النجاح، وبشارة من الله تعالى بنصر نبيه ومن معه، لكن أهمّ ما شدّني فيه هو الجزء الذي أوردته أعلاه، لا من حيث صدق نبوءته ﷺ، ولا من حيث ثقته بالله، وإنّما من حيث إشارته القوية الّتي ربط فيها تمام الدين بنعمة الأمن.

لم يجعل غاية تمام الدين أن يصلي الناس في المساجد، ولا أن يكون الحكم والسلطان في أيدٍ إسلامية، ولا غير ذلك مما يسعى كثير من الدعاة أفراداً وجماعات إلى بلوغه وتحقيقه بأي ثمن، بل جعل ارتباط تمام الدين بوجود الأمن، الذي يبلغ فيه الأمر أن يسير المسافر مسافات شاسعة لا يخشى قاطع

طريق، ولا لصاً، ولا حواجز أمنية، ولا غير ذلك من الظواهر التي تؤشر على فقدان الأمن.

ربما يربط البعض المسألة بأن التزام شرائع الدين سبب في الأمن، وأنا أقول: إنّ هذا المعنى وإن كان صحيحاً بلا مرية، لكن من المهم أن نأخذ العبرة مقلوبة، وهي أنّ أي عمل دعوي أو إصلاحي يؤدي إلى اختلال الأمن ونشر الخوف فإنّه عمل مدخول كلياً أو جزئياً؛ إذ هو يتناقض مع غاية عظمى إن لم تكن الأعظم من الدين والدعوة إليه.

الأمن نعمة يجب أن يحرص عليها الدعاة، حتى وإن كان المستفيد منها جميع الناس بمن فيهم الكفار، بل ولو افترضنا أنه سيستفيد منها دعاة إلى الباطل، أعني أنّ على الدعاة إلى الله بشتى أنواعهم أن يحرصوا على أي نظام يحقق الأمن بجوانبه المتعدّدة، وأن يتعاونوا على تحقيقه والمحافظة عليه، ولو مع من يتناقضون معهم ديناً أو فكراً أو فقهاً، ما دام هذا النظام يكفل ممارسة الشعائر الإسلامية وحرية تعليمه والدعوة إليه ولو في حدّه الأدنى؛ إذ لدينا يقين لا يتزعزع أنّ عناصر القوة في الإسلام هي حججه وبراهينه العقلية التي خاطب بها العقل البشري، وهذه الحجج والبراهين تسوق الناس إلى الدين سوقاً، وتأطرهم عليه أطراً إلاّ الشواذ منهم، وهذه الدعوة العقلية الشرعية تحتاج إلى جوّ من الطمأنينة والأمن لتعمل عملها، وأكبر مستفيد من حالة الأمن هي الدعوة الإسلامية؛ ففي حالة تكافؤ الفرص لا يوجد دعوة تحقق من المكاسب الشعبية والنخبوية مثلها، ولا يدانيها في ذلك أحد.

بل حتى مع فرض وجود حالة من الظلم السياسي أو غيره فإن الدعوة تسير سيرها وتقطف ثمارها، ولهذا نهت الشريعة عن المعارضات السياسية التي تؤدي إلى حمل السلاح أو زعزعة الأمن، وأمرت بالصبر على الظلم السياسي لا حفاظاً على كراسي الظلمة وتعاوناً مع الطغاة -كما يعبر البعض- وإنّما لما يؤدي إليه ذلك من إحداث حالة الفوضى والإخلال بالأمن، وهي حالة ترتكس الدعوة فيها إلى أدنى مستوياتها، فضلاً عما فيها من الفتنة والهرج.

النظام السياسي الذي يحكم بغير شرع الله؛ سواء كان مسلماً أم غير مسلم إذا كان يحقق الأمن، ويعطي الفرصة والحرية في ممارسة الدين والدعوة إليه لا يجوز اختراق أمنه أو زعزعته حتى تحت مسمى الجهاد وفتح البلاد؛ فالدعوة الإسلامية قد تحقق من المكاسب في ظل مثل هذا النظام مثل ما يحققه السيف أو أكثر دون إراقة دم وضياع وقت وأموال غالية.

ولهذا لا عجب أن بلاداً كثيرة لم يضطر المسلمون إلى فتحها عسكرياً؛ إذ قبلت فيها الدعوة الإسلامية، حتى انتشر الإسلام فيها سلماً بلا قتال.

بعيدا عن خيالات المارقين من السنة والعلم الذين أضاعوا بلاد المسلمين وأدخلوها في نفق المجهول وجعلوها نهبة لكل سارق من الأعداء.

أولئك الذين يؤسسون مذاهبهم وتصوراتهم وفق الاستثناء وليس الأصل، وفق العاطفة دون العقل، وبعيدا عن الفقه وحتى أصول العقيدة السلفية عقيدة أهل السنّة.

وإذا وقع التعارض بين تحكيم الشريعة وبين الحفاظ على الجماعة والدولة وهما مكوّن الوطن فالوطن أولاً.. لأنّه بلاه لا يكون دينٌ ولا شريعة اصلاً.

وإذا رجعت إلى دعوة النّبيّ ﷺ سترى أنّه ﷺ رغم كل المضايقات التي وجدها من قريش هو وأصحابه، لم يخرج أو يهاجر إلى لا شيء، بل مكث في مكة يقاسي ويتحمل ويصابر حتى هيأ الله له تعالى الوطن البديل، وكان ذلك بتدبير من الله تعالى، وقد قال لهم مرة: «**قد أُرِيتُ دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين**»، وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة، وتجهز أبو بكر مهاجرا، فقال له رسول الله ﷺ: **على رسلك، فإني أرجو أن يُؤذَن لي**، قال أبو بكر: هل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: **نعم**».

والذين هاجروا من أصحابه إلى الحبشة لم يهاجروا إلاّ عندما أشار لهم النّبيّ ﷺ إلى بلد يحكمها ملك عادل يضمن لهم قيمة الأمن وحرية الحياة والدعوة.

وعندما خرج النّبيّ ﷺ من مكة قال: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله عز وجل، ولولا أني أُخرِجت منك ما خرجت**».

وهذا يعني أنّه كان يحب البقاء في مكة يمارس الدعوة في بيئة ومجتمع مشرك، تمارس فيه كل الموبقات..ولم يكن همه إقامة الدولة الإسلامية وحكم الناس بشريعة الله، وهي واحدة من صور تفاعل المؤمن مع الزمان والمكان والظرف، مشروعة غير منسوخة يفقهها من بصّره الله بشرعه ودينه،

وأشار إليها محققوا أهل العلم حين قالوا إنّ حوادث السيرة لا ينسخ بعضها بعضا، ويرفضها من يريد الوصول إلى حالة الكمال بالقفز وطفرة النظّام!

والذي لبّس به رؤوس الضلالة على الناس خلطهم وتعاملهم مع النصوص والحوادث والوقائع النبوية وسيرة الصحابة كأنّها كلها نزلت في وقت واحد وفي ظرف واحد وفي مكان واحد، وكأنّه قالب لا يقبل التشكل والمرونة في التعامل مع المتغيّر الزماني والمكاني والبشري كذلك.

ومن قرأ سيرته ﷺ ونصوصه عرف أنّ فيها الكثير والكثير من الاعتراف بالواقع والتعامل معه، لا إنكاره ومقاطعته ومن ثمّ منابذته، والتعاملُ معه لا يعني بالضرورة -كما يتصورون- التنازل عن أحكام شرعية أو تغيير الدين، وإنّما المراد هو الصبر والمصابرة ومكابدة هم الدعوة والمخالفين والمعرضين، مع الثبات على الدين وتحمل مسؤولية حمل الدعوة ولو مع إعراض وتنكّر المجتمعات، هذه هي سبيل الأنبياء التي ذكرها الله تعالى آمراً بها نبيّه ﷺ:﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

كان من الواجب على العلماء والدعاة تعريف المؤمن سواء كان عالماً أو داعية أو مسلماً صالحا أنّه لا يعيش في دولة النبوة ولا الخلافة، إنه يعيش الآن في الدولة المدنية، والنظام السياسي الدولي وليس المحلي فقط يختلف تماما عن الظروف والأنظمة التي نشأ فيها الإسلام أو حتى عاشت فيها الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء، وبالتالي قبول فكرة التعايش مع الظروف ومدافعة الباطل والمبطلين بالحكمة والموعظة الحسن والجدال بالتي هي

أحسن، مع تنحية فكرة التغيير بالعنف أو القوة أو حتى خوض السياسة وغمارها.. لأنّها مفسدة لدين الناس ولأنّها مؤسسة على غير هدى ولا شريعة محكمة..

ولذلك تلاحظ أنّ الداعية في البلاد الغربية ولو كان من عامة الناس يحقق مكاسب للدعوة وللإسلام أكثر مما فعلته جماعات العنف والجهاد المزعوم.. وسرى الدين في مفاصل القارة الأوروبية وفرض نفسه في الواقع الغربي من خلال أولئك المواطنين المسلمين الذين انخرطوا في الحياة المدنية ولم ينسوا أن يكونوا دعاة بإيمانهم وأخلاقهم والتزامهم بالقانون واحترامهم للآخرين وأن مخالفيهم محل دعوة لا محل عداوة ومحاربة في الأساس.

فما بالك لو بذلت الجهود في بلاد مسلمة مؤسسة على الخير والدين في أساسها؟

ولذلك رأينا كيف أنتجت الدعوة السلفية السليمة الموادعة والمتعاونة مع الأنظمة الحاكمة من الخير في المسلمين حتى هدمه الفكر الإخواني وفروعه بهمجيتهم ودمويتهم وتطلعاتهم للحكم والمال والسيطرة، ما مكّن الغرب منهم ومن استخدامهم معاول هدم لتدمير بلاد المسلمين، وإسلامها لأعدائها لنهب خيراتها وإبقائها دهورا تحت نير الاقتتال والاحتراب الذي لا أمد له ولا نهاية.

غياب هذا المعنى وفقد هذه القيمة هي الّتي حولت أتباع الجماعات في كل بلاد إلى قنابل موقوتة وعزلتهم عن محيطهم ومجتمعاتهم، وأصبحت تلك المجاميع تنتمي إلى الخارج سياسيا وعسكريا، وتحيك المؤامرات

وتتربص بالدول التي تعيش فيها، بدلا من المشاركة والتعايش والدعوة بالحسنى، وهذا الذي جعل المسلمين محل انتقام واستهداف ومحاربة من كل نظام يتواجدون فيه، ولا أبرّئ أعداء الإسلام بطبيعة الحال من جرائمهم في حق المسلمين، لكن لهذا مجال آخر، وغرضي هنا الحديث عمّا يخصنا من الأخطاء وتصحيحها.

ولهذا حرصت دول الغرب على إبراز هؤلاء ليكونوا حجة لهم في تشريع القوانين التي تسوّغ لهم منع الشعائر الإسلامية ومحاربة التمدد الإسلامي السلمي.

وهذا فعلوه في كل بلاد عاشوا فيها لا أقول بلاد الكفار، بل بلاد المسلمين التي لا يعترفون بإسلام أنظمتها، ويرونها هدفاً مشروعا لمشاريع الفوضى والاستحواذ والتخريب.

وكل هذه الأوطان والبلاد بما فيها من خيرات ونهضة بنيت وتبنى وينفق فيها وعليها أعمار الأجيال وأموالهم لا تساوي عندهم شيئا في سبيل إقامة الخلافة ومشروع الأمّة الواحدة التي يدينون لها بالولاء رغم أنّها خيال أو توهّم يعشعش في مخيلاتهم، يرتزق منه وبه رموز الجماعات والأحزاب ومن يطوف بهم من كتاب ومفكرين بل حتى سياسيين واقتصاديين، على حساب مئات الألوف من شباب المسلمين وملايين من الشعوب المسكينة التي يلقى بها في أتون الفوضى والحروب لتظل ماكنة المال والمكاسب مستمرة.

الوطنية لا تعني بالضرورة مفهوم الوثنية الّذي حاول الفلاسفة الغربيون استبداله بالدين إذ نزعوه نزعا من نفس الإنسان الغربي، ليكون الولاء له بدلا عن الكنيسة والمسيح والملك.

هذا المفهوم مرفوض قطعا، وليس شرطاً أصلاً في الانتماء للوطن السياسي الذي ينتسب كل مسلم إليه، الوطنية بمفهومها الشرعي عقد وعهد اجتماعي شرعي أقرب لمفهوم الجماعة التي جاءت في حديث النّبيّ ﷺ عندما تحدث عن الفرقة الناجية وعرّفها بأنّها "**الجماعة**"، وفسرت في أحد الأقوال واشهرها بجماعة المسلمين المبايعين لإمام واحد، أي البقاء فيها والتمسك بعهدها والدفاع عنها والولاء لها، والسمع والطاعة للنظام الّذي يحكم البلد في غير معصية الله طبعا، والصبر على ما ينال العبد في هذه البلدان من ظلم أو حيف أو تقصير مهما كان مؤلما، لأنّ كل هذا لا يساوي شيئا في جنب فقد الأوطان والتشرد في بقاع الأرض حيث يفقد المرء بفقد وطنه كلّ شيء حتى دينه الذي اعتقد يوما أنّ وطنه ثمن بخس له.

وهذا لا علاقة له بالولاء لله ورسوله ولدينه، وليس معارضاً أو منافياً له بالضرورة كما يتصور البعض حتى جعل بعضهم الوطنية من نواقض التوحيد والإيمان، هكذا بإطلاق!

والحق أنّ الوطنية ككثير من المفاهيم قد اعتورها التمدّد وتداخلت مع مفاهيم أخرى، فلا يجوز استخدام المعاني الباطلة الّتي يمكن أن يشير إليها المصطلح، في إبطال وإلغاء المعاني والقيم الصحيحة.

وهذا ما فعله المبطلون سواء من غلاة العلمانيين الّذين استخدموا المفهوم وسوّقوه بقوة لا إيمانا به بل نكاية في المتدينين ولأجل محاصرة الدعاة إلى الله والعلماء الشرعيين الذين يقفون في وجه المد العلماني في بلاد المسلمين.

بدليل أنّ غالب مدعي الوطنية من العلمانيين ونحوهم معروف تاريخهم وانتماءاتهم لمذاهب فكرية لا تعترف بالوطن كالماركسية والشيوعية وغيرها.

ويقابلهم غلاة الإسلاميين الذين سوّقوا المعنى الباطل للوطنية لضرب فكرة المواطنة من أساسها وزرع ولاءات في نفوس الناشئة لصالح جماعاتهم وأحزابهم التي ترفع شعارات إسلامية وفي حقيقتها لا تعدوا كونها مشاريع سياسية بحتة وكلها مرتهن أو مرهون لصالح قوى أجنبية دولية أو اتجاهات أممية.

ونحن بعيدا عن أهل الغلو والإجحاف نقرر أهمية الوطنية والمواطنة بمفهومها الصحيح الذي هو جزء من حاجة الإنسان الطبيعية التي لا يُتصور بقاؤه وعيشه بدونها، شأنها شأن الطعام والشراب بل أولى وأهم.

وهو الانتماء وصدق الولاء للأرض التي ينتمي إليها سياسيا سواء كان ذلك بالنشأة دون اختيار أو بناء على اختياره لأنّه في الحالين عقد والله يأمر بالوفاء بالعقود.

وهو من هذه الحيثية محايد لا يعارض في أصله وأساسه مفهوم الولاء لله ورسوله ودينه.

وإذا حدث ثم تعارض بين الولاءات فكلّ صورة لها حكمها الخاص، كأيّ انتماء آخر، فقد يكون التعارض بين الولاء لله وبين الولاء للوالدين أو

العشيرة أو الأسرة أو المؤسسة التي أعمل فيها أو غير ذلك، فكل صورة وموقف له حكمه الخاص وتفسيره الشرعي وتكييفه الفقهي، الذي يبنى عليه موقف المسلم من حدث ما، دون أن يكون ذلك ناقضاً للمعنى برمّته والتنكّر له كله.

فالصحابة مثلا لما تعارض عندهم الولاء الإيماني مع القتال والمشاركة فيه إبان خلاف علي ومعاوية رضي الله عنهما تباينت مواقفهم فاعتزل غالب الصحابة ذلك القتال ولم يروه مانعا ومعارضا لأصل البيعة والولاء للجماعة وإمامها.

وهكذا الانتماء للكيان السياسي بأرضه ونظامه وقادته لا يعبر بالضرورة عن ولاء مناف لدين المرء، فإن فرضت حالة أو صورة حدث فيها الصدام بين الولاءات فلكل صورة حكمها دون افتراض التناقض بالمطلق.

الأمن مقابل العدل

مصلحة الأمن والاستقرار مقدمة على العدل، دون الإخلال بحقيقة أنّ الظلم يؤدي إلى عدم الأمن، لأن هذا المفهوم قدريّ، وأنا أتحدث عن الموقف شرعياً، بمعنى أنّ المسلم إذا تعرض للظلم في بلاده وكان في تصوره أنّه لا يمكن تحقيق العدل إلا بإزاحة وقتال الحاكم الظالم وهذا يؤدي إلى الفوضى وشيوع الخوف والاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، ففي هذه الحال وجب عليه الصبر على الظلم والتضحية بقيمة العدل مقابل بقاء الأمن والاستقرار السياسي بنواحيه المتعددة.

هذه هي فلسفة أهل السنة – إذا جاز التعبير – في قضية الصبر على الظلم تحت أي نظام مسلم وهو ما ثبت بالنص عن النّبيّ ﷺ حين قال: «**أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم**» وقال للأنصار: «**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**» وغير ذلك من النصوص.

وهذا التصرف الشرعي هو الذي يسأل الله المكلف عنه، أما أن الظلم عاقبته خراب البلدان فهذه سنة كونية واجب على المرء تركها لله تعالى وهو الذي يدبر ملكوته فإن شاء تحققت عاقبة الظلم وإن شاء منعها بما يمنع به من وجود الصالحين أو دعاؤهم أو غير ذلك.

ولهذا الذي قلته شواهد من تصرفات الشريعة، وعليه تقوم أحكام الصلح في الفقه إذ هي مرتبة على ترك بعض الحق والرضا بالظلم مقابل قيمة راجحة لدى المصالح المظلوم.

وصلح الحديبية وقبول النّبيّ ﷺ للشروط المجحفة أيضا دليل على ما قلناه.

ومن ذلك تصحيح ولاية المفضول مع وجود الفاضل رعاية للأمن ودرء الفتنة والفوضى.

ومنه النصوص التي تحث على صبر المرأة على ظلم وحيف الزوج وكذلك العكس، مع أنّ الحال ظلم لكن مندوب الصبر عليه رعاية لاستقرار واستمرار حال الأسرة فهذا خير من تفككها.

وعلى هذا المسار نفسه يأتي الأمر بالصبر على ولاة الجور مهما بلغ ظلمهم فهو خير من ضياع قيمة الأمن والاستقرار ولو شابها النقص والخلل.

انتقل إلى الفهرس

الخلط بين الهجرة وبين تخريب الأوطان

وبعض الناس اختلطت عليه مفاهيم الهجرة الشرعية وهي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام أو من أرض لا يمكنه فيها إقامة شرائع الدين إلى أرض يمكن فيها ذلك سواء كان الأمر خاصا بالفرد نفسه أو بكل مسلم.

ومع أنّ افتراض بلد مسلم لا يمكن إقامة دين المرء فيه ليس متصورا إلاّ في فهم أصحاب الاختصار الذي اشرت إليه سابقا، فيجعل عدم قدرته على العمل في بيئة غير مختلطة مثلا مسوغا للزعم أنّه لا يستطيع إقامة فرائض الدين، أو يجعل منع الحجاب في المدارس كذلك، أو يجعل حظر العمل الدعوي الجماعي كذلك، وهذه الصور ليست مسوغة لهذا الزعم إذا أقيمت منارات الإسلام الكبرى وهي الأركان الخمسة وحرية العقيدة.

ومع ذلك أرجع فأقول سأفترض أنّ نظاما حاكما حارب الدين وشعائره بما يسوّغ الهجرة من البلاد، فهل يسوّغ هذا تخريب تلك البلاد؟ وإحداث الفوضى والخراب بالمنازعة المسلحة والعنف، وتشتيت مقدرات الدولة على مواجهة الفوضى وترك التنمية..

إذا عزّ على المؤمن العيش في بلد وسوّغت له الحال الهجرة من بلده فهذا لا يجعل الوطن ساحة جهاد مشروع يتم فيه تكوين المجموعات المسلحة وإحداث الفوضى أو العنف أو قتال العسكر أو الارتهان إلى أعداء خارجيين يوظفونه للكيد لبلاده ووطنه الذي يعيش فيه ملايين من المسلمين الذين ليسوا بالضرورة موافقين على مقاصده وطريقته في التفكير والحل، والتفكير نيابة عنهم واتخاذ قرار الحرب والعصيان والتمرد هو افتئات لا يجوز ولو

انتقل إلى الفهرس

تأيّد ذلك بفتاوى علماء الفتنة الذين يتنعمون في كنف دول الفتنة ويصدرون للجماهير المسكينة فتاوى الثورات وأحلامها ليفسدوا عليهم دنياهم وآخرتهم.

والله المستعان.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

العلاقة بين الحاكم والمحكوم

من أخطاء الصّحوة الكبيرة تصور غالب رموزها وقادتها ومواقفهم من الحكام، دعني أصوّر لك الحال الذي عايشته ورأيته وقرأت عنه.

أوّل فكرة كانت تغرس في ذهن الشاب المقبل على التمسك بالدين أنّ هناك عداوة فطرية وتاريخية وحتمية بين الأنظمة الحاكمة وبين الدِّين والمتدين..

وكثيرا ما يتم شحن المتلقي بعدد لا حصر له من قصص علماء من السلف كان لهم مواقف من الولاة والملوك.. ومن أشهرها في أدبيات الجماعات سيرة العز بن عبدالسلام الذي يسمى سلطان العلماء.

وبطبيعة مقاصد الجماعات لا يُفترض في هذا الخلاف كونه خلافاً في الاجتهادات أو نتيجة قصور القيادات السياسية في فهم الإسلام أو تأثرهم بعلماء ومذاهب أخرى أو حتى تقصيرا في التطبيق.. كل هذا غير مفترض في هذه العلاقة من وجهة نظرهم.. بل السبب في هذا الخلاف والصراع هو عداوة الحكام للدِّين، وأنّهم مجرد أدوات للكفار والمستعمرين في محاربة الدين والشريعة والدعاة والعلماء.

وسبب هذا أنّ الحراك الديني في الطبقات الشعبية تولاه علماء أو طلبة علم أو دعاة تلقوا قدراً كبيراً من فكرهم وتصوراتهم على يد الإخوان المسلمين الذين فروا من حكومات مناهضة لهم إلى بلدان الخليج، ومن أكبرها المملكة، وهنا وجدوا ساحة خالية فتولوا مناصب ووظائف في وزارة

التعليم العالي والعام وانتشروا في كل مكان، وألفوا المقررات الدراسية وأدخلوا فيها كل ما استطاعوا من أفكار هم التي تأثرت بفكر حسن البنا وسيد قطب وغيرهم.

لا أحد ينكر أنّ صِدام الجماعة مع حكام بعض الدول كان عنيفا، خاصة من رفع عقيرته بالدين وأحكامه، وكم كان لبعض هؤلاء الحكام العرب من الكلمات التي يسخر فيها من المملكة ونهجها الإسلامي، وربّما ساهم هذا في تكوين النفسية ونمط التفكير الإخواني تجاه الحكام.

وهذا قد يوجد لهم بعض العذر في بدء الأمر لكن من عايش حكام الخليج والمملكة بالذات وعرف أنّهم أبعد الناس عن ذلك وطريقته كيف يقبل منه الاستمرار على نفس النمط؟

وهذا يدل على أن الأمر عندهم ليس مجرد ردة فعل نفسية وإنّما هو منهج وعقيدة أنّ أيّ حاكم لا يدين بالولاء للجماعة فهو في صف العدوّ الفعلي أو المحتمل وكلاهما هدف للتغيير وعدوّ مرصود.

وهذا يمكن فهمه في ضوء ما قدمته لك من أن نشأة هذه الجماعات في الأساس لتكون دولة الخلافة والأمة الواحدة، والرضا أو القبول بهؤلاء الحكام يعني قتل الفكرة ومصادمتها، فلابد إذن من شطبهم من ذهن الأتباع وتحويلهم إلى خصوم للإسلام يتم التخلص منهم في أقرب فرصة ممكنة.

وعلى العموم فالذي حصل أنّ هذا الموقف الحدي من أي حاكم وأي نظام هو الذي استقر في أدبيات الجماعة ونقله رُسُلُها بالتالي إلى أتباعهم وكل من طاله تأثيرهم في مدرسة أو جامعة أو مسجد.

وأصبح الحكام وقصصهم مجالا للسخرية والاستخفاف بهم ونشر الشائعات والأكاذيب واستسهال قذفهم بكل الموبقات يساعد على ذلك طبقة من الشعوب جاهلة سطحية تتقبل كل ما يُقال عن الأغنياء أو الحكام أو السياسيين دون تردد.

وهذا كله مخالف لمنهج الأنبياء والرسل ومضادّ لمنهج السلف ضدية مطلقة.

وأوّل ما يمكن ملاحظته على هذا المنهج إخراج الحكام ونوّابهم من نطاق الدّعوة أصلاً، لأنهم أعداء في تصوّرهم فسبيل الإصلاح عندهم لا يدخل فيه صلاح الولاة، بل تغييرهم إذا لم يمكن ضمّهم.

وكل ما تراه في الظاهر من هؤلاء من ظهور مع الولاة أو الأمراء أو السياسيين وإظهار التناغم والعمل مع النظام هو مرحلة مداراة كما يسمونها لكسب ثقة الأنظمة والتغلغل في كل مفاصل الدولة لتكوين الدولة العميقة التي تستطيع التحكم في توجهات وأموال وأنظمة وتجييرها لصالح الجماعة.

وهذا عكس ما قصّه الله علينا في قصة إرسال موسى وهارون لفرعون وقومه، إذا بدأ الله التكليف بفرعون نفسه،﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس:٧٥]، فالدعوة شاملة لفرعون نفسه.

ولا يقال إنّ هذا نوع من إقامة الحجة فقط، بل قال تعالى:﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٣-٤٤].

إذن ففرعون وهو فرعون كان مشمولاً بالدعوة باللين والرفق لعله يسلم، فكيف تعامل هذه الجماعات حكام المسلمين؟ ولو فرض تقصيرهم وظلمهم كما يعامل المريض الميؤوس من شفائه؟

وإذا قبل هذا في بعض الحكام الذين ظهر بطشهم وطغيانهم فكيف يعامل بهذا حكام وولاة لا يمنعون شريعة ولا فريضة بل يعينون ويدعمون كل مشروع خير ودين.

وهذا يدل على أنّ الموقف من الولاة والحكام في تصور هذه الجماعات هو موقف الرسول ﷺ من حكام البلاد الكافرة، "أسلم تسلم" ولهذا لا يرضيهم من الولاة أي شيء إلاّ التغيير والتنازل لهم.

وقد بان في كثير من المواقف أنّ الأمر راجع إلى غيظ محتقن في صدور الجماعات الحزبية تجاه الحكام وكل من يدور في فلكهم فهو موقف شخصي ورغبة في الانتقام. وكثير منه بسبب الدنيا وحظوظها وإن ألبسوه لباس الدين وحاكمية الشريعة!

ومن المفارقات أنّه يحدث في بعض الحالات أن يهتدي أفراد من بعض الأسر الحاكمة في بعض البلدان فكان كثير من رموز الصحوة غير راضين عنهم، وقد قلت لأحدهم مرة: ماذا تنقم من فلان – وهو طالب علم من أسرة حاكمة –؟ فقال: إنه كاذب في توبته، قلت: وما أدراك؟، قال: لو كان صادقاً لردّ على أسرته وانتقدهم وأظهر الإنكار عليهم.

قلت: هذا ليس شرطاً في التوبة لأيّ شخص من الناس، إذا صلح في أمر نفسه فليس مطلوبا أن يصلح الكون، وليس مطلوباً منه أن ينكر على الولاة، وهذا الرجل وإن كان من الأسرة فليس حاكماً.

وشيء آخر أنّه من قال لك أنه لم يفعل؟ أم هل تريد أن يقدم لك ولغيرك كشف حساب عن أفعاله كشرط لترضى عنه.

وشيء أخير أنّه من قال لك إنّه يتفق معك على الموقف من الحكم ونظامه أصلاً، لماذا تقبل الخلاف في كل شيء من دينك حتى إنّك تتقبل الاختلاف مع الشيعة الذين يسبون أبابكر وعمر وعثمان وأمهات المؤمنين، ولا تقبل أن يخالفكم أحد في الموقف من الحكام؟

هذا الحوار يكشف لك كم يخفي رموز وقادة الجماعات ومن تأثر بهم من الأهواء والانتصار للنفس أو الحزب والجماعة في مواقفهم من أنظمة الحكم في الدول العربية والإسلامية، وهذا دأب الخوارج من قديم، ففي قصة خروج الخوارج على عثمان قول الذي قتله وقد طعنه تسع طعنات «ثلاث لله، وستٌّ لما في نفسي عليه».

وهكذا كل الخوارج يظهرون القيام لأمر الله وتحكيم شرع الله ويبطنون الحقد والحنق والغضب لأهوائهم وشخوصهم.

العلاقة مع المباحث

ولأجل هذه النظرة المأزومة للحاكم ومن يعمل معه تكون لدى المتديّن ما يشبه الوسواس والشك والتهمة لأي شخص بأنّه مباحث، حتى اتهم بهذا الكثير من العلماء فضلاً عن طلاب علم فضلا عن عامة الناس.

وهذا شيء أحكيه عن تجربة عايشتها، ولا أنسى أنني في أثناء سفري للجامعة الإسلامية عام ١٤٠٩هـ مع أحد طلابها الذين سبقوني إلى هناك وكان يحدثني عن المدينة ورجالات العلم فيها، فسألته عن أحد علمائها الكبار، فقال لي بالحرف الواحد إنّه من المباحث!

تصورت الشيخ -وكنت لم أره من قبل- شابا أو فوق ذلك، ثم لما التقيته بعد ذلك وجدته شيخا كبيرا في مصاف العلماء، ولا علاقة له بالمباحث من قريب ولا من بعيد.

أمّا الشيخ محمد بن أمان الجامي رحمه الله فسمعنا عنه ما يثير العجب، من اتهامه بأنّه عالم سلطان وأنّه من المباحث، بل ونقل بعض الطلاب الوافدين لأقرانهم أنّه كان يتعاون مع النصارى ضد المجاهدين المسلمين في كينيا والصومال وغيرها.

واخترعوا له الألقاب، ونُسب إليه السلفيون الذين حملوا على الجماعات الحزبية حملة شديدة، ثم تطور الأمر بالصحويين لتعيير ونسبة أي مخالف لهم بكونه من الجامية بعد أن رسخوا في نفوس الجيل من أتباعهم وغير أتباعهم بغض الجامية وإلحاق كل نقيصة بها.

ونشأ جيل لا يعرف الجامي ولا الجامية وإنّما يسبها ويبغضها تبعا للقطيع.

رحم الله الشيخ محمد العالم السلفي الذي لم يكن معصوما وله مواقف يحمد عليها وكلمات قد لا يوافق عليها لكنه لم يعرف بالأهواء ولم يدع إلى بدعة بل كان داعية للسنة ومذهب السلف، وكل جريرته أنّه عارض قادة

ورموز العمل الحزبي في مواقفهم من النظم الحاكمة كما هو شأن كل العلماء السلفيين من أهل السنة والجماعة.

لكن لأنّ الشيخ لم يكن معروفا في أوساط الناس وعامة طلاب العلم والدعاة فقد سهل عليهم الافتراء عليه وإلصاق التهم وترويج الدعاية الكاذبة ضده، والتي أشهرها على الإطلاق أنه فرد من المباحث!

التعاون مع أجهزة الدول في النهي عن المنكر الفكري والاحتساب على المنحرفين من الغلاة يعتبر عارا عند الصحويين وتجدهم يتهمون من يخالفهم برفع التقارير للمباحث عن الدعاة.

وهذا التعبير أصلاً مأخوذ من أدبيات الإخوان وحكاياهم عن مواقف الأمن معهم، انتقل إلى لغة المتدينين بصورة كبيرة، مع أنّ الدعاة أو العلماء حين يكاتبون ولي الأمر للأخذ على يد سفيه يغرر بالناشئة أو ينشر ضلالة لم يكونوا يفعلون ذلك سرا ولا يخافون من ذلك لأنّ هذا يُسمى بلغة الشرع حسبة واحتسابا وتعاونا على البر والتقوى.

وللعلم فإنّ الجماعات الضالة تمارس هذا العمل كذلك، وهو منهم دليل نفاق إذ يقبلون أحيانا التحريش والتجييش ضد مخالفيهم من سلفيين أو غيرهم من الأفراد الذين يخالفونهم وعند من؟ عند أنظمة يكفرونها ويعتبرونها مرتدّة، والكل يعلم معاناة محمد سرور نفسه من مطاردة الإخوان له وتحريشهم في سوريا للنظام للتضييق عليه حتى أجبروه على المغادرة.

انتقل إلى الفهرس

ولا أريد أن أسترسل كثيراً في هذا، إنما غرضي أن يتم تطهير عقول المسلمين من أفكار واحدة من أسوأ الجماعات أو الحركات أو الأحزاب التي مرت في التاريخ الإسلامي كلّه – قناعة لَدَيّ- أثراً على الدعوة والعلم الشرعي وتصورات المسلمين وكذلك على الدول الإسلامية والمجتمعات التي تواجدت فيها.

وإذا أردنا أن نعرف الصواب في منهج العلماء السلفيين من الحكام فهو ما اتفقت عليه عقائدهم المنقولة عنهم متواترة لفظا ومعنى.

ولتعرف الفرق بين المنهجين فانظر كيف أثمرت علاقة العلماء بالحكام والولاة من طباعة الكتب وإنشاء الجامعات والمعاهد والمدارس والمراكز الإسلامية في كل البلاد وبعثات الأئمة والدعاة ودعم أنشطة حفظ القرآن وتعليم العلم الشرعي من خلال الدروس والدورات وغير ذلك مما يعرفه الجميع.

أمّا الإخوان ومن لف ملفهم فمواقفهم من الحكام أنتج علاقة مهزوزة متوترة دائما تشغل الحاكم بهم وتشغلهم به فلا دعوة ولا تعليم ولا نشر للخير، بل صدام ومماحكة سياسية تارة وعسكرية أخرى لا تنتهي إلى شيء، بل تظل البلاد في توتر وترقب دائم وتربص هذا إذا سلمت من الفوضى والثورات التخريبية والمظاهرات والاعتصامات التي تستنزف من أعمار الدعاة والدول والناس وأموالهم وجهودهم ما لو صرف في التنمية أو الدعوة والتعليم لأنتج وأثمر مالا يخطر على بال، ولكنهم قوم يستعجلون.

انتقل إلى الفهرس

غلاة الطاعة!

من أسوء مفرزات الصحوة وما أعقب ذلك من انخراط رموزها فيما سُمّي بـ"الربيع العربي" هو صيال رموز الفتنة على ثوابت الشريعة وأصول السنة الثابتة، وبروز شخصيات غير مؤهلة في منهجها ولا رجاحة عقولها ولا أسنانها لتوجيه الأمّة، أصبحت هي المتصدرة في المسائل الحادثة خاصة الفتن الواقعة بين الناس والولاة.

رموز الإخوان وكذلك من دار في فلكهم من الجماعات والأحزاب الأخرى يجيدون استحداث الألقاب لمخالفيهم، وهذا شأن برع فيه أسلافهم من أهل البدع، فإذا رأيت كتب السلف عرفت كم اسماً خلعته الفرق المخالفة على أهل السنة كلٌّ من منظوره العقدي، فالمعطلة يسمونهم مشبّهة ومجسمة وحشوية، والقدرية يسمونهم الجبرية، والخوارج يسمونهم المرجئة، والرافضة يسمونهم النواصب، وفي العصور المتأخرة سموهم الوهابية نسبة للإمام المجدد رحمه الله.

وفي عصر الفتنة الأولى إبان حرب الخليج ومعارضة مشايخ السرورية للدولة في الاستعانة بالقوات الأجنبية ومن ثم فتح المجال للاعتراض على كثير من الأمور لا يهم الآن كونها حقا أم لا، المهم أنّه لما حدثت تلك الفتنة وعارضهم من عارضهم من العلماء خلعوا لمخالفيهم ألقابا منها: الخلوف، ومنها الجامية، والمداخلة، والمرجئة، ولكل اسم منها سبب يطول المقام بنا لو استطردنا فيه وليس هو محل اهتمامي الآن.

واحد من الألقاب التي ابتكروها هو غلاة الطّاعة، يعنون بذلك أنّ الاتجاه السلفي المعارض لهم يغلو في تقرير مبدأ السمع والطاعة لوليّ الأمر.

وذلك أنّ هؤلاء المخالفين للسنة وقعوا في انحرافات في باب الإمامة اعتقدوها صواباً واعتدالاً، فجعلوا من خالفهم فيها غالياً في الطاعة.

والسبب في ذلك تشوّه مفاهيم الناس وكثير منهم منسوب إلى العلم للأسف، وذلك بسبب طغيان الفكر الإخواني والسروري منه بالذّات على تصوراتهم، فلديهم خلط في مفهوم ولي الأمر المأمور بطاعته، ولديهم خلط في مفهوم النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولديهم أغلاط في مفهوم الصبر على الولاة.

والحقيقة أنّ تحديد الغالي في الدين أو الجافي عنه ليس أمراً متروكاً لأهواء وتصورات وأذواق الناس، بل مردّ الأمر إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

فما جاء به النص كان هو الاعتدال وهو الوسط، ولينظر كل واحد منا أين هو من هذا المنصوص.

أمّا محاولة التموضع في المذاهب والآراء والأفكار ثم رمي من خالفنا إما بغلوّ أو بجفاء فهذا هو الهوى لا غير.

ولننظر في مفهوم السمع والطاعة كمثال على ما قلناه، فإنّك إذا قرأت في كتب وفتاوى ومقالات السلفيين تجدهم يأمرون بما أمر الله به من السمع والطاعة لولي الأمر، وهذا ما جاء به النص.

ويحرمون طاعة ولي الأمر في معصية الله، وهذا ما جاء به النص كذلك.

فأين الغلوّ إذن؟ هل أمروا يوما بالسجود له مثلاً؟

أو أمر أحد منهم أن يطاع الحاكم في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله؟

الجواب قطعاً: لا.

إذن أين الغلوّ؟

الحقيقة أنّه لا غلوّ، إنّما هو رأي رآه الجافي عن سنة رسول الله ﷺ الآمرة بمعاملة خاصة لوليّ الأمر في النصح له وستر معايبه وعدم ذكره في العلن بسوء أو تأليب الناس عليه أو معصيته في غير معصية الله، فالإخوان وأربّاؤهم يرون هذه الأمور مشروعة، وليتهم وقفوا عند رأيهم بمشروعيتها، بل جعلوها أصولاً يرمون مخالفيهم فيها بالغلوّ.

وهذا شأن الفرق الهالكة كلها كما قلنا آنفا.

والاحتكام في كل شيء إلى الله ورسوله، أليس هذا ما يدعون إليه؟ تحكيم الشريعة؟

إذن فدونكم النصوص الشرعية لتعلم من الغالي ومن الجافي حقا.

ويكفي في ذلك حديث واحد في الأمر بنصح ولي الأمر سراً ففيه نص، وفيه عمل السلف، من الصحابة والتابعين، فيترك هؤلاء كل هذا ويعتمدون على قصص مرسلة لا تثبت بسند ولو ثبتت لكانت مخالفة للسنة فلا تقدم على نص رسول الله ﷺ، ومع ذلك يجعلونها عمدتهم ويتهمون بسببها مخالفيهم بالغلوّ.

ثم ذهب بعضهم يتفذلك فأقر بأنّ النصوص متواترة بوجوب السمع والطاعة، لكن لمن؟ قال: للإمام الشرعي الذي ينتخبه الناس، أو يحكمهم بالعدل.

أمّا المتغلب عليهم دون رضاهم، ثم يحكمهم بالظلم وترك الشريعة فهذا ليس إماماً شرعياً فلا تنزل عليه النصوص ولا سمع له ولا طاعة ولا بيعة.

قلنا لهم: إنّ هذا روغان عن السنة وزيغ عن حكم الله، وهل تشدد النصوص في طاعة الإمام العادل الذي يختاره الناس؟ هل هذا يحتاج إلى التشديد والتذكير المتكرر منه ﷺ بالسمع والطاعة؟

هذا لو افترضنا خلو النص مما يبطل هذا الزعم، فكيف والنص يبين أنّه جاء في حق أئمة الجور والظلم وإهمال الشريعة؟

وقد ذهبت استقرئ تاريخ الخلفاء وأزمنتهم، وما قيل في سيرهم وحكمهم، فوجدت أنّ عقائد جلة أئمّة الإسلام التي نصت على السمع والطاعة كتبت في عهود أئمة مذكورين بالظلم والجور وتضييع الحقوق وانتشار الفساد في أزمنتهم.

وعاش في أيامهم أئمة الإسلام الكبار ومع ذلك لم يُنقل عن أحدهم كلمة واحدة في ذم الأمراء أو التأليب عليهم فضلا عن التهوين من شأن طاعتهم أو جواز الخروج عليهم أو تغييرهم بالقوة.

الفترة التي أعنيها عنها هي ما بين ٢٥٠ إلى ٣٦٠هـ تقريبا تزيد أو تنقص قليلاً، عانت فيها البلاد الإسلامية الكثير من الخلل بسبب ضعف منصب الإمامة وتضييع الأمانة فيه، وتسلط أهل البدع والسفهاء واللصوص على

انتقل إلى الفهرس

مقاليد الأمور، والحالة الاجتماعية والاقتصادية، وهي أهمّ ما يسوّغ البعض لنفسه إهدار أصل السمع والطاعة لأجله: الاستبداد، تولية الفاسدين، نهب الأموال، تسليط العدو الخارجي على الدولة إضعاف المسلمين....إلخ.

توارد على منصب الولاية في هذه الفترة اثنا عشر خليفة، يحار المرء من كثرة الأحداث العظيمة التي مرت بالأمّة وقتها، أستطيع أن أقول وبجلاء: إنّ البلاد العربية الّتي تثور هذه الأيّام لم تجرّب عشر معشارها سواء من حيث تردي الحالة الاقتصادية والاجتماعية، أو من حيث سفك الدماء والسجن والنفي، أو من حيث نهب أموال الأمّة واللعب بها.. والمصادر موجودة ليرجع كل مستبصر إليها ويقرأ بتمعّن وليقارن، هذا إذا أسقطنا من الحساب غياب الآلة الإعلامية التي تنقل لنا الأحداث، وتضخّمها كما هو الحال الآن، فلا أشكّ أنّ المدوّن في كتب التاريخ والتراجم هو أقلّ بكثير من الواقع في تلك الفترة.

وأنا لا أقول هذا مدافعاً عن ظالم أو سارق، أو مغتصب أو مستبد، أو مهوّنا من حالة بعض البلاد العربية وتردّيها، لكني أريد أن أنطلق من هذا إلى زبدة المقال، ألا وهي موقف الأئمة -أئمة السلف- الذين اتفق على إمامتهم والتأسي بهم أهل السنة السلفيّون، لننظر ماذا كان موقفهم من ولاة الأمور في ذلك الوقت ومن الدعوة لعصيانهم في غير معصية، فنحن نرى بجلاء أنّ كل المعطيات الّتي رتّب عليها "جفاة الطّاعة" رأيهم في جواز العصيان والتظاهر والاعتصام لخلع السلطان أو للضغط عليه كل تلك المعطيات كانت متوافرة في تلك الحقبة، ومع هذا لا تجد لأولئك الأئمة تأليباً

على الولاة أو كلاماً فيهم أو مشاركة في ثورة أو شغب أو تمرد.. فما السبب يا ترى؟

هل كانوا من علماء السلاطين كما يُتهم كبار العلماء السلفيين اليوم؟

أم كانوا أهل ظلم وموالاة لأعداء الشعب والمستبدين كما يُقال؟

أم كانوا منكفئين لا يعلمون ما يجري ولا يهتمون لمصاب الناس؟

أم كانوا أهل ترف ورغد عيش ولهذا لا يحسون بغيرهم؟

على كل طالب حق أن يتأمّل الأسماء التالية جيدا ويبحث عن كلماتهم في تلك الأحداث ومواقفهم، وليسأل نفسه أين هم عن أحداث الأمة الجسام؟

فنحن للأسف الشديد نحسب لصوص الفتن ومستغلي عواطف الجمهور ومتسلقي المنابر خطباء الفتن نحسبهم هم أهل العلم الحقيقيين، وأنّهم أشفق على الأمة وأنصح لها ممن ينصح بالكف والسكينة والصبر والاعتزال.. ولو تأمّلنا جيدا لعرفنا أنّ المهيّجين والفوضويين ومثيري الفتن والشغب هم القساة الذين دفعوا بالضعفاء في فم التنّين ثم أقاموا عليهم اللطميات.

عاش في الفترة التي ذكرناها (٢٥٠-٣٦٠) أو جزء منها مجموعة من أئمّة السنة منهم: عبد بن حميد صاحب المسند، ومنهم: الإمام أبو حاتم محمد بن إدريس السجستاني، ومنهم: الإمام الدارمي صاحب المسند، ومنهم: الإمام محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح، ومنهم: الإمام مسلم بن الحجاج القشيري صاحب الصحيح، ومنهم: الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني صاحب السنن، ومنهم: الإمام الترمذي محمد بن

عيسى بن سَوْرة، السلمي صاحب السنن، ومنهم: الإمام ابن ماجه محمد بن يزيد القزويني صاحب السنن، ومنهم: الإمام النسائي أحمد بن شعيب بن علي بن المزني صاحب السنن، ومنهم: محمد بن يحيى الذهلي، ومنهم: أبو زرعة الرازي، ومنهم: عبد الله بن أحمد بن حنبل، ومنهم: الإمام البزار صاحب المسند، ومنهم: محمد بن نصر المروزي الإمام.، ومنهم: محمد بن داود الظاهري، ومنهم: ابن سريج شيخ الشافعية، ومنهم: أبو يعلى الموصلي صاحب المسند، ومنهم: وابن المنذر الإمام صاحب الأوسط، ومنهم: ابن جرير الطبري المحدث المفسر المؤرخ، ومنهم: محمد بن إسحاق بن خزيمة صاحب الصحيح، ومنهم: أبو بكر بن أبي داود السجستاني، ومنهم: أبو القاسم البغوي المسند، ومنهم: الإمام الطحاوي شيخ الحنفية. وابن أبي حاتم المحدث صاحب التفسير، ومنهم: أبو بكر الخرقي شيخ الحنابلة، ومنهم: أبو إسحاق المروزي إمام الشافعية، ومنهم: محمد بن حبان صاحب الصحيح، ومنهم: أبو القاسم الطبراني صاحب المعاجم، ومنهم: الحافظ محمد بن إسحاق بن منده، ومنهم: الإمام أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني، وغيرهم كثير.

ولاحظ أنّه في وسط تلك الفتن المدلهمّة وانغماس الناس فيها انشغل هؤلاء الأئمة بتصنيف مجموعة من أعظم كتب الإسلام كالصحيحين والسنن الأربعة مثلاً، ومسند البزار، وصحيح ابن حبان، وصحيح ابن خزيمة، ومعجم ابن الأعرابي، ومعاجم الطبراني وسنن الدارقطني والعلل له، وعلل ابن أبي حاتم وتفسير الطبري وتفسير ابن أبي حاتم.

وكتب السنة كذلك، كالسنة لعبدالله بن أحمد والإيمان والتوحيد لابن منده، والتوحيد لابن خزيمة، وتعظيم قدر الصلاة للمروزي والسنة له، والرد على المريسي للدارمي أبي عثمان والرد على الجهمية له، والشريعة للآجري والإبانة لابن بطة وشرح أصول الاعتقاد للالكائي والسنة للبربهاري والسنة للطبري والإمامة لأبي نعيم، وفضائل الخلفاء والنزول والعرش للدارقطني وغيرها كثير..

كلها صنفت في هذه الفترة العصيبة أو جزء منها.. تصور لو أنّ أصحابها شغلوا بالفتن والثورات والمشاركة فيها؟

شغل هؤلاء الأئمة بما كلفهم الله به من حفظ العلم والسنة وتبليغها للناس، ولم يتدّخلوا فيما يقدره الله من الثورات والفتن التي تثور بسبب البعد عن شريعة الله، وهي جزء من سنة التدافع الكونيّة، التي يصحّح الله بها الموازين المختلّة.

فهُم كما أنّهم لم يشاركوا العامة غضبهم وثوراتهم لم يشاركوا السلاطين والظلمة في دفع نتائج جورهم وظلمهم، بل لزموا الحياد واكتفوا بتبليغ السنة والشريعة أَحَبّ من أَحَبّ وكره من كره.

ولهذا فإني حاولت أن أجد لهم كلمة فيما حصل في تلك الأزمنة من فتن فلم أجد إلاّ تثبيت العلم والسنّة وذمّ البدعة ومفارقة أهلها.. فلله درّهم.

وخاتمة القول: إنّ على طالب الحق أن لا يغترّ بتأصيلات المرحلة، أعني بها تلك الآراء الّتي تتولّد قوّتها لا من قوّة المرجعيّة والأصل الّذي تستند عليه، وإنّما من دافعيّة الواقع والحالة النفسية الّتي يعيشها كثير من المؤصِّلين

في هذه الأيّام، وأكثرهم يُرضي جماهير غاضبة ولا يكترث لرضا الله تعالى أو على الأقل الموضوعية والمنهجيّة العلميّة.

فالسّمع والطّاعة أصل عظيم من أصول السنّة تمّ الاستخفاف به للأسف الشّديد على يد ثلّة ممّن يرفع عقيرته بالشّريعة، فلمّا خالفت الشريعة رغبته وهواه انقلب ساخرا ذاماً لها تحت غطاء السخرية بـ"غلاة الطاعة" أو "الجاميّة"، وهذا منهج غير منصف، فمن غلا في أصل مشروع وجب بيان وجه غلوّه والرد عليه بعلم، أمّا السخرية والتّجييش العاطفي الّذي نال أذاه سنّة رسول الله ﷺ ومنهج السّلف فليس من العلم في قليل ولا كثير.

ما دام الحاكم مسلما فإنّ له على من تحت يده السّمع والطّاعة، يُعان على ما فيه طاعة الله ورسوله، ويُعان على ما فيه مصلحة عامة، ويُطاع – وإن كرهنا – فيما اجتهد فيه ولم يخالف نصاً محكماً أو شريعة مُجمعاً عليها، ويُدعى له.

وإذا أمر بمعصية فلا طاعة، ولا يُعان على معصية الله، ولكن لا يُؤلب عليه ولا يُسخر منه ويُستخف به، ولا يُنصح علانية في غيبته في أمور شخصية ليست عامّة، وما كان فيه ضلال الأمّة فيُبيّن الحق فيه دون تعرّض له واستفزاز، فليس ذلك من منهج السلف ولا من منهج كبار أهل العلم بالسنة من المتأخرين والمعاصرين.

وما يسمّيه البعض صدعاً بالحق هو في حقيقة الأمر تأليبٌ وإيغار للصدور لم يكن من منهج علمائنا الذين عاشوا على السنة وماتوا عليها، وأقل ما في الأمر أنّه موضع خلاف لا يجوز التبديع فيه ولا نبز المخالف لأجله.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولاية يوسّعها ولي الأمر ويضيقها بحسب المصلحة، فإذا اجتهد فيها لا يجوز الافتئات عليه ولو كان في ذلك ما نظنه مصلحة، فإنّ مفسدة كسر النظام وتعويد النّاس على المعصية والتمرد أعظم وأشدّ من مفسدة منكر يفوت على الشخص إنكاره، وإذا كان ولي الأمر قد نهاك عن الإنكار فقد برئت ذمّتك، وهل يبحث كلّ منّا في إنكار المنكر إلاّ عن براءة الذمّة؟

أخيرا فلننظر ماذا قال بعض أئمة السلف الذين عاصروا هذه الحقبة التي ذكرناها في موضوع السمع والطاعة، وليختر العاقل لنفسه قدوة وسلفا، إمّا فقهاء الثورات والفوضى، وإمّا هؤلاء الأخيار الذين اتفقت الكلمة على إمامتهم، وقد اخترت ما تيسر الوصول إليه ولم أحاول التفرغ والاستقصاء

- الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦):

روى اللالكائي عنه قوله في عقيدته: «وأن لا ننازع الأمر أهله لقول النبي ﷺ: " ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله وطاعة ولاة الأمر ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ".

ثم أكد في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩] وأن لا يرى السيف على أمة محمد ﷺ. وقال الفضيل: " لو كانت لي دعوة مستجابة لم أجعلها إلا في إمام؛ لأنه إذا صلح الإمام أمن البلاد والعباد. قال ابن المبارك: «يا معلم الخير، من يجترئ على هذا غيرك».

-الإمامان أبو زرعة (ت٢٦٤) وابو حاتم (ت٢٧٧) الرازيّين:

روى اللالكائي عنهما قولهما: «ولا نرى الخروج على الأئمة ولا القتال في الفتنة ونسمع ونطيع لمن ولاه الله عز وجل أمرنا ولا ننزع يدا من طاعة».

وروى عن أبي حاتم: «ولا نرى الخروج على الأئمة ولا نقاتل في الفتنة، ونسمع ونطيع لمن ولى الله عز وجل أمرنا ».

- الإمام ابن أبي عاصم (ت٢٨٧):

بوّب في كتابه (السنّة) ما يلي من الأبواب:

«باب ما ذكر عن النبي ﷺ أنه زجر عن سب السلطان».

«باب ما ذكر عن النبي عليه السلام من أمره بإكرام السلطان، وزجره عن إهانته».

«باب في ذكر فضل تعزير الأمير وتوقيره».

ولا يقولنّ قائل إنّ المراد بها إمام العدل، فقد ذكر بعد ذلك «باب في ذكر السمع والطاعة» وروى تحته حديث عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «**اسمع وأطع، في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك، وإن أكلوا مالك، وضربوا ظهرك**».

«باب ما أمر به النبي ﷺ من الصبر عندما يرى المرء من الأمور التي يفعلها الولاة»: وساق تحته حديث ابن عباس، يرويه عن النبي ﷺ قال: «**من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر**».

- الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (ت٣٢١) صاحب العقيدة المشهورة ومما جاء فيها: «لا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعوا عليهم ولا ننزع يدا من طاعتهم ونرى طاعتهم

من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاح والمعافاة».

«والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم».

- الإمام أبو محمد الحسن بن علي البربهاري (ت٣٢٩):

قال في رسالته المشهورة: «والسمع والطاعة للأئمة فيما يحب الله ويرضى».

«ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين فهو خارجي، وقد شق عصا المسلمين، وخالف الآثار، وميتته ميتة جاهلية، ولا يحل قتال السلطان والخروج عليه وإن جاروا، وليس من السنة قتال السلطان؛ فإن فيه فساد الدين والدنيا».

«واعلم أن جور السلطان لا ينقص فريضة من فرائض الله التي افترضها على لسان نبيه ﷺ جوره على نفسه وتطوّعك وبرّك معه تامٌ إن شاء الله تعالى - يعني الجماعة والجمعة - والجهاد معهم وكل شيء من الطاعات فشاركهم فيه.

وإذا رأيت الرجل يدعو على السلطان فاعلم أنه صاحب هوى وإذا سمعت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله يقول فضيل بن عياض: لو كان لي دعوة ما جعلتها إلا في السلطان فأمرنا أن ندعو لهم بالصلاح ولم نؤمر أن ندعو عليهم وإن جاروا وظلموا لأن جورهم وظلمهم على أنفسهم وعلى المسلمين وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين».

هذا يقوله البربهاري رغم أنه أوذي من السلطان، قال ابن أبي يعلى في الطبقات: «وكانت للبربهاري مجاهدات ومقامات في الدين كثيرة وكان المخالفون يغيظون قلب السلطان عليه ففي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة في خلافة القاهر ووزيره ابن مقلة تقدم بالقبض على البربهاري فاستتر وقبض على جماعة من كبار أصحابه وحملوا إلى البصرة».

وقال: «ولم تزل المبتدعة ينقلون قلب الراضي على البربهاري فتقدم الراضي إلى بدر الحرسي صاحب الشرطة بالركوب والنداء ببغداد: أن لا يجتمع من أصحاب البربهاري نفسان، فاستتر، وكان ينزل بالجانب الغربي بباب محول فانتقل إلى الجانب الشرقي مستترا فتوفي في الاستتار».

- الإمام ابن حبان (ت٣٥٤):

بوّب في كتابه الصحيح: «ذكر الإخبار بأن على المرء عند ظهور الجور أداء الحق الذي عليه دون الامتناع على الأمراء».

«ذكر الزجر عن الخروج على الأئمة بالسلاح وإن جاروا».

«ذكر الزجر عن الخروج على أمراء السوء وإن جاروا بعد أن يكره بالخلد ما يأتون».

«ذكر ما يجب على المرء من ترك الخروج على الأمراء وإن جاروا».

- الإمام محمد بن الحسين الآجري (ت٣٦٠):

قال في كتاب الشريعة: «قد ذكرت من التحذير من مذاهب الخوارج ما فيه بلاغ لمن عصمه الله تعالى، عن مذهب الخوارج، ولم ير رأيهم، وصبر على جور الأئمة، وحيف الأمراء، ولم يخرج عليهم بسيفه، وسأل الله تعالى كشف

الظلم عنه، وعن المسلمين، ودعا للولاة بالصلاح، وحج معهم، وجاهد معهم كل عدو للمسلمين وصلى معهم الجمعة والعيدين؛ فإن أمروه بطاعة فأمكنه أطاعهم، وإن لم يمكنه اعتذر إليهم، وإن أمروه بمعصية لم يطعهم، وإذا دارت الفتن بينهم لزم بيته وكف لسانه ويده، ولم يهو ما هم فيه، ولم يعن على فتنة، فمن كان هذا وصفه كان على الصراط المستقيم إن شاء الله».

«باب في السمع والطاعة لمن ولي أمر المسلمين والصبر عليهم وإن جاروا وترك الخروج عليهم ما أقاموا الصلاة».

وروى أثر: سويد بن غفلة قال: قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا أدري لعلك أن تخلف بعدي فأطع الإمام، وإن أمر عليك عبد حبشي مجدع، وإن ظلمك فاصبر، وإن حرمك فاصبر، وإن دعاك إلى أمر ينقصك في دنياك فقل: سمعا وطاعة، دمي دون ديني »، ثم قال: «فإن قال قائل: إيش الذي يحتمل عندك قول عمر رضي الله عنه فيما قاله؟ قيل له: يحتمل والله أعلم أن نقول: من أمر عليك من عربي أو غيره أسود أو أبيض أو عجمي فأطعه فيما ليس لله فيه معصية، وإن حرمك حقا لك، أو ضربك ظلما لك، أو انتهك عرضك، أو أخذ مالك، فلا يحملك ذلك على أن تخرج عليه بسيفك حتى تقاتله، ولا تخرج مع خارجي يقاتله، ولا تحرض غيرك على الخروج عليه، ولكن اصبر عليه.

وقد يحتمل أن يدعوك إلى منقصة في دينك من غير هذه الجهة يحتمل أن يأمرك بقتل من لا يستحق القتل، أو بقطع عضو من لا يستحق ذلك، أو بضرب من لا يحل ضربه، أو بأخذ مال من لا يستحق أن تأخذ ماله، أو بظلم

من لا يحل له ولا لك ظلمه، فلا يسعك أن تطيعه، فإن قال لك: لئن لم تفعل ما آمرك به وإلا قتلتك أو ضربتك، فقل: دمي دون ديني؛ لقول النبي ﷺ «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عز وجل**» ولقوله ﷺ «**إنما الطاعة في المعروف**».

وقال: «لا ينبغي لمن رأى اجتهاد خارجي قد خرج على إمام عدلاً كان الإمام أو جائراً، فخرج وجمع جماعة وسل سيفه، واستحل قتال المسلمين، فلا ينبغي له أن يغتر بقراءته للقرآن، ولا بطول قيامه في الصلاة، ولا بدوام صيامه، ولا بحسن ألفاظه في العلم إذا كان مذهبه مذهب الخوارج، وقد روي عن رسول الله ﷺ فيما قلته أخبار لا يدفعها كثير من علماء المسلمين، بل لعله لا يختلف في العلم بها جميع أئمة المسلمين».

انتقل إلى الفهرس

اقتلوني ومالكا

في كتب التاريخ أنّه قيل للأشتر: قد كنت كارهاً لقتل عثمان رضي الله عنه، فما أخرجك بالبصرة؟ قال: إن هؤلاء بايعوه، ثم نكثوا، وكان ابن الزبير هو الذي أكره عائشة على الخروج، فكنت أدعو الله عز وجل أن يلقينيه، فلقيني كفّة لكفّة فما رضيت بشدّة ساعدي أن قمت في الركاب فضربته على رأسه فصرعته، قلنا: فهو القائل: "اقتلوني ومالكاً" قال: لا، ما تركته وفي نفسي منه شيء، ذاك عبدالرحمن بن عتاب بن أسيد، لقيني فاختلفنا ضربتين، فصرعني وصرعتُه، فجعل يقول: "اقتلوني ومالكاً" ولا يعلمون مَن مالك، فلو يعلمون لقَتَلوني».

من العبارات التي ترددت في أزمنة الصحوة "سجن العلماء" "سجن المصلحين" "منع المحاضرات" "منع التجمعات" "إيقاف الدروس" ونحو ذلك.

كل من يعيش خارج المملكة ويسمع هذه العبارات يخيل له أنّ المملكة قفر من العلم والدّعوة، وأنّ الدولة تسجن المصلحين وتمنع الخير والدعوة.

هناك أمر غاب عن أدبيات الصّحوة للأسف إلاّ من رحم الله، ألا وهو تعظيم القانون والنظام وهيبة الدولة، وتحكيم العقل والمزاج الشخصي أو الحزبي في مسألة الالتزام بالقوانين من عدمها، بمعنى أنّ لديهم مفهومهم الخاص لقضية الالتزام بالقوانين، فأي قانون أو قرار يرون أنّه يعارض مصلحة الدّعوة، والدعوة في عرفهم هي "الجماعة"، فهم في حل من الالتزام

به، ويسوّغون لأنفسهم مساغات لا حصر لها في التفلت من الأنظمة والتحايل عليها.

وهذا ربي جيلاً من المتهاونين بالأنظمة ولا يقيمون لها وزناً، فكل قرارات الدولة راجعة في التزامها لما يرونه هم.

ولهذا رأينا الألوف منهم لا يقيمون وزنا لأي قرار بمنع السفر أو عدم المشاركة في الفتن خارج البلاد أو جمع الأموال أو غير ذلك.

وهم في ذلك بعيدون كل البعد عن المعنى الشرعي للسمع والطاعة والتزام الأمر والنهي في غير معصية الله، المعصية الصريحة لا التي تراها أنت معصية!

سجن أحد العلماء أو منعه أو إيقاف دروسه يعبر عنه بـ "منع العلماء وسجن العلماء وإيقاف العلماء"، وهذا كذب صريح، فسجن عالم أو إيقاف أو منع دروسه هو خاص به، وليس منعاً لكل العلماء.

هذا إذا اقترضنا أنّ المشار إليه معدود في العلماء الحقيقيين وليس من رؤوس الفتن.

فإذا أوقف العالم أو سجن أو منع درسه فإنّ تصرفه الصحيح هو السمع والطاعة، ولو كان ذلك القرار ظلما أو وشاية، لأنّ العلم والدين والدعوة ليست حكرا عليه، فالعلماء وطلبة العلم والدعاة في كل مدينة وقرية لم يمنعهم أحد، والعالم السلفي الحقيقي يعرف أنّ بقاء هيبة الدولة وإظهار السمع والطاعة وجمع الكلمة أصول عظمى مقدمة على مصلحة درس لعالم ولو كان شيخ الإسلام ابن تيمية.

وهذا الإمام أحمد رحمه الله وهو من هو، أوقف ومنع من الجلوس للتحديث، فلم يشق عصا الطاعة ولم يؤلب على سلطان ولم ينشر أحد عن الخليفة المتوكل في عهده أنّه منع العلماء وسجن العلماء... الخ.

إذا رأى ولي الأمر لمصلحة معينة يراها إيقاف الدروس العلمية أو منع الكلمات على الجميع أو للبعض – أصاب في ذلك أو أخطأ عدل فيه أو جار- فإنّ موقف العالم وطالب العلم السلفي هو مناصحته سراً إن أمكن وإن أصر فالسمع والطاعة وأن تبقى قوة الدولة وهيبتها في نفوس الجميع من الفجرة واللصوص والجماعات وأعداء الأمة ذلك مقدم على الانتصار لحق النفس أو الفئة أو حتى حق الدعوة بالنيل من هيبة السلطان والنظام ليكون بعد ذلك نهبة لكل منتهب، كما قال الأول "اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي"!

أحيانا يضحي المخلص بحقوقه إذا كان في ذلك مساواة تمنع المبطل، فتطبيق القانون والحفاظ على هيبة الدولة مقدم على استيفاء الحقوق الفئوية على حساب هيبة النظام.

ولهذا كان منع أحد الدعاة أو إيقاف محاضرة أو إيقاف درس يأخذ صدى أكبر بكثير من الواقع فيُعَنْوَن دائما للخبر بـ "السعودية تسجن العلماء"، من هم العلماء؟ هم شخص أو اثنين إذا تجاوزنا وصفهم بالعلماء وسلمنا بذلك تنزلاً فإنّ عالما أو اثنين ليسوا "العلماء".

الصحويون لم يربوا أتباعهم على هذه القيمة وساهموا في خلق حالة التمرد والتأفف من الحكومات وأفقدوا أتباعهم قيمة سنية كبيرة وهي

انتقل إلى الفهرس

الصبر على جور الحاكم وظلمه، فضلا عن اجتهاداته التي لا يمكن القطع بخطئها لأنّها من موارد الاختلاف في رأيهم وممارساتهم هم على الأقل.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

الانتقائية

من أمراض الصحوة كذلك مرض الانتقائية، وهو ما يسميه الشرع "اتباع الهوى"، إذ يصبح امتثال الأمر والنهي أو تطبيق القيم وامتثالها فضلاً عن الدعوة إليها راجعاً إلى الاختيار والهوى لا إلى القيمة ذاتها.

فقيمة العدل والإنصاف مع المخالف – مثلاً – تجدها عندهم تعمل بكل قوتها مع من يحبونه إمّا لديانته ولو لم يكن من حزبهم أو لكونه من الجماعة والمنهج ذاته.

لكنّها تتعطل تماما مع مخالفيهم أو من لا مصلحة لهم في تصديره.

واضرب لك المثال الآن باثنين من أسوأ المنتجات الصحوية، وهما قانونان حركيان تم توظيفهما بقوة في الدفاع عن أخطاء الرموز وتبييض سجلاتهم من الأخطاء أو مسح أو منع آثارها على الأتباع السذّج، الأوّل قانون: **"سُدّو المكان الذي سدّوا"**، الذي كان يصدح به خطيبهم المهرّج في كل محفل، فكل ما قيل فلان أخطأ فلان مبتدع فلان أشعري، معتزلي، شيعي، عقلاني، أو حزبي، إخواني، أو تبليغي [1] ينبري خطباؤهم بالمقولة:

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدّوا

والمعنى إمّا أن تقوم بما يقوم به أو أن تسكت عن نقده، وهذه قاعدة بدعية ما قال بها كتاب ولا سنة ولا مضى بها أثر، كل الصحابة أنكروا على بعضهم،

---

(١) وكل هذا لا تعييراً بل نصيحة لله ولدينه.

الصغير على الكبير، وقليل العلم على غزيره، والقاعد على المجاهد، لم نسمع أحداً يقول لأحد: إما أن تقوم بعملي أو تسكت عني، إذن أين النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم؟

وبطبيعة الحال المقصود بذلك إسكات أصوات السلفيين الذين ينكرون على الحزبيين أخطاءهم في العقيدة أو العمل أو غير ذلك، ويصورون لأتباعهم السذّج أنّ هؤلاء المنكرين عليهم هم أهل البطالة الذين يجيدون النقد فقط، هذا إذا سلموا من الحسد للعلماء العاملين – ويعنون به أنفسهم– ، فتجد الأتباع دائما يسوّغون ويسكتون ويمررون أخطاء الصحويين بذريعة: كل من يعمل يخطئ، قلنا: نعم، لا ضير من الخطأ، لكن العامل لله لا يأنف من التصحيح والإنكار عليه إذا كان عمله لله، فالنقد يصححه ويوجّهه ولو كان بأسلوب غير مقبول، فينكر الأسلوب إذا كان مخالفاً لكن الأصل فيه قبول النصح والتواضع للحق ولو صدر ممن صدر.

وهم لا ينزعجون إلاّ من دوام إنكار السلفيين عليهم، فهذا يزعجهم ويثير الغبار حولهم، وينبه المجتمع لما خفي من تجاوزاتهم، ولهذا يؤصلون أصولاً خاصة بهم وأنّ النصيحة وصلت فلماذا الإنكار المستمر؟ قلنا: ولماذا الإصرار على الخطأ؟

ورغم كل ما مضى، فإنّنا قد نقبل الدفع بمثل هذا القانون المبتكر لو أنّهم طبقوه على مخالفيهم، وطردوا العمل به على كل أحد، لكنّا وجدنا خلاف ذلك.

فهم دائبون الليلَ والنهار في نقد الحكومات والأنظمة والساسة وغيرهم، وانتقاصهم وتشويه سمعتهم واتهامهم في دينهم أو كفاءتهم.

لماذا لم يعمل هذا القانون في موقفهم من ولاة الأمور؟ لماذا لم يقل قائلهم:

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أو سدّوا المكان الذي سدّوا

هذا دليل اتباع الأهواء والانتقائية في تطبيق القيم التي يرفعون بها عقيرتهم، وسبب آخر: أنّ الأنظمة والحكام عندهم في صف العدو سواء تكفيراً لهم أو اتهامهم بالعمالة والعمل ضدّ الدعوة، فهذا القانون لا يستحقونه في رأيهم.

والمثال الآخر: قانون الموازنات الشهير، ويعنون به أنّ الحكم على الشخص يكون بمجمل حاله، إن غلب الخير فهو من أهل الخير وإن غلب الشر فهو من أهل الشر.

واستشهدوا له بنصوص من القرآن والسنة وآثار السلف.

ومع انّ هذا الكلام الذي ظاهره الحسن يحتاج إلى تقييدات ومحاذير، من أهمّها أنّ معرفة الغالب والأقل في هذا الجانب الشرعي يحتاج إلى ضبط، فالأمر ليس بالعدد ولا بالوزن، فلو أنّ رجلا ملأ ما بين السماء والأرض صلاحاً وعملاً متعدياً بل وفي مقدمة الصفوف جهاداً وصلاة وغير ذلك، ثم هو مع ذلك يدعو أو يجيز دعاء غير الله ما نفعه كل ذلك، لأنّ سيئة الشرك الأكبر لا يثقل معها عمل ولو كثر.

وغالب من ينشر هذا القانون المعيب ويرفع به صوته ويديه يفهمه فهما مغلوطاً، بمعنى أنّ الرجل إن كان كثير العمل الصالح وظهر منه خطأ فالأغلب هو الصلاح إذن هو منهم، والأمر خطأ كما مثلت آنفا.

وعلى العموم فليس هذا هو موضع النقد في هذا القانون، وإنّما في توظيفه، لأنّ هذا القانون وظفه الصحويّون وبقوة لردّ التهمة عن رموزهم المغموصين بالبدع الفكرية والاعتقادية والعملية، وكثير منهم أهلٌ للهجر وترك اتباعهم، وعدم تصديرهم، فإذا اشتد نكير أهل العلم عليهم قالوا اين العدل والإنصاف، ثم جاؤوك بأقوال السلف ونصوص القرآن.

فيلفتون أبصار الأتباع إلى جهة غير التي يتكلم منها العلماء السلفيون في التحذير من باطل أهل الباطل.

لأنّ تقييم الشخصية حسنات وسيئات شيء، والقيام بإنكار المنكر على صاحبه شيء آخر، وقد كان الصحابة ينكر بعضهم على بعض لا يتوقفون ولا يترددون ولم يكن أحد منهم يغضب لنفسه أو يقال له: إنّك لم تكل سيئته إلى حسناته ولم تعمل بمبدأ الموازنة؟

إنكار مقالات أهل البدع وخاصة الدعاة إليها لا علاقة له بما فيهم من الخير أو الشر، فحتى لو كانوا من سكان عليين في علم الله فإنّ الرد عليهم وذكرهم بما فيهم من البدعة ليحذره الناس واجب على من علم ذلك من العلماء.

أمّا الصحويون فجعلوا من القانون المعيب غطاء يسوّقون به لمقالات الرموز الدعاة منهم للمنهج المبتدع، فيظهرونهم بما فيهم من جوانب إيجابية،

فإذا قيل: إنّهم كذا أو كذا قالوا – إذا أعيتهم الحيلة – وإن كانوا كذا فخيرهم غالب ولهم سابق دعوة وجهاد، حتى يطمسوا على أعين الأتباع فلا يبصرون حقيقة الطريق التي يسوقونهم فيها.

ثم نأتي لموضع الانتقائية هنا بغض النظر عن صواب القانون من عدمه، إذ نجد هؤلاء العاملين به لا يرفعون به رأساً في حق مخالفيهم، سواء من ولاة الأمور والحكام والأنظمة أو من مخالفيهم من السلفيين، إذ إنك لن تجد لهم كلاماً في خير الحكام والأنظمة وذكر ما يصلح الله بهم من أحوال البلاد والعباد ويحفظ بهم الأمن ويقيم بهم الملة في جنب ما يصدر منهم من جور أو تقصير إن كان ثمَّ، لا بل تجد الطعن والذم بالمطلق وهذا قد نفهمه من زاوية أنهم في الأصل يعدونهم كفرة أو معادون للدين.

لكنا وجدناهم كذلك مع مخالفيهم من السلفيين وغيرهم، وهم حتى لو افترضناهم مبتدعة لن يكونوا أسوأ من الرافضة أو الأشاعرة والعقلانيين والصوفية الذين يمدحونهم دائماً بما فيهم من الخير الغالب – زعموا – من باب الإنصاف والعمل بمبدأ الموازنة، فأين هو من هؤلاء السلفيين المساكين؟ أين الموازنة لما فيهم من التمسك بالسنة والاهتداء بها والدعوة إليها أليس هذا مما يجب ذكره من الخير؟ أم أنّهم ليسوا في تصوركم إلاّ أعداء موالين للأنظمة الكافرة أو الجائرة، فحتى اليهود والنصارى بل وإبليس نفسه حظي منهم بنظرة تقييم شامل للحسنات والسيئات أما السلفيين الذين ينبزونهم بالجامية فهم في اعتقادهم شر خالص أو أنّه الهوى الذي يجعل الصحويين انتقائيين وبوضوح.

انتقل إلى الفهرس

وعلى العموم فالانتقائية سمة واضحة في الصحويّة حتى في بعض الذين تربوا على العلم والسنة، وجد فيهم أيضا انتقائية في مواقفهم من مخالفيهم، فتجد منهم شدّة في التعامل وسوء الظن بمخالفين من خارج مناطقهم مثلا، بينما تجد فيهم رقة ولطفا مع مخالفين من أسر معروفة بالعلم أو من مناطق معروفة بذلك، مع أنّ المخالف من هؤلاء قد يكون طرحه في غاية الشّذوذ والمحادّة لله ورسوله ودينه.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

الارتباط بالأشخاص

من الأخطاء والعثرات كذلك ربط الدين والمنهج والاستقامة بالأشخاص أكثر من ربطه بالحقائق العلمية والشرعيّة.

وهذه الخطيئة بالذات لم يسلم منها حتى السلفيين إلا من رحم الله، فأصبح الدين والتدين والعلم وسلامة المنهج مرتبطاً بأسماء معينة، ولو كانت هذه الشخصيات في مصاف من اتفقت الأمة على ديانتهم ومرجعيتهم لالتمسنا لهم العذر- ولا عذر- لكنهم للأسف مهما قيل عن فضلهم لا يرقى الواحد منهم لكبار علماء العصر فضلا عن أئمة السلف الذين يُقارنون بهم.

فالصحويون ربطوا الجيل في تدينه واختياراته وتصوراته ومواقفه بشخوص منهم، لهم بروز وذكاء وعلم لكنهم على ضلالة، خاصة في باب السمع والطاعة والموقف من المبتدعة، ولو سلمنا سلامتهم من هذا كله فالدين والتدين والتقوى لا يجوز ربطها بأحد من الناس بالغاً ما بلغ، إلا من شهد لهم النص من النبيّ ﷺ وأصحابه أو من اتفقت كلمة السلف على جلالتهم وإمامتهم من أئمة السلف.

أما المعاصرون فليس منهم أحد يبلغ أن يُربط به المنهج أو الديانة على فضل كثير منهم وبلوغهم مراتب عالية من الدين والتقوى والفقه في دين الله والتمسك بالسنة.

أما الأئمة الثلاثة الشيخ عبدالعزيز بن باز والشيخ محمد بن صالح بن عثيمين والشيخ ناصر الدين الألباني فهم طبقة خاصة ملحقون بأئمة السلف فيما اتفقوا فيه من أصول السنة وهم فيها كلها كذلك بحمدالله.

وأما ما وقع فيه بعض السلفيين من الارتباط بأسماء مشايخ أو علماء حتى لا يكاد يقدر أحد أن ينتقدهم في موقف أو قول إلاّ طالته سهام التبديع والتفسيق من سفهاء أتباعه.

فهذه حزبية من نوع آخر لا تختلف في نتائجها وآثارها على العلماء وطلبة العلم والدعوة عن الأولى إلا في مضامينها فقط وإلا فهي كتلك في إثارة الفتنة وإشغال الناس بما لا ينفع بل بما يضر وتفريق كلمة الناس وإيغار الصدور والصدّ عن سبيل الله للأسف الشديد.

وهذا كله كان ينخر في جسم الصحوة ويهيّء الحال لما حصل بعد ذلك، لأن سقوط رموز الصحويين وضعفهم لم يُقابل من هؤلاء بمن يسدّ مكانهم للأسف الشديد، خاصة وأنّ هؤلاء السلفيين الذين أشرنا لهم آل حالهم إلى التفرق كذلك واتهام بعضهم البعض على غير هدى، وبعضهم إنما اكتسب قيمته من رده على الجماعات الحزبية لا لعلم ولا لفقه.

لكن بحمدالله أنّه مازال في الأمة خير كثير من العلماء وطلبة العلم المحايدين ودعوتهم وطريقتهم وإن كانت هادئة بطيئة لكنها تؤتي ثمارها بإذن الله.

انتقل إلى الفهرس

الجماهيرية

اعتمدت الصحوية بشكل كبير على الجمهور وتعاطف الجمهور معهم لأنّهم يعبرون عن مشاعر المتدينة ويعتبرون شخوصاً للإسلام كما سبق أن قلنا، وقد وافق هذا هوى بعض رموز الصحوية لأنّ ذلك سيعطيهم قوّة ودافعية وحصانة ضدّ المخالفين لهم سواء من الحكام أو طلبة العلم السلفيين خاصّة.

وكان استغلال بعضهم للجمهور ماكراً، لأنّ الجماهير كما هو معروف لا تفكّر، ليس لها عقل، وإنّما تسير بالتوجيه والإيحاء وتتعاطف مع بعضها وتتجمهر حول فكرة تلقى إليها.

ولما كان الغالب على الجمهور الصحوي الجهل بشرائع الإسلام وأصوله الكبرى خاصة منهج السلف ومذاهبهم كان من السهل خداعه والتحكم به وتوظيفه في أمرين، الأوّل: توصيل رسالة الحزبيين ونشرها وكسب التعاطف معها.

والآخر: تصفية المخالفين لهم والوقوف في وجوههم بأساليب غير مشروعة من غيبة وبهتان وافتراءات وتشويه سمعة، فضلاً عن الاعتداء الذي وصل في بعض البلاد إلى القتل وهدم المساجد أو إغلاق المدارس.

جمعني بأحدهم مجلس وجرى في ذكر أحد رموز الصحوة الكبار ممن سلب لب الجماهير وأخذ بعقولهم كلامُه الجميل ومحاضراته الصاخبة في عناوينها ومضامينها، فكان مما جرى ذكر مخالفيه ممّن سماهم جليسي الجامية،

فقلت له: إنّ شدّة الجامية وعدوانها إن صحت التسمية إنّما هي ردة فعل على تصرفات الطرف الآخر، وذكرت له نماذج مما لقيه السلفيون من عنت ومشقة وعدوان لفظي وبدني، فقال لي: هذا لا يتحمله الشيخ فلان، قلت: بل يتحمله، لأنّ هذا الجمهور تربيته ونتاجه، ولو كان هذا لا يقع منه محل الرضا لحاضرهم كما يفعل في كل شيء محاضرة ونبّه وأنكر على أتباعه سلوكهم المخالف للشرع والنظام في معاملة المخالفين، كما كان النّبيّ ﷺ يربي أصحابه على ذلك إن حصل منهم جفاء أو عدوان على الكفار، وهذا مخالفوه من أهل السنة، فهو يرى أتباعه يفعلون ما يفعلون ولا ينبس بكلمة فما معنى هذا؟ فقال لي: بلى قد فعل، قلت: هات لي كلمة واحدة وسأعتذر لك علنا.

انفضّ المجلس ونسيت أنا الأمر، لكن جليسي لم ينس، إذ جمعني به مجلس بعد أسبوع أو نحو ذلك، فقال: والله لقد فتشت وتتبعت فلم أجد له كلمة واحدة ينهى عن سب مخالفيه أو الاعتداء عليهم، وهذا عجيب.

قلت: لا عجب، هذا أسلوب ماكر، يظهر للناس أنّه شخص عملي ناجح لا يهتم بمخالفيه وأنّه ينشغل بالعمل، لكنه يترك الأمر لأتباعه التصرف بكل صفاقة وسوء أدب، على قاعدة: "لابد لكل فقيه من سفيه" و "ذلّ من لا سفيه له".

وعودا على ذي بدء، فإنّ هذه الجماهيرية العمياء التي تربت على عاطفية التوجّه والتصرّف واتخاذ المواقف انقلبت عليهم في مواقف عدة لمّا غير بعض الرموز أفكارهم وبدلوا بعض فتاواهم وطوروا أفكارهم فكفّرهم بعضهم وفسّقهم آخرون، ولكن ذلك لا يهم، لأنّ الجمهور الأعظم من

الأتباع ما زال يكسب أكثر مما يفقد، خاصة بعد أن أصبح كثير من الصحويين أكثر سيولة من الماء الرقراق في مواقفهم من مخالفات شرعية وعقدية كانت تحرمهم من جمهور عريض، ثم غيروا فاكتسبوا قواعد شعبية جديدة، فتبدلت الأشكال والطرائق، وانقلب بعضهم من الدعوة الشرعية إلى الإصلاح الاجتماعي الذي فكّ قياده من بعض القيود الشرعية اللازمة للعالم، وهذا أكسبهم قبولاً عند فئات جديدة من الشباب خاصة والنساء على وجه أخص ممّن لا يحمل عقيدة ولا فكرا دينياً، وإنّما أصولاً عامة في الإصلاح الاجتماعي والتغيير السياسي.

وهذا النوع أشدّ خطورة من الجمهور الأوّل، لأنّ الأوّل عاطفته دينية فيمكن توجيهه شرعيا على الأقلّ، أمّا الجمهور الجديد فلا دين له، وعاطفته تغييرية ثورية على الواقع، يُشحن بمبادئ دينية ولا شك لكنها ليست الأساس، وهذا يعني أنّ الصحوية نكبت البلاد العربية بأجيال من الجماهير التي استخدمت فيما بعد في موجات الفوضى الخلاقة التي اصطلح على تسميتها بالربيع العربي.

وهذه الجماهير تشبه الشخص الجاهل المتغطرس الذي لا يعلم، ولا يعلم أنه لا يعلم، فهذا يصعب التحكم به أو السيطرة عليه.

هذا هو نتاج الصحوية، أمّا السلفية بعلمائها ومنهجها فتربي العلماء وطلبة العلم فرداً فرداً، كل منهم له عقله وعلمه بالله وبدينه، ولديه أصوله الشرعية التي تحكم سلوكه ومواقفه وردّات فعله وتفاعله مع كل ما حوله، منضبطا

انتقل إلى الفهرس

في ذلك كله بضابط الكتاب والسنة أولاً، وبضابط تقديم أهل العلم وتصديرهم في الملمات وعدم التجاوز والافتئات عليهم في الأمور العامة.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

الجهاد ومفهومه

عندما نتحدث عن الجهاد في الإسلام ونراجع أصوله الفقهية والشرعية والنصوص وسيرة النّبيّ ﷺ وأصحابه، يصيبني الضيق والأسى على ما آلت إليه حال الأمّة ببلدانها المتعددة بسبب الفهم المنكوس لشريعة الجهاد في الإسلام.

لم تتعرض شريعة من شرائع الدين في العصر الحديث إلى المسخ كما تعرضت له شريعة الجهاد في سبيل الله.

والعجيب جدا أن تتعاون على ترسيخ المعنى المشوّه في عقول أجيال المسلمين الفئتان المتناقضتان: الكفار المحاربون للإسلام، وغلاة المسلمين من الخوارج ونحوهم المحاربون للكفار.

أمّا الخوارج فالسبب مفهوم، وهو ضلالهم وجهلهم واتباع الأهواء.

وأمّا المحاربون للإسلام فلأنّ هذه النسخة الممسوخة من شريعة الجهاد ستكون منطلقهم لأمرين: الأوّل: تشويه صورة الإسلام بعامة وتقديمه للعالم ديناً دموياً غايته سفك الدماء ونهب الأموال واغتصاب النساء.

والأمر الآخر: اتخاذ ذلك ذريعة لاستهداف البلاد المسلمة ومحاصرة الإسلام والمسلمين تحت ذريعة التخوّف من الإرهاب والعنف.

وقد نجحوا في ذلك كثيرا خاصة منذ تأسست - وأُسّست- بشكل رسمي منظمات جهادية كالقاعدة ومن ثم داعش وقبلهم الإخوان وأذرعهم المسلحة في الشام ومصر وغيرها.

وحتى نفهم كيف تعرضت هذه الشريعة للمسخ والتشويه لابد أن ننظر إلى التشريع الإسلامي كيف بدأ منذ أن أعلن النّبيّ ﷺ التوحيد على الصفا بمكة وحتى انتهى بموته ﷺ بعد عشرين عاما على تلك الدعوة.

عادة ما أكرر لفت النظر إلى أنّ الأحكام الشرعية ليست قِطَعاً منفصلة يمكن دائما أخذ واحدة وترك الأخرى، بل بين كل قطعة وأخرى رابط ما، يدركه الفقهاء ويبصره من استغرق النظر في النصوص التشريعية وسيرة النّبيّ ﷺ وأصحابه في امتثالها.

لم ينزل القرآن جملة واحدة بكل ما فيه من أحكام، بل نزل مُنَجّماً بحسب مناسبات قدّرها الله تعالى، ومن أعظم أسباب هذا التنجيم في نزول القرآن أن ترتبط الأحكام بظروفها المكانية والزمانية وشخوصها كذلك، ارتباطاً يجلّي حكمة التشريع المنزل، ويجعل القرآن في كل مرة على مر التاريخ الإسلامي حاضرا في كل حادثة كأنّه ينزل فيها في وقتها.

وهذا ما يدرسه العلماء في أسباب النزول، وفي أثر السبب في عموم أو خصوص الآية كلام للعلماء لكنهم متفقون على أنّ السبب وكل صورة مطابقة له يدخل دخولاً أولياً في الآية التي نزلت بيانا لحكمه.

لذلك فالأحكام الفقهية مترابطة يؤثر بعضها في بعض، وهذا التأثير قد يكون ثانوياً بحيث لا يؤثر على أصل التشريع، وقد يكون قوياً بحيث يؤثر في أصل التشريع، فيعطله أو يقيّده.

ولابد من ملاحظة هذا الأمر لكل من يفتي في الأحكام وخاصة النوازل، لأنّ إغفال هذا الأمر يؤدي إلى عكس مقصود الشارع، إمّا بتعسير الدين في محل التيسير، أو العكس.

وانتزاع أحكام معينة من الشريعة لتطبيقها بحذافيرها دون مراعاة سوابقها ولواحقها وترتيبها في خط الزمن التشريعي نوع من الصدّ عن سبيل الله ويلقي في نفوس الناس الوحشة من الدين والنفور عنه.

كمثال بسيط: جلد الزاني وتعزير المتحرش، حكم شرعي لا غبار عليه، لكنه لم ينزل هكذا مفردا دون تمهيد، لأنّ الزاني والمتحرش قد يكون أحيانا ضحيّة وليس جانيا، كيف ذلك؟

عندما أراد الله تعالى حماية المجتمع من رذيلة الزنا وتوابعه فإنّه أولا مهد له بأحكام تمنع وقوع الجريمة فقطع أسبابها، فحرم النظر للمرأة مثلا، ومنع المرأة من إبداء زينتها سفورا وتبرجا، ومنع اختلاط الجنسين بلا سبب مشروع، وأمر المرأة بالقرار وعدم الخروج من البيت لغير حاجة، ونهاها عن السفر بلا محرم، ونهاها عن الخضوع بالقول، إلى آخر الأحكام المعروفة في كتب الفقه والآداب.

فإذا امتثل المجتمع المسلم هذه الآداب والأحكام ثم وجد من يبحث ويفتش عن الفاحشة ويقع فيها فهذا الذي يستحق الجلد والتعزير.

أمّا أن نخلي بين الناس وبين ما يشتهون من اختلاط بين الرجال والنساء وتفعل النساء ما شاءت من تبرج وسفور وسفر بلا محرم ويتم تجميد الأحكام الشرعية في هذا الجانب بالكامل، ثم نأتي لشاب فيه كل أسباب الرجولة والشهوة متوافرة لا يكاد ينظر يمنة أو يسرة في سوق أو مكان عمل أو تعليم إلاّ وقعت عينه على سافرة وربما عارية، ثم إذا تحرش أو زنى أخذناه بالشريعة فجلدناه أو رجمناه؟ هذا منتهى الحيف، ولا يمت للشرع بصلة.

وليس هذا من باب ما لا يدرك كله لا يترك جله، لأنّ هذا الحكم مرتب على هذا، والشريعة تراعي حال الجاني والأسباب المهيجة له على الخطأ، ولا تلقي بالمسؤولية الكاملة على الجاني إلاّ إذا تكاملت اركان الشريعة في الحال المنظورة.

فتراها مثلا لا تقطع يد السارق إذا سرق مالاً لم يحرزه صاحبه، ولا تقطعه في مال يسير أو مال محرم كخمر أو خنزير.

وكل هذا بالطبع لا يخلي الإنسان من مسؤولية مّا بطبيعة الحال ولا أقول إنّه لا يُجرم أو يحاسب، لكنّه أولاً: لا يعامل معاملة المنتهك للحد الشرعي.

وثانيا: لا يُنسب ذلك للشريعة لأنّ الشريعة لا تُطبَّق بهذا الوضع أبداً.

هذه لمحة سريعة أردت بها تصوير ما قدمته لك من ترابط الأحكام الشرعية العملية خاصة في باب المعاملات.

نعود الآن للجهاد وشريعة الجهاد المظلومة، إذا تصفحنا أدبيات الجماعات القتالية التي تتذرع بإحياء شريعة الجهاد، وأدبيات رموزها

ومشايخها الشرعيين نجدها تختصر الجهاد في غايتين: النصر أو الشهادة، ويعنون بالنصر تحقيق هدف العمل العسكري ولو في عملية واحدة.

ويستشهدون دائما بقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ﴾[التوبة:٥٢].

وهذه العبارة الشرعية الجميلة بمضمونها المحرّف عند الغلاة والتكفيريين في عصرنا حوّرت مفهوم الجهاد فقلبته من وسيلة إلى غاية.

إذ غرّوا الناشئة بنصوص القرآن والسنة التي تثني على الجهاد وتجعله ذروة سنام الإسلام وما للشهيد عند الله من خصال، وغير ذلك، وهي نصوص صحيحة صريحة لا غبار عليها، لكن كما أشرت سابقا، هذا كله للشريعة التي تأتي في محلها المناسب بأحكامها وأسبابها وظروفها التي تشرّعها.

لا أن تكون هدفاً وغاية، فإذا لم يكن قتالٌ افتعلناه بأيّ ذريعة، حتى أصبح مجرد الكفر ووجود الكفار ذريعة لافتعال القتال، وأنا لا أتحدث هنا عن القدرة فقط، بل أتحدث عن التشريع من زاويته الواسعة، فحتى لو فرض وجود إمام مؤمن يحكم الشرع فليس بالضرورة أنّه سيبدأ بقتال الكفار أو يجوز له ذلك!

وعلى العموم فهذا ما حصل، فأصبح غاية منى الشاب إذا اهتدى، بل أوّل قناة يُدلّ عليها ويُشجع عليها هو الذهاب للجهاد طلباً الشهادة والتطهير من الماضي السيء.

وتحت عبارة "النصر أو الشهادة" فإنّ أي شاب أو مجموعة سواء في بلاد الكفار أو المسلمين يمكنه البدء بأي عمل عسكري يستهدف كافراً حقيقياً أو مرتداً من حكومات البلاد المسلمة – في رأيه– فإنّ هذا في عرف أصحابه جهاد صاحبه يأرِز بين الحُسنيَين: النصر أو الشهادة.

هذه النظرة السُّفلية الدونية للجهاد هي التي احتضنت مجاهدي القاعدة وداعش الذين انتشروا في بلادنا فقتلوا حتى آباءهم وأمهاتهم، وهم في ذلك ضامنون على الله إحدى الحسنيين.

الجهاد ليس كما صوّره الجهلاء الدخلاء، الجهاد قيمة عظيمة حين يكون مشروعا، أمّاً إذا لم يشرع فهو بلاء ومأثمة.

لا يوجد عمل أفضل من الصلاة، لكن صلاة الحائض مأثمة، والصلاة وقت النهي مأثمة.

وقراءة القرآن عمل عظيم لكن التفرغ له على حساب عصيان الوالدين مأثمة، أو قراءته في الركوع كذلك.

فنصوص الجهاد وفضائله تتحدث عنه حين يكون مشروعاً بأسبابه الشرعية والواقعية.

بدليل أنّ النّبي ﷺ لم يجعله عملاً مقصوداً لذاته فقال: «**لا تتمنوا لقاء العدوّ**» ولو كان مقصودا لذاته لما قال لهم ذلك، مادام الأمر دائراً بين الحسنيين!

ولو كان القتال مقصودا للحسنيين فقط لما رضي في صلح الحديبية إلاّ بالقتال، ولما رضي في غزوة تبوك إلاّ بلقاء الروم والإيغال في أرضهم ولم يرجع بدون ذلك.

الجهاد وسيلة لتحقيق هدف وغاية، إذا لم يحققها فلا تُشرع، أو إذا تحققت بدونه فلا يُشرع كذلك.

دعني الآن أوضح لك كيف يكون الجهاد مشروعا، لاحظ أنّ الفترة المكية لم يُشرع فيها الجهاد بل كان ممنوعاً، ثم في المدينة سمح به ثم أمر به بعد ذلك.

وكل تلك الأحكام من منع وإباحة أو أمر نازلة بحسب معطيات مرحلية، يهمنا الآن أن نعرف كيف كانت مرحلة المدينة سبباً في تشريع الجهاد طبعاً بشروطه وأسبابه كما قلنا.

أكبر مؤثر في تغيير الحالة الحكمية للجهاد في المدينة هو وجود الكيان السياسي، أي كيان الدولة بشكلها القانوني، ولو كانت في وقتها صغيرة، وبدائية ومحدودة، لكن أصبح للمسلمين قائد سياسي وليس نبيا فقط يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

يتميز الكيان السياسي بميزة الثبات والاستقرار، بمعنى أنه يصبح عاصمة يتوجه لها الولاء السياسي والعهد والميثاق.

وهو عرف سائد منذ القدم، بعكس الكيان العسكري فهو مهما كان قويا ليس له استقرار ولا ثبات.

ولهذا فأي جيش أو كيان عسكري لا يمكن أن يكون لما يحققه من انتصارات على الأرض من نفع إلاّ إذا كان له مرجعية سياسيّة مُعترف بها، وإلا فهو يخسر غدا ما كسبه اليوم.

ولهذا لا تتفاوض الدول عادة مع الميليشيات لأنها لا تعود إلى قيادة سياسية معترف بها، وإنما تتفاوض مع الدول ولو كانت بينها حروب عبر قياداتها السياسية المعترف بها.

ولهذا أصبح النبي ﷺ في المدينة يراسل الملوك ورؤوس القبائل ويرسل السرايا والبعوث، وكلها كانت ترجع إليه بمكاسبها سواء كانت مالاً أو أرضاً أو بشراً.

وهذا ما جعل إذن الإمام شرطا في الجهاد، لا يكون الجهاد مشروعا بدونه، لأمرين مهمين:

الأوّل: أنّ القتال بدون إذن الإمام افتئاتٌ عليه وتوريط للأمة أو البلاد في حروب قد لا تكون مستعدة لها ولا هي في مناط القدرة.

ولا يستطيع أحد من الناس تقدير مصلحة القتال من عدمه والقدرة عليه إلا القيادة السياسية التي يجتمع عندها المعلومات من الخبراء وأهل الرأي والحل والعقد، فتقرر بناء على ذلك الحرب أو عدمها بحسب المصلحة.

الثاني: أنّه حتى لو قيل بعدم اشتراط إذن الإمام شرعا فإنّ القتال العسكري ولو حقق من الانتصارات ما حقق لن يكون له فائدة بدون جهة سياسية تقطف ثمرة النصر وتوظفه لصالح الأمة بعامة أو البلد بصفة خاصة.

ولهذا ترى الجماعات التي لا ترجع إلى جهة سياسية تعترف بها تظل في قتال دائم لا ينتهي مهما حققت من انتصارات نوعية لأنها تخسر ما تكسب وتكسب ما تخسر، إذ هي في قتال لا ينتهي أو أن يُستأصلوا وينتهي مشروعهم العسكري.

بينما تجد الجماعات القتالية في كثير من البلاد خاصة التي استعمرت من قبل الأعداء تجد لكل فصيل قتالي فصيلا سياسيا يفاوض ويوظف النصر العسكري لكسب الاعتراف السياسي أو الحقوق السياسية.

وهذا شأن كل من يقاتل بغض النظر عن دينه أو أهدافه.

والإسلام في تشريع الجهاد لا يذهب بعيدا عن الواقع، ولهذا اشترط إذن الإمام، إذْ لا فائدة من جهاد لا تعترف به جهة سياسية وتتبنّاه، إلا أن يكون محرقة للمسلمين الذين يشاركون فيه مُغَرّرين بعبارة "النصر أو الشهادة".

ومن هنا نعرف جناية الفكر الخارجي في أمر الجهاد وأنّ تصورهم عن الجهاد وفريضة الجهاد مشوّهة للغاية وليس فيها إلاّ الفوضى.

وهذا ما جعل مشاريع الجهاد المزعوم في العصر الحاضر غالبها مشاريع استنزاف للدول الإسلامية وتخريب لها ومحرقة للشباب المسلم المغرر به في أتون الحروب التي يكونون فيها مجرد أدوات يصفي بها المختلفون حساباتهم مع بعضهم.

ثم إن الجهاد كما قلنا ليس غاية في ذاته بل هو وسيلة، وإذا فرض القدرة على تحقيق المقصد الشرعي منه كلّه أو غالبه فلماذا افتعال البؤر القتالية أو الجهادية كما يسمونها؟

إذا لم تمنع الدولة الكافرة المسلمين من الاستيطان أو الإقامة بها ولم تمنعهم من إقامة شعائر الدين فيها ولم تمنعهم من الدعوة إلى الإسلام وتركت للناس حرية المعتقد فهل من الحكمة – وحال المسلمين الآن من الضعف والتفرق- أن يتم إرسال بعثات المجاهدين لقتالهم؟

وهل أسلم كثير من الناس إلاّ بالدعوة وبعثات التجار والمتعلمين لتلك الدول؟ وقد أخذ رسول الله ﷺ من بعض الكفار الجزية وأقرهم على بلادهم وهذا معلوم في السيرة.

الجهاد ماض إلى يوم القيامة

قوله ﷺ: «**الجهاد ماض إلى يوم القيامة**». هو مما يستدل به منظروا الجهاد العبثي على مشروعية ما يفتعلونه من التخريب والتجمع في أي مكان فيه فتنة ليزيدوا نارها اشتعالا، ويفهمون من هذا أنّ الجهاد والقتال يجب أن يظل مستمرا حتى لو لم توجد أسبابه افتعلوها.

وهذا خطأ، أولاً: لأنّه لم يصح حديث بهذا اللفظ، وما ورد في معناه فكله ضعيف لا يصح منه شيء.

وثانيا، أن قول العلماء بأن الجهاد ماض أنّ مشروعيته مستمرة إلى يوم القيامة، وهذا صحيح فما دام في الأرض إسلام وكفر فالجهاد واحد من الأحوال التي تصير إليها العلاقة بين المسلمين والكفار، لكن ليس معنى هذا أنّه يجب أن يبقى واقعا دائما كما يتصور هؤلاء.

فإذا وجدت أسبابه الموجبة له جاز وإلا منع. شأنه شأن سائر شعائر الإسلام المبنية على أسباب لمشروعيتها.

ويدل على هذا ما صح من قوله ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو**» ولو كان القتال مطلوباً لذاته لما كان للنهي موقع.

وأعدّوا!

كما يحتج بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾[الأنفال:٦٠] ، وهذا لا حجة لهم فيه لأنّ الإعداد لا يعني استعمال القوة، بل المقصود ردع العدو إذا علم أنّ المسلمين فيهم قوة واستعداد. والقدرة على الدفع لو فرض أن العدو فاجأ أهل الإسلام في ديارهم. بدليل قوله تعالى بعد الآية مباشرة: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الأنفال:٦١].

أمّا قوله ﷺ: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**» وذلك قاله بعد غزوة الأحزاب، فهذا ليس قاعدة عامة مطردة، فقد كان النّبيّ ﷺ في تلك الأزمنة في حالة حرب معلنة مع قريش وأحلافها، فإذا كان العدو معلنا للحرب على الدولة المسلمة جاز لها مباغتته وحربه وغزوه، وليس هذا متحققا في كل وقت، ولهذا أجاز الإسلام وعلماء الإسلام أن يكون بين المسلمين والكفار العهود والمواثيق على وضع الحرب وترك القتال ولا يتعارض هذا مع بقاء مشروعية القتال.

ومن جهة أخرى فلو فرض أن الحديث يدل على الغزو المستمر فهذا قرار يتخذه ولي الأمر ولا يجوز أن يأخذه غيره ولو نكل هو عنه لاجتهاده أو

لجبنه، فهو قرار سيادي للأمة عبر ولي أمرها لا يجوز لفئة منها أن تتخذه بلا تفويض.

ولو تأمل المتأمل في سيرة النبي ﷺ وجد أنه بعد الهجرة انصرف لبناء الدولة في الأصل وإرساء قواعدها ودعوة الناس، ولم يتفرغ للصدام مع قريش في حرب مباشرة، بل كان ذلك قدر من الله تعالى، في غوة بدر قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[الأنفال:٧].

وفي صلح الحديبية كذلك كما سبق لم يحرص ﷺ على القتال ورضي بالصلح ووضع الحرب عشر سنين.

الحالة السياسية تغيرت اليوم عما كان عليه الحال في السابق، فلم يكن هناك نظام دولي يمكن العمل فيه بهدوء رغم المناكفة والكيد، لكن العالم متعدد الأقطاب كما يقال تهيمن عليه منظمات وعهود ومواثيق تمنع من عدوان دولة على أخرى ولا يكون هذا إلا بشق الأنفس. حتى مع قوة المعتدي وضعف المعتدى عليه. لم يعد هناك حالة الدولتين أو الثلاث فقط.

في بناء الدعوة والدولة ولا حاجة إلى العمل في إقامة الخلافة، فالخلافة ليست نصا ولا فريضة مقصودة لذاتها، حتى يُضحى لأجلها بمكتسبات وثروات الدول الإسلامية ويلقى بها في أتون الحروب والفوضى وتسليمها للعدو تحت شعار إقامة الخلافة ورفع راية الجهاد!

الجماعات الجهادية المزعومة تغوّل في تصورها وفهمها مفهوم الخلافة ليصبح مشابها إلى حد بعيد مفهوم الإمامة عند الشيعة، الذين جعلوه أساس الدين ولأجله قامت الديانة كلها.

وهذا مخالف لفهم علماء الأمة من السلف والخلف ومن تأمل التاريخ وأقوال العلماء والأئمة وسيرهم وتعاملهم مع الأحداث عرف هذا يقينا.

ومن احتج بنصوص للفقهاء في كتبهم مما يفهم منه وجوب استمرار القتال مع الكفار خاصة في التخوم والثغور، فقد غفل عن أن تلك النصوص كلها لا ترجع إلى نص يوجب ذلك بل هو راجع إلى تقدير ولي الأمر.

والنظام العالمي اليوم تحكمه مواثيق وأنظمة يختلف عن السابق، والتزام الدول بها واجب متحتم ومنها الدول الإسلامية، وهي دول ضعيفة عسكريا وسياسيا أما تكتل دول الكفر بل وأمام بعضها منفردة مثل أمريكا مثلا.

فلا يمكن القبول اليوم بقول من يوج على دولة مسلمة أن لا يبرح حاكها مناوشا ومحاربا لدولة كافرة متاخمة لبلاده بحجة ما ذكره بعض الفقهاء في كتبهم.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

العلماء

من الدعاية التي يروجها الصحويون ضد الحكومات والأنظمة أنها تقتل العلماء وتهين العلماء وتسجن العلماء ولا تقدر العلماء..أعني علماء الشريعة بالطبع.

وقبل أن أدلف للمقالة لابد من الإقرار أن بعض العلماء في بعض الدول لقي عنتا وسجنا وظلما وإهانة هذا صحيح، وهذا لم يخل منه دور من أدوار التاريخ بعد عهد النّبيّ ﷺ والخلفاء الراشدين، وقصص الحجاج مع العلماء بل وبعض الصحابة معروف.

ومن مارس الحكم لابد أن يصطدم ببعض العلماء بتأويل أو غير تأويل ونتيجة هذا بالطبع سيكون ضد العالِم وقد مر بنا خلاف معاوية مع أبي ذر ومع عبادة، لكن هل يعني هذا أنّ الحالة العامة في بلادنا هي ضد العلماء سجنا وإهانة؟ هذا غير صحيح ألبتة، لا في الدولة الأموية ولا العباسية ولا من بعدهم حتى عصرنا هذا.

صحيح وجدت فترات مرت على بعض البلاد تولى فيها زمام الأمور حكام ظلمة لكن حتى هؤلاء لم يكن هذا صنيعهم مع كل العلماء وإنما مع بعضهم. أما الحالة بعامة فإن العلماء موجودون يعلّمون ويُفتون في كل بلاد العرب والمسلمين.

لكن دعنا نسأل سؤالا مهما هنا لهؤلاء الذين يرفعون "قميص" العلماء: مَن هم أوّل وأكثر من أقصى العلماء في السعودية وعزلهم وعزل عنهم المجتمع بأطيافه؟ خاصة الشباب؟

من الذي جيش ضدهم الجماهير بأسلوب ماكر وخبيث بذريعة أنّهم علماء تقليديون لا يفقهون الواقع ولا يصلحون لقيادة الأمة وأنهم علماء سلطان وبلاط وأنهم أهل دنيا لا يطلبون بعلمهم الآخرة وإنما المناصب والمال والشرف، والصالح منهم مغفل يستغفله الحاكم ويوظفه لتشريع كُفْره وفسوقه.

هذا هو ما كان يردده الحركيون عبر وكلائهم من سفهاء الناس بعضهم من الجهاديين وبعضهم من قادة الجماعات السياسيين، وتلقف هذه الدعاية كل من أراد إقصاء العلماء، فالاقتصادي المرابي يردد ما ردده الحركيون أن العلماء التقليديين لا يعلمون الواقع الاقتصادي ولا يصلحون للفتوى في الاقتصاد المعاصر، ونحو ذلك يقوله الاجتماعي والسياسي.. الخ.

الصحويون هم الذين تولوا كبر هذا السجن للعلماء لا في سجون حسية وإنما في سجون معنوية عبر التزهيد بعلومهم وفهومهم ومناهجهم. وأصبحت ترى الآلاف المؤلفة في درس فكري أو محاضرة تربوية لصغار الصحويين فضلاً عن كبارهم، بينما لا يحضر دروس العلم عند العلماء الكبار إلا عشرات.

إنها يد الصحويين الملطّخة بهذا العار، ولمّا فعلوا ذلك تسلّط على العلماء المتنفذون وأرباب الثقافة والعلمنة، لأنهم سمعوا وشاهدوا كيف أصبحت

انتقل إلى الفهرس

قيمة العالم عند القاعدة الجماهيرية من المتدينين أنفسهم، وإلاّ فقبل ذلك من كان يجرؤ على الاقتراب من العالم.

ولم يكن يرد على ألسنتهم ذكر العلماء الكبار إلاّ في سياق الدفاع عن مواقف وانحرافات الصحويين التي يلبسون بها على بعض العلماء ممّن استخفوه فأطاعهم.

ومواقف الصحويين ضد العلماء وعزل العلماء ظلت نوعا من المداراة والمداهنة، لكن لما جاءت فرصة للانقضاض على الحالة السياسية في البلاد الخليجية بالذات وتقويض أركان الحكم فيها لم يصبروا أن يظهروا حقيقة ما انطوت عليه قلوبهم وصدورهم، فأظهروا الشقاق للعلماء واستخفوا بفتاويهم ومواقفهم التي صدرت عن عِلم السنّة وحكمة الكبار، ولنتذكر جميعا ما فعلوه إبان غزو صدام حسين للكويت وكيف وقف الإخوان مع صدام لأنّه في تصورهم سيقضي على الحكومات الخليجية وعلى رأسها الحكم في المملكة، لتخْلُو لهم الساحة، ولم يقصّر السروريون في المحاضرات المتتابعة التي تلمز قناة العلماء الكبار مرة بمداهنة السلطان ومرة بالجبن، ومرة بعدم الفقه في واقع الحال واستغفال الحكام لهم، وانبروا هم ينشرون الفتوى المضادة بعدم جواز الاستعانة بالكفار وصوروا الأمر على أنّه احتلال للبلاد وأن أمريكا لن تخرج من بلادنا بعدها وأنها وضعت يدها على مصادر النفط... الخ ذلك التخويف والإرجاف الذي عايشناه.

وكان بعضهم يتحدث مرارا عن القواعد العسكرية وضخامتها وأنها لم تُبن للجيش السعودي وإنما لجيوش أخرى يعني أنها قواعد عسكرية

للقوات الأمريكية وغيرها، وأما العلماء فما أهين علمهم ولا اتُّهمت أفهامهم ودينهم على يد أحد كما حدث ذلك على يد الصحويين.

وبعد أن انقشعت الغمة وخنست أصواتهم وانكشف كذب وزيف ادعاءاتهم وظن الجميع أنهم تحولوا عن تلك القناعات خاصة بعد أن غير بعضهم جلده وأصبحوا مصلحين اجتماعيين وأصبح لهم برامج في القنوات الفضائية التي كانوا يرمونها بالنفاق والكفر ربما، فتغيرت الأشكال وقصرت اللحى وفتحت نوافذ يطلع منها الناس للحياة الخاصة لبعض رموزهم وتغيرت فتاوى كثيرة. وقال الجميع لعله تحوّل عن الخط السابق واعتدال ونضوج بعد طيش وسفه، وقال السلفيون: بل هو كُمون واستعداد لمرحلة أشد وأنكى.

وبالفعل ما إن هبت على البلاد العربية رياح الفوضى عبر ما سمي بالربيع العربي إلا وتلك الوجوه نفسها ومعها كثير من الأتباع الذين كبروا وأصبحوا مشاهير إذا هم خطباء الفتن ومروّجوا الشائعات ومهيّجوا الشعوب للثورات والفوضى وخراب بلدانهم، وأما كل من عارضهم من العلماء الكبار فعادوا لنفس الأسطوانة المشروخة القديمة أنهم علماء سلطان أو أنهم لا يفقهون واقع الأمة وأن الأمة انعتقت من نير السلاطين الظلمة إلى آخر ذلك الهراء، إذ تبين فيما بعد بحق وحقيقة من هم الحمقى ومن هم الذين علموا الواقع حقا بعد أن خربت بلاد المسلمين وسلمت لأعدائهم ثروتها وقيادها.

انتقل إلى الفهرس

إنّ هذا الموقف العقدي والمنهجي الذي وقفه الصحويون ويقفه أتباعهم الآن ليس مجرد انفعال وقتيّ له مسوغه الوقتي، لا بل هو موقف منهجي وعقدي صادر عن موقفهم أصلاً من الحكومات والأنظمة وتكفيرهم لها ولكل من يعمل فيها أو معها ومنهم العلماء، ولهذا فلا يصدّقنّ أحد أبدا دعايتهم الكاذبة أن الحكومات العربية تسجن العلماء وتمنع العلماء إنما هي تمنع وتسجن دعاة الفوضى ولو كانوا برسم العلم وإلا فالواقع أنّ غالبهم بعيد عن هذا الوصف ولا يدخل تحته أصلاً إلاّ من منظور الصحويين لا غير.

❁ ❁ ❁

الدنيا

كانت فترة الصحوة فرصة عظيمة للدعوة، توافرت لها أسباب النجاح، وتوفرت للدعاة معطيات لم يحلم بها من كان قبلهم، من وفرة المادة والدعم حتى من الحكومات والدول وأرباب الأموال.

لكنهم – إلا من رحم الله - للأسف ضيعوها بأسباب التنافس على الدنيا، نعم الدنيا، التنافس على الشرف والأموال والمناصب، الذي أدى بهم إلى أن يبغي بعضهم على بعض، وأرجو ألاّ تستعظم مثل هذا الكلام، فقد عاتب الله أصحاب نبيه ﷺ لما حصلت أحداث معركة أحد فقال: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾[آل عمران:١٥٢]، فكان ابن مسعود يقول: «ما شعرتُ أن أحدا من أصحاب النبي ﷺ كان يريد الدنيا وعرَضَها، حتى كان يوم أحد».

فإذا كان هذا في أصحاب محمد ﷺ فكيف بنا بعدهم بأربعة عشر قرنا؟!

إرادة الدنيا والتنافس عليها كانت جلية لكنها كانت متجلببة بمصلحة الدعوة تارة ومصلحة الجماعة تارة ومصلحة الأمة تارة أخرى.

وكان، أعظم تجلياتها الحزبية والحمية لغير الله بل الحمية الجاهلية للشيخ، والحزب، والجماعة، وهذه كتلك تتقمص الحمية للدين، وليست كذلك، قال الإمام محمد بن عبدالوهاب تعليقا على حديث إعطاء الراية في خيبر لعلي

بن أبي طالب: «التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً لو دَعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه».

كانت هذه حالة سائدة رغم أن لا أحد من أطياف المرحلة يعترف بها، حتى قطاع كبير من السلفيين الذين يفترض أنهم أبعد الناس عن الحزبية والتنافس على الدنيا هم كذلك وقعوا فيها، ظهر ذلك عبر مؤشرات عديدة.

تدفق المال بكثرة في أيدي قطاعات كثيرة من العاملين في الدعوة أو الإصلاح الاجتماعي، وبسبب ما سبق أن ذكرته في الكلام عن الصحوة تسنّم كثير من مقربي الصحويين المناصب في المؤسسات الدعوية والتعليمية وقطاعات حكومية مدنية وحتى عسكرية.

وكل هذا شكل عامل تنافس وصراع على مواقع الثراء والمال والنفوذ في الظاهر لأجل حماية الدعوة ومصلحتها وفي الباطن لأجل الحزب والجماعة والأفراد وذويهم فقط.

ولهذا شهدت المرحلة قنوات فضائية خاصة، فكل شيخ من هؤلاء له من يموّله ويصرف عليه زكواته، فبدلاً من الاتحاد والتكتل [1] في عمل واحد يكون منصة للصوت الشرعي، وجدنا قناة يديرها الشيخ فلان، وقناة أخرى يديرها الشيخ فلان، ومجموعة يديرها فلان، بعض القنوات عبارة فقط عن محاضرات ودروس، والمصيبة أنهم نفس الوجوه ونفس الأشخاص يظهر

(١) رغم أنهم أكبر مروجين لأهمية التكتل والاجتماع لكن هذا فقط إذا كان الهدف تسويق المبتدع والسكوت من باطله.

هذا على قناة ذاك ويظهر ذاك على قناة ذا، وتجد العاملين في القنوات غالبا هم مجموعة الشيخ من أبناء وغيرهم.

وتجد بعضهم ينفق المال على إنتاج رخيص هو مجرد متلفة للمال، ولو وضع مع أموال أخرى في إنتاج ينافس الموجود في الساحة لكان أفضل، لكنها الفردانية والخوف على المال أن يتسرب إلى الغير.

ولذلك فقد الجمهور نفسه ثقته في هؤلاء، فإذا كانت مجموعة إعلامية تسلمها شيخ معروف تخصص قناة أطفال تبكي المشاهد من ضحالة المنتج وسطحيته وتخلفه وكأنه يخاطب أطفال السبعينات ميلادية، ومع ذلك يصر على البقاء، هذا فقط لتكون كما يقال: "سبوبة".

وكل هذا من الحرص على الشرف وحيازته أو إن سلموا من هذه النوايا فلا يسلمون من ضيق العطن والأفق.

بطبيعة الحال بقي من هذا الزخم كله العلماء الكبار وكبار طلابهم الأتقياء الأخفياء الذين جلسوا للعلم والتعليم والدعوة إلى الله على بصيرة وعلى منهج الأنبياء وكبار المصلحين لكن كما قلت لك سابقا عدا على هؤلاء يد الحزبيين بالعزل والإقصاء والتهميش.

وكم سمعنا من العلماء الكبار ونقلوه عن أئمة السلف أنّ أي عمل شرعي تدخله إرادة الدنيا يدخله النقص بحسبه، خاصة المال والشرف، كما قال ﷺ: «**ما ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**».

المال والشرف، نعم هما كذلك، أكبر ما أفسد الدعوة، التنافس على المال، ولو في صورة الحرص على مصلحة التمويل للدعوة ومشاريع الجماعة، والشرف كذلك والمناصب، حتى إنهم كانوا يتنافسون على المساجد والشباب المهتدي والمدارس، وكأن الدين الذي يحمله هذا غير الدين الذي يحمله ذاك، وهو التفرق الذي نهى الله ورسوله عنه، وذكر الله في كتابه أنّ هذه الحالة حالة لا تنتمي للنّبيّ ﷺ ولا ينتمي لها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾[الأنعام:١٥٩].

والحرص على الدنيا لذات الدنيا لا يمكن أن يظهره من ينتمي للدعوة فهو دليل على شؤم ونقص يتنزّه عنه الداعية، فالداعية دعوته وتعلّمُه وتعليمه وجهاده كله لله والدار الآخرة، ولهذا كان الخطاب السائد خطاباً أخرويا، لكن الواقع في غالبه أو في كثير منه لا يدل على هذا، فالتنافس على أمور الدنيا على مستوى الأفراد والجماعات كذلك كان شديدا واضحا بارزا لا تخطئه عين البصير، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

الآخَر

من أكبر أخطاء الدعوة في مرحلة الصحوة فشلها في احتواء أو التعامل مع الآخر من غيرها، بل فشلوا في التعامل مع بعضهم البعض، فكان بين مكونات العمل الإسلامي السلمي والعسكري خلاف وصراع مكتوم أحيانا ومعلن أحيانا أخرى.

كانت المنابذة والعداوة هي الأساس في التعامل مع المخالف، كلٌّ من زاويته بالطبع، فالسلفي له زاويته، والإخوان والسرورية لهم زاويتهم، وهكذا بقية المكونات.

مع أنّ التعامل مع المخالف والعلاقة معه ليس ديناً وفريضة قائمة بذاتها، بل هو أمر مصلحي يختلف من شخص لآخر، ومن فئة لأخرى، ومن زمن ومكان لزمن ومكان آخرين.

وما فعله النّبيّ ﷺ بالمخالفين أنواع كثيرة من تأليف، ودعوة، وإغراء، وتعاون، وتحالف، وقتل، وقتال، الأمر مفتوح ومتاح للسياسي والداعية بحسب المصالح المقررة والقوانين المفروضة.

أما الصحويون فقصروه على المنابذة والجهاد إن كان من الكفار أو المقاطعة والإقصاء إن كان من المخالفين من المسلمين، وكم ظلم بسبب ذلك أشخاص، حتى ربّت الصحوة عداوات لا حصر لها من الخارج والداخل ومن مختلف الطبقات، مخالفون لها بالجملة ومختلفون داخلها بينهم.

لم يبذل الإسلاميون جهدا حقيقيا للتواصل مع الآخرين والتفاهم معهم عرفنا ذلك كما قلت سابقا من قطيعتهم مع الموافق لهم في أي اختلاف، فكيف بغيرهم.. وهذا فشل كبير أضر بهم وبالآخرين إذ تسبب في كبر الفجوة بين الإسلاميين بكافة أطيافهم وبين المخالفين إما جهلا وإما عمدا.

وكبرت الفجوة كذلك بين أطياف العاملين للإسلام والدعوة كذلك لنفس السبب.

ولهذا عوامل إجمالية من أهمها قوة العلماء الكبار وموقف الدولة معهم وتأييدها لمواقفهم غالبا، استطاع الصحويون تجيير هذا الأمر لصالحهم فجيشوا ضد مخالفيهم بغض النظر عن قوة المخالفة إلا أنّهم أضروا بهم عبر قرارات صدرت ضد كثير منهم بالمنع أو الحرمان من وظائف علمية أو منع المحاضرات أو غير ذلك.

ومن العوامل كذلك الجمهور المتابع للصحويين، فقد كان قوة ضاربة أشعرتهم بعدم الحاجة للتواصل مع الآخرين، واستتغنوا عن التواصل مع أي حد خارج سياج الإسلامية، وحدث هذا كذلك داخل السياج نفسه في موقف الصحويين بالذات ضد السلفيين المخالفين لهم بنفس الطريقة والقوة.

خلق الأعداء أو تحفيز العداوات خلاف سنة النبي ﷺ التي تحرص على عدم خلقهم وإذا وجدوا تحرص على تسكينهم وتحييدهم، حتى إنّ واحداً من أسهم الزكاة يُعطى للمؤلفة قلوبهم، مع أنّ النّبيّ ﷺ مؤيد بأصحابه وقبل

ذلك بالله تعالى، لكنه يعلمنا كيف تدار العلاقات مع المخالفين مهما كانت درجة الخلاف معهم.

افتراض العداوة وسوء النية والكيد من كل مخالف.. ولو كان في شأن يسير وفتاوى خلافية مع أنه قد يكون فرداً له رأي مخالف فقط.

استعمال أدوات الفصل من الوظائف والتأليب والحرمان من المناصب أو الفرص التعليمية ونحوها حدث بشكل مبالغ فيه أحيانا، وهذا سببه افتراض القوة الموهومة كما ذكرنا.

وليس هذا تبرئة للطرف الآخر من نفس العيب، فهو كذلك لم يحاول التواصل وكانت لديه أيضا بؤرُه ومجاميعه الخاصة التي يؤوي إليها ويستمد منها القوة للمقاومة والصراع لأجل البقاء منتهزا أية فرصة للانقضاض على الصحوة وكل ما تمثله في نظره.

لكن أنا لا يهمني هؤلاء بقدر ما يهمني أهل الدعوة والمنتسبين للعلم لأننا نملك تغيير أنفسنا لكن لا نملك ذلك من الآخرين، وإذا كانت المفسدة حاصلة بسبب مخالفات من الجانبين ـ فعلى الأقل يتحمل كل طرف مسؤوليته وجزءه من سبب الأزمة سواء امتثال الآخر أم لا، ففيه على الأقل تقليل المفسدة أو الإعذار إلى الله.

انتقل إلى الفهرس

جاهلية الدعوة

توظيف الدّاعية للخصائص البشريّة والإنسانية والاجتماعية في مهمّته له أصل أصيل في السّنةّ، لا داعي للإطالة في بيان مشروعيّته، ففي الجهاد على سبيل المثال كان النّبيّ ﷺ يجعل لكل قبيلة مهمّة ويكلفهم بها موظفا حميّة الشخص لقبيلته أن يكون عليها مسبة التقصير، ولهذا قال أنس بن النظر لسعد «وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف».

وقال للشاب الذي استأذنه في الزنا «**أترضاه لأمّك؟**» الحديث، مستثيراً فيه حميّته وغيرته على نسائه.

وقال كذلك «**أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني**»،كلّ هذا مفهوم واضح.

لكن الأمر في سنوات مضت بُولغ فيه من قبل جهلة الدّعاة خاصة في المناطق ذات الطابع القبلي حتّى أصبحت هذه النعرات طاغية على الحكم الشرعي، أعني أنّها أصبحت دليلا يُستدل به على تحريم أو تقييد ما أباحه الله، أو تشريع ما حرمه الله وتسويغه أو الاعتذار له.

سمحت الجماعات لكثير من جهلة الدعاة أن يتصدروا الإفتاء والدعوة والوعظ، إذ كانوا رافدا يرفد حضورها وشعبيتها، ولا يهم ما يمارسه هؤلاء الدعاة من الجهل باسم الدعوة والتديّن، خاصة في مناطق من المملكة لم يكن فيها حضور لافت وقوي للعلماء وطلبة العلم الكبار، فكان هؤلاء هم

واجهة التعليم والدعوة وممثلوا الدين والشرع، مع أن كثيرا منهم لا يحسن من الدين إلا التهريج والضحك، أو البكاء والعويل.

وقد جعل كثير من هؤلاء مقياس المشروع والممنوع هو عكس ما يطالب به التغريبيون بالمطلق، ولو كان ذلك في أصله حقاً مشروعاً أو تحتمله طبيعة المسألة في الفقه الإسلامي.

وأصبح من اللافت في الخطاب الشرعي الدعوي الصحوي تحميل المرأة وحدها مسؤوليّة عفاف المجتمع، حتّى يكاد يحرم عليها الخروج من بيتها لأيّ غرض، مع أنّ العفاف مسؤولية مشتركة، والنّبيّ ﷺ في حديث المرأة الخثعميّة لما رأى الفضل بن عباس ينظر إليها – بغضّ النّظر عن كونها كانت كاشفة لوجهها أو ساترة له – فإنّه لم يأمر المرأة بشيء، وإنّما كان توجيهه للرجل حيث صرف وجه الفضل للشق الآخر.

واستمرّ هؤلاء الدّعاة في تحميل المرأة مسؤوليّة عفاف المجتمع بالكامل حتى أصبح البعض يعارض أيّ قرار وأي نظام فيه تخفيف من بعض القيود على تصرفات النساء مهما كان فيه مصلحة حاجيّة أو ضرورية لبعض صاحبات الحاجات بحجّة أنّه سيكون ذريعة من بعضهنّ للفساد أو الاعتداء عليهن، حتى أوقعوا الناس في منتهى الحرج والعنت، وإلاّ فأين هي مسؤولية المجتمع بكل فئاته؟ لماذا تحمّل المرأة وحدها هذه المسؤوليّة!

خذ كذلك مسألة العِرض، فأصبحت المرأة وحدها تتحمّل مسألة عرض الأسرة أو القبيلة، ولهذا تتعرّض للقتل أو المبالغة في العقوبة إذا زلّت. مع أنّه ليس في النصوص الشرعيّة ما يجعل زلة المرأة بخلاف زلّة الرّجل.

وقد بحثت في نصوص السنة عن أيّ قصة أو واقعة في عهد النّبيّ ﷺ تدلّ على أنّ أسرة ما أو قبيلة تحمّلت مسؤولية خطأ امرأة تنتسب إليها، وقد زنت في عهد النّبيّ ﷺ امرأتان منتسبتان إلى قبيلتين ولم أجد أيّ إشارة إلى أيّة ردّة فعل من أسرتيهما أو قبيلتيهما أو أزواجهما ألبتة رغم أنّهما ثيبتين وقد رُجمتا، ولم يتعرض لهما أحد بضرب فضلا عن القتل، وإحداهنّ أعطيت مهلة عامين تقريبا حتّى وضعت طفلها وأرضعته وفطمته، تصوّر معي: امرأة مقرة بالزنا تعيش عامين في مجتمع مسلم، ومع هذا لم أجد ما يشير إلى مضايقات أو نبز أو أذى، بل كان تعامل المجتمع معها إيجابيا للغاية، حتى إنّها وجدت من يكفل طفلها مباشرة، وهذا يعني أنّهما عاشتا في مجتمع يحترم المسؤولية القانونية إلى أبعد حد، فلا تزر وازرة وزر أخرى، كما أنّه في دولة القانون والشريعة هناك مصدر واحد للمحاكمة والعقوبة ولا يجوز تمكين شخص آخر باستيفاء العقوبة تحت ذريعة الغيرة والشرف، ففي الصحيح عن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبي صلى الله عليه و سلم " **البينة أو حد في ظهرك** " فقال يارسول الله إذا رأى أحدنا رجلا على امرأته يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول " **البينة وإلا فحد في ظهرك** " وجاء في حديث أبي هريرة قول سعد بن عبادة "قال سعد: يا رسول الله لو وجدت مع أهلي رجلا أمهله حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال: نعم"، قال ابن حجر: " وقد اختلف العلماء فيمن وجد مع امرأته رجلا فتحقق الأمر فقتله هل يقتل به؟ فمنع الجمهور الإقدام وقالوا: يقتص منه إلا أن يأتي ببينة الزنا أو على المقتول بالاعتراف أو يعترف

به ورثته فلا يقتل القاتل به، بشرط أن يكون المقتول محصنا، وقيل بل يُقتل به لأنه ليس له أن يقيم الحد بغير إذن الإمام" انتهى، فأين هذا ممّن يحسّن ما يفعله بعض النّاس من الإجرام بحق بناتهم أو أخواتهم إذا وقع منهنّ زلّة دون الزنا، أمّا الزنا والتهمة به فحدّث ولا حرج، وعندما يحدث هذا بعيداً عن أهل الشريعة والدعوة فلا يعدو ذلك أن يكون من جهالات المجتمع أمّا حين يكون ناتجا أو محسّناً من قبل الدعاة ونحوهم فهذه جاهليّة أخرى.

مسألة الغيرة على النساء وقع فيها مبالغات وتم القبول بنعرات قبلية جاهليّة ما دامت تسند بعض الأحكام الشرعيّة وهذا خطأ، وكمثال لهذا سمعنا من يطعن في شرف ودين من يجوّز قيادة السيارة بالنسبة للنساء، ودخول المرأة مجامع التجارة بائعة ومشترية، ودخولها محافل الرجال متحدثة ومطالبة، ونحو ذلك، وهذا من صفاقة القائل، فإنّنا نناقش هذه المسألة من جهة المصالح والمفاسد المترتبة عليها، لكن لا علاقة لهذا ضرورة بدين المرأة وذويها وشرفهم فضلاً عن المتكلم فيها من أهل العلم أو غيرهم.

وأصبحنا نسمع بعض الشباب المنفلت الذي لعله لا يصلي بل لعلّه من المتسكعين في الأسواق والمحافل الساقطة يتوعّد ويرفع عقيرته بمنع المرأة التي هي أخته أو أمه من كذا وكذا، لا ديناً وإنّما فقط نعرة وحميّة جاهليّة.

وهذا النوع من الحميّة لا يقرّه الشّرع ولا يجوز الاستعانة به في الدّعوة إلى الله وتعميق تمسّك النّاس بالحكم الشرعي لأنّ له من اسمه نصيب، فهو جهل وتعصب مقيت، والإسلام جاء بالعلم والنور والهداية والسماحة.

ومن عجيب تصرفات بعض الأقوام ممن اختلطت فيهم مفاهيم الشرع والقبيلة أنّهم يتصرفون في مجتمعهم القبلي أو الأسري بأمور ينكرون ما هو أخف منها في محاضراتهم أو يمارسون ما هو من جنس ما ينكرونه، فقط لأنّ هذا مما تأباه النعرة وهذا مما تقبله، وبهذا أصبحت الجاهليّة مصدراً للتشريع عند هؤلاء، يوجبون بمقتضاها ويحرمون بمقتضاها وهذا ما أبطلته الشريعة وجاء الإسلام ليهدمه ويقيم بدلاً عنه دين السّماحة والعدل الذي عامل المرأة والرجل على قدم العدل والمساواة من حيث تحمّل المسؤوليّة عن أفعال الإنسان من خير وشر.

وهذا التصرف جعل من الصحوة بمضامينها وشخوص أصحابها محلا للتهمة من قبل كثير من فئات المجتمع، ودون أن يشعر الكثيرون تشكلت معارضة قوية في نفوس الناس ورفض ما إن تهيأت الأجواء للتصريح والبوح حتى رأينا ما رأينا من العداوة والمعارضة حتى لأحكام شرعية بريئة من تحريف الجهلة أو غلوّ الغلاة.

المجتمع السعودي وغيره من مجتمعات المسلمين ليس عدوا للدعوة ولا للدين ولا للإسلام، لكن شأنه شأن كل شيء خلقه الله حياً له نزعاته وله ظروفه الحياتية، وأفراده وطبقاته ليست واحدة، وأطيافه ومنطلقاته الدينية أو الفكرية متباينة، فهو بحاجة للسياسة والمراوضة، والقوة لو كانت وحدها كفيلة بإقامة الشريعة وأحكام الدين لكان أسبق الناس إليها رسول الله ﷺ، ولنزل القرآن دفعة واحدة فيها كل الأحكام وطلب منه تنفيذها بحذافيرها، وهذا خلاف سيرة النبي ﷺ وخلاف تاريخ التشريع.

انتقل إلى الفهرس

والمجتمعات إن عوملت بالرفق واللين وصبر عليها وربيت شيئا فشيئا ولم تُجعل أمام خيارين لا ثالث لهما إما التمسك الكامل أو العقوبة والاستهداف فإنها تقبل على الله وتلوذ به راغبة.

الجماعات الإسلامية والأحزاب تدعي أنها جاءت لهداية المجتمعات وكرامتها والمطالبة بحقوقها وحمايتها من الحكام الظلمة، فلما عصتهم المجتمعات ولم تسر وفق أهوائهم أصبحوا يكفرونها ويستبيحون منها الأنفس والأموال، إما فعليا كما تفعل داعش والقاعدة وحماس وغيرها، وإما نظريا وتأصيليا كما يفعل الإخوان والسروريون ومن يوافقهم.

ثم يتعجب قادتهم لماذا لفظتنا المجتمعات في أول فرصة؟ قل هو من عند أنفسكم.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

الخروج

من الأمور التي تجعل لسوء الظن في مرحلة الصحوة محلاً، هو الحرص على إحياء مسألة الخروج على وليّ الأمر الظالم، لا أقول الدعوة إلى الخروج إنما أعني طرحها كقضية خلافية تحتمل النقاش.

بطبيعة الحال كانت صحف الصحويين قد جفت وأقلامهم رُفعت عن إثبات ظلم الأنظمة الحاكمة و كفر بعضها كذلك، هذه القضية كانت مُسَلّمة عندهم وصلت القناعة عندهم بتشبع الجمهور لها مما يسمح بطرح ما يبنى عليها من جواز الخروج عليهم.

لكن اصطدم طرحهم هذا بقضية الخروج على الظالم خاصة في المملكة وما حولها لأنّ الاتجاه السلفي وعلى رأسه العلماء الكبار مجمعون – كما أجمع أئمة السلف قاطبة– على أنّ الخروج على وليّ الأمر المسلم محرّم ومنكر وصاحبه آثم ومُجرّم شرعا، وأنه ضال وباغ.

لم يكن العلماء بحاجة إلى الخوض في إسلام الأنظمة الحاكمة لأنّهم في تلك الفترة لم يطرحوها بقوة ووضوح كما حدث فيما بعد.

ولما جاءت السرورية وأبرزت مسألة الخروج على ولي الأمر خروجا من المأزق الذي كانوا فيه، فهم إن صرحوا بكفر الحكومات اتُّهموا بأنهم خوارج وأنهم من أتباع جماعات التكفير والهجرة.

وإن أعرضوا عن تكفير الأنظمة وقف في وجههم إجماع العلماء على تحريم الخروج.

فاختاروا خلخلة المفهوم عن طريق طرح الفكرة كمسألة علمية بريئة من التوجيه.

لكن الطرح المتزايد بعد ذلك دل على أنّ الأمر مقصود، وأن الهدف الاستراتيجي كما يقال هو إسقاط الأنظمة، وتشريع ذلك إما بتكفيرها كما هو اعتقادهم الحقيقي، وإما بتسويغ الخروج على الظالم حتى وإن كان الرأي مرجوحاً فهو خلافٌ سائغ وصاحبه بين أجر وأجرين.

وهذا ما حدث بعد ذلك، فصدرت الرسائل والكتب والمحاضرات تحت سمع وبصر الجهات العلمية والدعوية تقرر مسألة الخروج على الأقل مسألة خلافية.

وأعيد إثارة مسالة الحكم بغير ما أنزل الله وشُرحت رسالة "تحكيم القوانين" للشيخ محمد بن إبراهيم في المساجد، والمضحك أنهم يقررون ما فيها من تحكيم الأنظمة التي حكمت بغير شرع الله وفي نفس الوقت لا يكفرون النظام الذي يعيشون تحت سلطته مع تقريرهم أنه لا يحكم بشرع الله في بعض الأمور.

وكان هذا الاتجاه يكفر حكام دول أخرى تحكم بغير ما أنزل الله لكنه لا يجرؤ على ذلك تجاه دولته التي يعيش فيها، إما مداهنة وتقية وإما ضعفا عن تنزيل الحكم لموانع يراها.

والرسالة التي وصلت للجيل كله أنّ التكفير هو الحكم الصحيح وأما عدم التكفير فهو تقية ومداراة للأنظمة.

كانت هذه وصفة تطبخ لسنوات في مجامع الصحويين للأسف بعيداً عن العلماء الكبار، وفي غفلة أو إحسان من الأجهزة الأمنية كذلك.

لكن بعد أحداث أفغانستان واستيلاء طالبان عليها وإنشاء ما سُمّي بقاعدة الجهاد على يد الظواهري وابن لادن وغيرهما أصبح اللعب على المكشوف كما يقال، وأظهر كل مستبطن للتكفير رأيه بطريقة أو أخرى، وبدأت المواجهة مسلحة وعنيفة خاصة هنا في المملكة بدعم من دول معادية معروفة ومكشوفة، ونتج عن ذلك سجن ثلة من رموز الصحوة المحرِّكين للفتن وخرجوا بعد سنوات وظن الجميع أنّهم تغيروا.

لكن أحداث "الخريف العربي" أكدت ما ذكره بعض السلف أن صاحب الهوى لا يتوب، إذ ما إن تحركت قاطرة الفوضى في البلاد العربية وإذا هؤلاء وأتباعهم هم حاملوا رايات الفتنة وخطباؤها، وتأكد للجميع أنّهم ما زالوا يعملون على نفس الأهداف وإن تغيرت أساليبهم وألفاظهم وطرائقهم بل أصبحت أساليبهم أكثر عمقاً وخطورة إذ عمدوا بدعم من دول كبرى وصغرى إلى إنشاء مدارس ومعاهد تربي جيلاً من الثائرين وقيادات التغيير -كما يقولون- لتغيير خارطة المنطقة، دُمى في مسرح عرائس يمسك بخيوطها الغرب وعلى رأسه أمريكا.

في خضمّ تلك الثورات التي كان اسمها مظاهرات سلميّة ثمّ بعد أن حققت انقلابات بيضاء كما يُقال أصبحت تُسمى ثورات.. أقول: في خضمّ تلك الثّورات حدثت ثورة أخرى.. ثورة على مبادئ شرعيّة استقرّت

وأصبحت ثوابت عند أهل السنّة، وإيّاهم أعني بحديثي هذا وخاصة أهل العلم والفقه منهم.

أعجب الفقه هو الفقه الّذي ظهر تلك الأيّام، فهو فقه يبني كلامه على نتيجة الفعل، وبعده لا قبله، بمعنى إنّه لو حدثت كارثة وانهار نظام الدولة وشبت النزاعات فيه كما حدث في بعض الثورات فإني على يقين أنّ رأي الموافقين والمشجعين كان سيختلف.

وهذه طريقة لا تمت للعلم والسنّة بصلة، تنزّه عنها طلبة العلم الشرعي السلفي بالذات، أمّا غيرهم من رموز الجماعات والانتماءات الأخرى فقد انخرطوا في هذه الموجة.

ومن شدة الفتنة في تلك الأحداث رأينا كثيراً من المتسبين للسلفية بدءوا في مدح الثورة والثناء على أصحابها بعد ما ظهر لهم أنّها حقّقت نتائج إيجابية كبيرة بلا مفاسد تُذكر، أو هكذا تصوّروا..

من أكثر الأصول الّتي حدث الانقلاب عليها أصل الطّاعة والعلاقة الّتي نظّمها الله تعالى بين الحاكم والمحكوم.

وللشيخ محمد بن عبدالوهاب كتاب صغير في حجمه كبير في معناه بديع في وضعه، اسمه: «مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية» ذكر كثيراً من الخصال التي كان عليها أهل الجاهليّة والّتي جاء النّبيّ ﷺ بمخالفتها،وأوّل مسألتين ذكرهما بعد الشّرك بالله:

- أنّهم يرون السمع والطاعة مهانة ورَذالة.

– وأن مخالفة ولي الأمر، وعدم الانقياد له – عندهم – فضيلة، وبعضهم يجعله ديناً.

قال رحمه الله: «فخالفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك، وأمرهم بالصبر على جَور الولاة والسمع والطاعة والنصيحة لهم، وغلّظ في ذلك، وأبدى وأعاد.

وهذه الثلاث – يعني مع الشرّك بالله – هي التي ورد فيها ما في الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**يرضى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم** ».

وروى البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**من كره من أميره شيئا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية** ».

قال الشيخ: «ولم يقع خلل في دين الناس أو دنياهم إلا من الإخلال بهذه الوصية»، وصدق رحمه الله.

الظالم الفرد لابد أن ينتهي بموت أو بغيره، لكن منصب الولاية باقٍ يجب صيانته من اللاعبين، حتى لا يصبح لعبة بيد كلّ دخيل يريد أن يقلقل الدولة وأركانها عن طريق مجموعات تستخفّ العامّة وتضرّ بالبلاد والعباد.. تحت ذريعة الإصلاح ومحاربة الظلم.

إنّ حالة التمرد والثورة والعصيان المدني – وكل هذا يسمونه مظاهرات سلمية وهذا كذب – مصادم لحقيقة السنّة والشريعة، وعودة بالناس إلى حال الجاهليّة حتى لو تحقق من وراء ذلك مصالح محققة أو موهومة، وهو

مخالفٌ لنصّ النّبيّ ﷺ الذي نهى عن نزع اليد من الطّاعة وهذا واضح لا لبس فيه.

من العجيب أن ينسى من ينتسب للعلم والسنة أصوله وينخرط في ثورة جمهور يطالب بحقوق دنيوية تضيع في خضمّها حقوق شرعيّة وتُنسى بل يُتعمّد إقصاؤها!

العلمانية في ظل الحاكم الظالم كان جريمة، لكنها أصبحت في ظل حالة الثورات والفوضى مطلباً جماهيرياً لا بل أصبح مطلباً لمن كان الإسلام – يوماً – عنده هو الحل!

خنست أصوات الصحويين أيامها عن المطالبة بشيء من تحكيم الشريعة لأنّ الثوار شركاء في غنائمها بالتساوي، نصارى ومسلمون، دينيّون ولا دينيّون، حتّى الإخوان أعلنوا بصراحة: أنّ الإسلام ليس هو الحل، سمعت ذلك بنفسي من أحد كبارهم حين قالت له قبطية: «أحسن شيء أنّكم لم ترفعوا شعار الإسلام هو الحل، لأنّه مش الحل» فوافقها ضاحكاً.. ياللخيبة!!

وصدق الإمام محمد بن عبدالوهاب حين قال: «فالمقصود أن من له بصيرة ينظر إلى الدليل، ويأخذ ما يستنتجه البرهان وإن قَلّ العارفون به، المنقادون له، ومن أخذ ما عليه الأكثر، وما أَلِفَتْهُ العامة من غير نظر الدليل فهو مخطئ، سالك سبيل الجاهلية، مقدوح عند أهل البصائر».

كان الواجب على أهل الشريعة أن يسكتوا في خضمّ هذه الفتنة عن تأييد أو معارضة وأن يسألوا الله السلامة، وأن لا يتكلموا إلاّ بما لا يخالف فيه أحد من حرمة إراقة الدماء وعصمة الأنفس والأموال والأعراض.

لكن بعضهم اغترّ وأخذته نشوة الفرح والخلاص من بعض الحكام المضيّقين على الشريعة، ونسوا أن يتدبّروا في مجمل المكاسب الّتي كسبتها الدّعوة الإسلامية أو الخسائر التي خسرتها في الأمد البعيد.

وقد قلت سابقاً في مرات عديدة إنّ النتائج والغايات لا تشرّع الأسباب والوسائل، بل يشرّعها الشرع الحكيم، ولو جاءت هذه الثورات بخلافة راشدة - فضلاً عن حكم طاغوتي ناعم - فإنّ الحكم الشرعي لا يتغيّر وسيُنظر لها دوما من خلال منهج أهل السنّة فقط وهو تحريمها ومنعها.

أعود لمسألة الخروج لأدلل بها على انقلاب المقاييس في ظل الصحوة، فإذا تأملت وجدت قضايا خلافية عوملت كمسائل إجماع، مثل اللحية والتصوير وأشد منها تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله وتكفير تارك الصلاة، وقد كان المخالف في بعض تلك المسائل حقيقا بخروج بيانات من هيئات علمية تحكم عليه بالبدعة والضلال، وهذا يؤكد سيطرة المد الصحوي حتى على المجامع العلمية الرسمية.

بينما قضايا اتفاق وإجماع جُعلت مسائل خلافية مثل الخروج الذي تواترت كلمات أئمة السلف والخلف- إلاّ الشذّاذ -على أنّها خلاف منهج السلف ومنهج النّبيّ ﷺ وأصحابه.

ومما لبّسوا به يومها على الناس أنهم ضربوا أمثلة لثورات نجحت وقام على نجاحها دول عصرية ديموقراطية أو حتى إسلامية، وهذا دجل، لأنّ كل الخروج والثورات والدول الناشئة على سقوط دول أخرى لم تكن نصراً دينيا، كلها صراعات سياسية فلا يجوز الاحتجاج بها، هذا بالنسبة للشرعيين.

وهي كلها جارية وفق السنن الطبيعية لم تكن نصراً لطرف لأنّه تمسك بالإسلام أو لأنه ثورة على الباطل، وإنما لأسباب النصر والهزيمة الطبيعية، ومن هذه الأسباب: الظلم، فالظلم يسقط الدول وهذه سنة كونية تجري حتى في عالم الحيوان.

❀ ❀ ❀

انتقل إلى الفهرس

الإغراق

من أخطاء زمن الصحوة، الضخ الوعظي المبالغ فيه، كان الأمر مفتوحا لكل من هَبّ ودَبّ ودرج ليقوم بمهمة إلقاء المواعظ، كذلك المجوّدين من المتحدثين يتسابق أئمة المساجد والمدارس والتجمعات إلى استضافتهم للتحدث والوعظ، فنتج عن ذلك إغراق من حيث الكمية ومن حيث النوعية، ودخل في خضم ذلك مخالفات شرعية ومنهجية كثيرة لكني سأركز هنا فقط على مسألة الإغراق.

تصور أن يقوم خمسة أو أربعة متكلمين في المسجد يوميا أو يوما بعد يوم، إضافة إلى كلمات إمام المسجد، إضافة إلى أماكن العمل والمدارس التي يتحدث فيها متحدثون يوميا أوقات الصلاة أو الفُسَح أو حتى في استضافة كاملة لمحاضر يُجمع له الطلاب أو العاملون في الجهة الحكومية.

وعندما يكون القصور والجهل حاضراً يحدث تكرار المواضيع والقصص بأشكال متفاوتة، ويحدث كذلك سوء اختيار الأوقات والأماكن لمواضيع محددة.

حتى الأفراح والمناسبات كانت فرصة ليقوم أحدهم متبرعا أو بترتيب مع أهل المناسبة لإلقاء كلمة وعظية.

وشجع على ذلك إقبال الناس بعامة على الخير ومحبتهم لكل متحدث عن الخير لكن هذا لا يعفي من المسؤولية.

الطابور الصباحي في مدارس الأولاد أو البنات كان مناسبة لبعضهم للحديث عن الموت والقبر والآخرة وإن كان بإخراج فني لكن المشكلة والنتيجة واحدة.

وهذا كله بعيد كل البعد عن سنته ﷺ، قال أبو وائل شقيق بن سلمة: كنا جلوسا ننتظر عبد الله بن مسعود فأتانا يزيد بن معاوية النخعي فقال: ما لكم؟ قلنا: ننتظر عبد الله بن مسعود فقال: أين ترونه؟ قلنا: في الدار، قال: أفلا أذهب فأخرجه إليكم؟ قال فذهب فلم يلبث أن خرج عبد الله حتى قام علينا ومعه يزيد بن معاوية فقال عبد الله: «إني لأُخبَر بمجلسكم فما يمنعني أن أخرج إليكم إلا كراهية أن أُمِلّكم، وإن رسول الله ﷺ كان يتخوّلنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا».

قال ابن رجب: «كان ﷺ لا يديم وعظهم، بل يتخولهم به أحيانا، كما في " الصحيحين "عن أبي وائل، قال: كان عبد الله بن مسعود يذكرنا كل يوم خميس، فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن، إنا نحبّ حديثك ونشتهيه، ولوددنا أنك حدثتنا كل يوم، فقال: ما يمنعني أن أحدثكم إلا كراهة أن أملكم، إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا »،

فتأمل قولهم: "إنا نحب حديثك"، ومع هذا كان يذكرهم كل خميس.

وأمر آخر هو شخصية الواعظ ومن هو؟ فقد كان الأمر فوضى عارمة، وكم من قاصٍ وواعظ أفسد على الناس دينهم وتفكيرهم بجهله، روى ابن بطة في الإبانة عن أبي عامر عبدالله بن لحي، قال: حججت مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة أخبر بقاص يقص على أهل مكة لبني مخزوم، فأرسل

إليه معاوية، فقال: أمرتك بهذا القصص؟ قال: لا، قال: فما حملك على أن تقص بغير إذني؟ قال: ننشر علما علمنا الله، فقال معاوية: لو كنت تقدمت إليك قبل مرّتي هذه لقطعت منك طابقا».

فهذا من معاوية في عصر كان أهل العلم فيه متوافرون وفي مكة، فكيف بالوعظ في زماننا هذا؟

وعلى العموم فإن السآمة التي خشيها رسول الله ﷺ على أصحابه هي ما وقع في جيل نشأ تحت ظل الصحوة فإن السآمة من شدة الضغط الوعظي الذي مورس عليهم وما حدث في خضم ذلك من تعامل كثير من الجهلة مع مسائل حدثت وتغيرات اجتاحت العالم كله وتصرفهم تجاهها بدون علم ولا وعي تحريماً وتكفيراً وشدّة وغلظة مع من حولهم من الزوجات والأبناء والأقارب نتج عنه ما نراه الآن من كراهة كثير من الناس لأيّ اتجاه وعظي أو نصح أو احتساب، والله المستعان.

والتصحيح وارد هنا بترشيد الوعظ كما وكيفا، والجرعات القليلة إن كانت وفق هدي وسنة فإنها تنجح وتؤتي ثمارها ولو بعد حين، وأما المستعجل النّهِم الذي يغرق السهل والجبل فإنه يقتل ولا يحيي، والأمة أشبه بفقيد الصحراء العطشان إذا وجد لا يُعطى الماء كما يشتهيه هو وإلاّ قتله، وإنما جرعات وجرعات يسيرة يحييه الله بها، والأمر هنا قريب من هذا.

انتقل إلى الفهرس

الواقعية والمثالية

من الأخطاء التي وقعت في السابق من الصحويين أو غيرهم: عدم التفريق بين النص التأصيلي والنص التطبيقي، أو كما يقال بين المثالية والواقعية.

النصوص التي يؤخذ منها التشريع في الإسلام نوعان، نوع تأصيلي يتكلم بشكل عام، أو عن الصورة الذهنية للشيء، سواء كان مما يؤمر به أو ينهى عنه.

ونوع آخر يصدر عن حدث في سياق واقعي، منتزع في الغالب من أحداث السيرة النبوية ومن وقائع حدثت في أيام التشريع أي في حياة النبي ﷺ.

وكل واحد من النوعين له هدفه ومقصوده، ويجب فهمه في سياقه الذي جاء فيه.

فالنص التأصيلي مقصوده ترسيخ المعنى حادا قويا في نفس المتلقي ليمتثله إن كان أمرا ويجتنبه إن كان نهيا.

أما النص الواقعي فهو نتيجة تفاعل عوامل تشريعية عدة ومقاصد شرعية متنوعة.

كمثال، جاء في النصوص التنفير من شرب الخمر، وجعله من الكبائر ولعن شارب الخمر، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة

إليه، وساقيها، وبائعها، وآكل ثمنها، والمشتري لها، والمشترى له». وقال ﷺ: «وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه والمدمن الخمر والمنان بما أعطى».

كل هذا تنفيرا للمسلم من شرب الخمر لما ينتج عنه من دمار العقل والنفس والمال، وهذا معلوم لا يجادل فيه أحد.

لكن تأمّل معي ما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب: «أن رجلا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارا، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يوما فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال النبي ﷺ: لا تلعنوه فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله». فتأمل كيف تعامل النّبيّ ﷺ مع مدمن الخمر، وشهد له بمحبة الله ورسوله ونهى عن لعنه، لأنّه هنا يتعامل مع حدث واقعي تتداخل فيه مقاصد شرعية مثل تأليف قلب الرجل والرأفة بحاله.

مثال آخر: التعامل مع أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢]، وقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [المائدة:٧٨] وقال: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقال ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

هذا النص التأصيلي الذي مقصوده التحذير من أهل الكتاب ومودتهم والركون إليهم أو تقليدهم في دينهم وعاداتهم.

لكن تعال إلى ما رواه أنس بن مالك: أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ، فقالوا: السام عليك فقال النبي ﷺ: «و عليكم» فقالت عائشة: السام عليكم يا إخوان القردة والخنازير، ولعنة الله وغضبه. فقال: «يا عائشة، مه» فقالت: يا رسول الله أما سمعت ما قالوا؟ قال: «أوما سمعت ما رددت عليهم؟ يا عائشة، لم يدخل الرفق في شيء إلا زانه، ولم ينزع من شيء إلا شانه»، هنا يحكي لنا النص تعاملاً واقعياً منطلقاً من أسس الدعوة مقاصدها، فالخطاب الأول موجه للمسلم ليرسخ في ذهنه المفارقة لأهل الكتاب، والثاني مقصود به الجميع ومنهم أهل الكتاب أنفسهم لأنهم محل دعوة وتأليف خاصة وهم جيران المسلمين في المدينة.

والذي أريد الوصول إليه أنّ طائفة من الناس غلبت النص التأصيلي فانسحب ذلك على طبيعتهم ومنهجهم بالغلظة والحدة والشدّة المنهي عنها تجاه إخوانهم المسلمين أو حتى غير المسلمين.

وطائفة من الجهلة غلبت النص الواقعي فظهر ذلك عليهم في أسلوب حياتهم وطريقتهم وتفكيرهم حتى سهّلوا من المعصية كما في الخمر مثالا، وتعاملوا مع الكفار بعيدا عن الضوابط الشرعية محتجين دائما بالنص الواقعي، بل ذهب كثير منهم إلى اعتبارهم مؤمنين وأنهم أصدقاء.

ومن هداه الله لطريقة أهل العلم الكبار عرف ما جاء عن الله ورسوله من النصوص ووضع كل نص في موضعه وسياقه الذي جاء فيه.

وقد طغت المثالية على طائفة كبيرة من جيل الصحوة بسبب الضخ العلمي والوعظي غير المؤَسَّس حتى ضاقت الدنيا بكثير منهم لرؤية المعاصي هنا وهناك، وأرادوا العيش في جيل الصحابة أو التابعين، وهاجر بعضهم إلى بلاد الأفغان أو غيرها ليعيش بعيدا عن المعاصي بزعمه، ومن بقي بقي مناكفاً للمجتمع غليظاً شديداً لا أقول من حيث الرأي العلمي والفتوى، فالمنكر منكر والحرام حرام، وإنما في طريقة تعامله مع من حوله وطريقة دعوته وصبره وتعليمه سواء كان رب اسرة أو معلماً أو غير ذلك، وهذه المثالية هي التي أدت بكثير منهم فيما بعد إلى حمل السلاح على الأنظمة الحاكمة بل والشعوب المسلمة، لأنهم يريدون الحياة مثالية مع أنها لم ولن تكون يوما كما يتصورون، ولا حتى في زمن الصحابة، والمؤمن مأمور بالتعايش والمدافعة بالسبل الشرعية لا المفاصلة والمقاطعة والشدة، وقد قال ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم أعظم أجرا من الذي لا يخالطهم، ولا يصبر على أذاهم**».

وبسبب المثالية اختار كثير منهم مواطن الفتن التي يسمونها مواطن الجهاد ليعيشوا مع أشباههم ويحكمون الحياة التي يعيشونها وفق تصوراتهم المثالية التي ما تلبث أن تتعكر بسبب وجود من يخالفهم الرؤية ولو ممن هو مثلهم فينقسمون مرة بعد مرة كما حدث من أسلافهم من الخوارج منذ عصر الصحابة.

ومن المضحك جدا مناداة كثير منهم لعمر بن الخطاب كرمز للعدالة والخلافة الراشدة، وتعبيراً عن نشدانهم تلك الحياة الفاضلة التي عاشها عمر مع أصحابه.

وهذا جهل منهم لأنّ عمر نفسه لم يكن لِيَسِر تلك السيرة إلا لوجود جيل رباه النّبيّ ﷺ، ولهذا لما بدأت التركيبة البشرية تتنوع فدخل في الإسلام أعداد غفيرة وكبر جيل من الصغار في ظروف معيشية واجتماعية مختلفة -ولو قليلاً- ورغم توافر الصحابة الكبار إلا أن ذلك كان من الأسباب التي أحدثت الفتن في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما وهما من الخلفاء الراشدين.

وقد روى التاريخ قول عبيدة السلماني لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين ما بال أبي بكر وعمر انطاع الناس لهما، والدنيا عليهما أضيق من شبر، فاتسعت عليهما، ووليت أنت وعثمان الخلافة ولم ينطاعوا لكما، وقد اتسعت فصارت عليكما أضيق من شبر؟ فقال: لأن رعية أبي بكر وعمر كانوا مثلي ومثل عثمان، ورعيتي أنا اليوم مثلك وشبهك»، وهذه رواية لا سند لها لكنها تعبير صحيح.

وهذه المناداة المستمرة بالخلافة الراشدة هي غفلة عن هذا المعنى، ولو خرج فينا عمر رضي الله عنه لكان أوّل من يثور في وجهه أولئك الذين يبكون ليل نهار على مثله!

وما عويلهم على أبي بكر وعمر وخلافتهما إلا نوع من المثالية الزائفة التي يفترض أصحابها أنهم مثل ذلك الجيل الذي صبر على سياسة عمر ومن قبله أبو بكر رضي الله عنهما.

وقد قيل: "كما تكونوا يول عليكم" فالولاة والأنظمة إنما هي نتيجة لطبيعة حياة الشعوب ومنهم يخرجون حتى لو ظلموا وجاروا، فالطريق الشرعي لإصلاح الحكام والأنظمة هو إصلاح النفس وإصلاح الشعوب نفسها، ولكنه طريق طويل لا يحبه المثاليون ولا صبر لهم عليه فيلجؤون إلى بنيّات الطريق وإلى المسالك الوعرة رغبة في اختصار الزمن والنتائج السريعة بإقصاء الأنظمة وحكم الناس بشرع الله كما يتوهمون ومن ثم يحدث الدمار والفوضى والدخول في نفق الصراعات المسلحة الّتي لا تنتهي ولا ينتج عنها إلا تمكين العدوّ من بلدان المسلمين وإضعاف الدول واستنزاف مالها وجهدها وإشغالها بهؤلاء المرضى.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

إنه عمل غير صالح

من أخطاء الصحوة القاتلة الدفاع عن حركات وشخصيات ضالة ومنحرفة، بغض النظر عن كم ومقدار الانحراف لأنّ المسألة لم تكن خطأ تقديريا، بل كان مبدأً ومنهجا عندهم أنّ كل عامل للإسلام هو منا ومعنا، وأي هجوم عليه هو هجوم على الإسلام لا لشخصه، وبناء عليه يتم الاصطفاف معه ضد من يهاجمونه من العلمانيين أو غيرهم.

وهذا بطبيعة الحال استفاد منه كثيرون سواء على مستوى الجماعات أو الأفراد، فنشطت جماعات الغلو واستفادت كثيراً من دفاع رموز الصحوة عنهم إما بالمطلق وإما بطريقة إيجاد المعاذير لهم على اعتبار أنّهم مجتهدون وإن أخطأوا! حتى لو كان الخطأ هو الولوغ في دماء المسلمين!

ونشط كذلك أفراد ضالون ضل بهم أعداد غفيرة من الشباب بسبب منهج التدليس والتمليس الذي مارسه الصحويون للأسف، فنشط عمرو خالد وطارق السويدان كمثال وكان بروزهم رغم ضحالة علومهم وضلال تفكيرهم بسبب إيجاد المعاذير لهم والاصطفاف معهم ضد الجامية كما يقال، فكل من تقدح فيه الجامية يتم الدفاع عنه بحجة أنه عامل للدين ومن يعمل لابد أن يخطئ.. الخ.

والعجيب أنّ رموز الصحوة الذين كانت لهم الفتاوى المتشددة أحيانا والتعامل الحاد انقلبوا على تلك القيم بعد سنوات وظل الحرس القديم على تراث الجماعة الأم ورغم ما كان بينهم من الخلاف والحنق على التوجه

الجديد لأحد رموزهم إذ بدت على فتاواه ما يخالف السالف، إلاّ أنّ أحدا منهم لم ينبس ببنت شفة في أي انحراف بدر منه عن الخط القديم سواء على مستوى الفتوى المميّعة أو المنهجية الثورية الجديدة، وهذا دليل على كذبهم في كلّ ما أصلوه من الهجوم على العلمانية والعقلانية الجديدة وكذلك الأنظمة الحاكمة في دول الخليج بالذات، إذ يهاجمونها بسبب أمور يمارسها القرضاوي الكبير والقرضاوي الصغير جهاراً نهاراً ولا يسمع لهم أي إنكار.

وقد جمعني في الرياض مجلس ببعض المتعصبين القدامى ممن يكثر الحديث في المجالس عن التوجه الجديد للعودة وما خالف فيه الفتوى السائدة في نجد والقصيم ومنهجه الجديد، وسمعت ما يضحك الثكلى من الهجوم عليه واستعداد عدد منهم بالكتابة والرد عليه بل قال بعضهم إنه بالفعل قد ألف كتاباً يتتبع سقطاته، ويومها قلت لمضيفي: أتحدى أن يستطيع أحد منهم أن يجهر بشيء مما قاله في ذلك المجلس أو أن يصدر ضدّ ذلك الرمز أيّ رد، وبالفعل إلى ساعة كتابة هذا المقال لم يصدر منهم شيء، لسببين: الأوّل: أنهم يعلمون قوّته وسيطرته على التوجه بكافة أوجهه مالياً ومادياً وفكرياً وأن الهجوم عليه يعني سقوط المهاجم صريعا على أيدي عصابات السرورية والإخوان.

والسبب الثاني: أنّ كبار الجماعة حتى المخالفون منهم له ينتهجون منهج "سلمان منا أهل البيت" أي أنّه ما دام يظهر الدعوة للإسلام فليكن منه ما يكن فلن نتكلم فيه ونشمت في الدعوة أعداءها.

وهذه الدعوى كما رأيت دعوى جاهلية، ننصر أخانا ولو كان ظالما مخالفا للسنة التي يزعم هؤلاء أنهم يدعون إليها.

وهذا كان على حساب الدعوة والشريعة وعاد بالفساد على الأمة إذ نشأت وشبّت وبرزت شخصيات واتجاهات فسدت وأفسدت على شباب المسلمين دينهم وسمّمت أفكارهم.

ولو تتبعت سيرة الصحابة رضوان الله عليهم وأئمة السلف تجدهم يردون على بعضهم بلا تردد في أي مخالفة للدين والسنة، لا يحابون أحداً مهما كان في صفهم ولو كان المردود عليه إماماً فيهم أو علماً، بل إنّ هذا يفترض أن يكون حافزاً للرد لأن الإمام والداعية الصادق لا يأنف ممن يرد عليه باطله وينصر دين الله وسنة بي الله ﷺ.

لكنها "الديانة الإخوانية" فرضت على أتباعها هذا المنهج من أوّل يوم أسست فيه وما زالت إلى يومنا هذا تربي أفراخ المناهج المنحرفة فكريا أو فقهيا أو عقائديا كذلك، تحت شعار "سلمان منا آل البيت"!

وكم قلنا وتكلمنا ونصحنا هؤلاء إنّ المنحرف مهما رفع عقيرته بالدعوة للإسلام بشموله أو إلى تحكيم الشريعة فإنّه كما قال الله لنوح: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود:٤٦].

فالدين لا يكفي للدعوة إليه وحمل رايته من شابَه وحرّفه، فإلى أي دين يدعو؟

هذه عبرة عظيمة لكل شباب المسلمين أن لا يغترّوا بحسن السّمت ولا معسول الكلام ولا الحماس للدين ولا الكلام في القضايا الكبرى للإسلام

انتقل إلى الفهرس

كالعقيدة واليقين والرد على الملحدين أو تحكيم الشريعة أو إقامة الخلافة وعودة الأمة لأمجادها وكل هذا التزييف الذي يخفي تحته من الأهواء والفساد العقائدي والمنهجي والفكري الكثير والكثير.

وليس شرطا أن يظهر الانحراف كله دفعة واحدة، بل هو مثل البذرة ينمو شيئا فشيئا ولا يتميز أوّل ظهوره لأنّه يتسلل داخل المجتمع الدعوي بلباس يشبه لباسهم حتى إذا نما وتجذّر وأثمرت شجرته الحنظل صعب اقتلاعه وأصبح كالسرطان يأكل جسد الدعوة التي نما فيها.

وهذا أمر لا يحسنه إلا العلماء الكبار، وإذا شئت البرهان فارجع وتأمل من أوّل من حذر من عمرو خالد وطارق السويدان كمثال بسيط؟ تجدهم السلفيين، ويومها اتهموا بكل نقيصة من الحسد والحقد والتعصب والجمود!

وبعد سنوات كشر عمرو خالد عن أنيابه هو والسويدان وأظهروا انحرافهم وفساد ديانتهم وفكرهم، ومع هذا لا يجرؤ أحد من الصحويين أن ينكر عليهم لأنّهم سيهدمون الأصل الذي لأجله ضحوا بالإسلام وبالسنة، والله المستعان.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

التكفير

في سنوات مضت ثارت قضية الإيمان والإرجاء بشكل ملفت للنظر، وحمل الصحويون قضية الإيمان والإرجاء والدفاع المزعوم عن عقيدة السلف في الإيمان لكن بشكل محموم جدا، وتم تجييش الجيوش ضد مجموعة من طلبة العلم كان لهم رأي في قضية العمل وجنس العمل واشتراطه في صحة الإيمان، وقد كان هذا مثار تعجب شديد، فإنّ قضايا العقيدة الصريحة كتأويل الصفات مثلا والقدر والتصوف والرفض كل هذه القضايا لم تشكل لهم أهمية، وكان رموز الصحويين أخداناً لقادة العمل الإسلامي -كما يقال- وكثير منهم إما أشعري أو صوفي أو ماتريدي أو رافضي، يعقدون معهم المؤتمرات ويلتقطون الصور، ولهم علاقات بهم وتعاون، أمّا من قال إن جنس العمل ليس شرطا في صحة الإيمان مع اتفاقه معهم في كل مسائل الإيمان الكبرى كدخول العمل في مسماه وزيادته وجواز الاستثناء والإيمان بالشفاعة ودخول بعض الموحدين النار وغير ذلك كله لم يشفع لهم عند الصحويين بل كانوا هدفا للبيانات المتتالية والنشرات والمحاضرات والكتب، أضف إلى ذلك الإقصاء الذي مورس ضدهم – ومنهم كاتب هذه الكلمات- والظلم ونسبتهم لكل رزية تحل بالمسلمين.

وكان هذا يومها يثير العجب لكنه الآن واضح كل الوضوح، فلم تكن القضية قضية عقيدة يدافعون عنها، إذ هم أكبر من ميّع قضايا العقيدة والتوحيد وضربوا بها عرض الحائط.

كانت القضية عندهم أنّ هذا الاتجاه السلفي الذي يشكل الألباني رحمه الله رأس حربته يهدم بناءهم الكبير وصرحهم الشهير الذي أضنوا أنفسهم عقود طويلة في إقناع الجيل به وترسيخه في نفوسهم، أعني قضية كفر الأنظمة الحاكمة.

والأمر يتبين إذا أخذناه من أوله، فهذه الجماعات الخارجة عن السنة كان هدفها ومقصودها الأعظم هو الوصول إلى سدة الحكم، لتحكيم الشريعة – زعموا– وإقامة دولة الخلافة المنشودة.

يقف في وجه حلمهم هذا الأنظمة الحاكمة، التي تعبوا في محاولاتهم تجييش الشارع ضدهم لكن الأمر كان مستعصيا عليهم.

جاءت السرورية قبل عقود على أنقاض القطبية لتحيي فكرة تكفير الحكام لأنّ الفكرة السائدة لدى أجيال الشباب المتدين خاصة في الخليج أن الحاكم المسلم لا يجوز الخروج عليه، فعملوا على خطين، الأول إحياء الخلاف في المسألة وأنّها تحتمل الاجتهاد وليست من قطعيات مذهب السلف، أعني الخروج على الحاكم المسلم.

والخط الثاني: إقناع الجماهير بأن الأنظمة العربية كلها أنظمة كافرة وإذا كانت كافرة كان واجبا على الأمة إزاحتهم وتغييرهم باي وسيلة.

ولأن الجيل الذي تربى في محاضن الإخوان والسرورية وعلى كتبهم وخطبهم ومحاضراتهم جيل يفترش الجهل بمنهج السلف ويلتحف بمذهب الخلف والتّلف، فقد تم اختيار عدد من المسائل التي تتميز بأمرين،

الأول غموض البحث فيها وصعوبته وعجز كثير من الأتباع عن فهم الحق فيها لدقته فلا يبقى عندهم إلا الثقة بفهم رموز التيار.

والأمر الثاني: أنّ هذه المسائل فيها كلمات للسلف يمكن تفسيرها بسهولة بما يوافق مقاصدهم التي تنتهي إلى التكفير للحكام ومن يواليهم.

وأهم مسألتين أبرزوهما قضية الحكم بغير ما أنزل الله، لوجود النصوص العامة التي يمكن بثها وإشاعتها بما يؤدي إلى المقصود من التكفير كقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[المائدة:٤٤].

والمسألة الأخرى مسألة "الولاء والبراء" وكيف أن الحكام موالون للكفار وأنهم أجراء عند الغرب وأنهم يحبون الكفار ويوادّونهم والله تعالى يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المجادلة:٢٢] الآية، إضافة لنصوص أخرى في القرآن والسنة وكلام أئمة السلف.

كما أن المسألتين يمكن أن تجد لها شواهد واقعية يبرهنون بها على صدق كلامهم، ففي قضية الحكم يأتون بقوانين تجيز التعامل بالربا مثلا وتنظّمه، ويقولون هذا تشريع والتشريع حق لله، وابتكروا تسمية جديدة اسمها "توحيد الحاكمية" ليكون القول بالتكفير سائغا جدا إذا ربط بالتوحيد.

وفي مسألة الولاء والبراء يأتون بالعهود والمواثيق الدولية وفي بعضها ربما محاربة الجماعات التي يرونها جهادية تقاتل الكفار وقادة الدول يشاركون الكفار في قتالها!

أو يأتون بصور لبعض الحكام في صداقة أو مهادنة لبعض رؤوس الكفر.

فيخلطون هذا مع ذاك وينتجون تأصيل التكفير وينطلقون منه في تجييش الأتباع السذج في قتال الأنظمة الحاكمة كما فعلوا في كثير من بلاد المسلمين فعاثوا فيها فساداً وإفساداً.

كل هذا الجهد كان يصطدم فقط بأولئك الذين قرروا مسائل الولاء والبراء والحكم بغير ما أنزل الله على غير ما تعب رموز هذه الجماعة في تأصيله عبر عقود من الزمن، ولهذا كانت ردة فعلهم جنونية بكل ما تعنيه الكلمة وتصرفوا بغوغائية لا مثيل لها في نظري وكأن مشاكل المسلمين كلها توقفت عند مسألة الإيمان؟

وأذكر أنّ في سنة من تلك السنوات كانت الدورات العلمية الصيفية في كل المملكة – هل تتخيل؟ – تتحدث عن مسائل الإيمان فقط!

بل قالوا وأشاعوا أن مرجئة العصر – ويعنون بهم الألباني ومن وافقه- أخطر على الأمة من أي خطر آخر حتى من الخوارج والتكفير، واستطاعوا إيهام بعض العلماء للأسف بذلك الوهم واستصدروا منهم بيانات وكلمات وظفوها بخبث ضد السلفيين حتى قال أحدهم إنّ طلبة العلم هؤلاء ينتمون إلى مؤسسات سرية هدفها هدم عقيدة المسلمين!

كل ذلك فعلوه لا والله ليس غيرة على عقيدة ولا دين، وإنما خوفاً على الأصل الذي بنوا عليه استراتيجيتهم – كما يقال- بل بناءهم الحزبي

والوجودي كله، ألا وهو تكفير الحكام ومن ثم تشريع قيام هذه الجماعات وتشريع أهدافها الثورية والعنف والعنف المضاد.

كان الخلاف في مسائل الإيمان قد جرّ إلى فتنةٍ استهلكت الكثير من الأوقات والجهود، وأهل العلم والإيمان وإن كانوا يذمّون الفتنة ويبغضونها -لما تشتمل عليه من المفاسد الصّادّة عن العلم والدّعوة والبناء - فإنّهم مع ذلك لا يفوتهم أخذ العبرة والعظة منها وممّا يحدث أثناءها.

وإنّ من أعظم العبر فيما وقع أن رأى الجميع من الموافقين والمخالفين آثاراً محسوسةً لتأصيلات المخالفين في الإيمان، ممّن جنح إلى مقول الخوارج والمعتزلة في التّكفير، ونصرهم بعض أهل العلم لما يعلمون عنهم من الخير، ولظواهر ألفاظهم، ولتحيّز بعضهم ضدّ بعض من يخالفونهم، لكن ما إن حدثت الفتن النّاشئة بعد غزو أفغانستان والعراق والّتي اختلط فيها الحابل بالنّابل، فاستبيحت الدّماء والأموال، وكثرت القلاقل، وحمل قومٌ من البسطاء والمغرّر بهم السّلاح على من لا يجوز لهم حمل السّلاح عليهم، وافتأتوا على علماء الأمّة وأمرائها ؛ حتّى رأى الجميع أنّ الأصول العلميّة الّتي يرتكز عليها أولئك الشّباب في التّكفير ومنابذة أهل العلم المخالفين لهم، هي نفس الأصول الّتي أصّلها وقرّرها من ردّ عليهم فيما بعد حين وقعت الفتنة.

ورأى الجميع كيف بدأ الشّباب في اتّهام أولئك بالخيانة والمداهنة والجبن، وأقلّهم من وصفهم بالتّناقض، وهذا صحيحٌ، فإنّ الأصل إنّما أصّل ليُبنى عليه، والعلم النّظريّ أصّل للتّطبيق العمليّ، فمن غير المعقول ما قرأناه لأكثر

من واحدٍ منهم، يؤصّل أصولاً يقرّر بها تكفير المسلم، ويقدّم قبل ذلك مقدّمةً أنّ هذا لا علاقة له بالحكم على الأعيان، وأنّ المهمّ التّنظير، وأنّه لا يقصد تطبيق هذا في الواقع العملي، ومثل هذا الكلام يخالف أبجديّات العلم الشّرعي، لأنّ العلم الشّرعي في أساسه علمٌ تطبيقيٌّ واقعيٌّ، وأصول العلم الشّرعي أصولٌ علميّةٌ ذات فروعٍ عمليّة، خصوصاً في باب الأحكام، ولذلك قال بعض أهل العلم: كلّ أصلٍ لا يبنى عليه فرعٌ فهو من ترف العلم.

وهذا الخلاف مردّه في أسّه وأساسه إلى أنّ الصحويين - ولأسبابٍ تاريخيةٍ ليس هذا مجال سردها - تأثّروا بمناهج وأسماء عاملةٍ في السّاحة الإسلاميّة، وتلك المناهج والأسماء لم تكن سالمةً من شوائب بدعيّةٍ ومآخذ شرعيّة، غضّ الطّرف عنها، فتأثّر بهم من تأثّر، وأخذ عنهم من أخذ، فرسخ من خلالهم في أذهان الجيل أصولٌ وقواعد ظنّوها محلّ إجماع أهل السّنّة، وعليها أسّسوا رسائلهم بل وطروحاتهم الدّعويّة.

فلمّا نشأ في السّاحة من يعارضهم ويخالفهم حتّى من كبار أهل العلم إذا بهم يوجّهون لهم سهاماً بُرِيَت بمُدىً لا تنتمي للمنهج السّلفي، وكان من أشدّها وأخطرها تهمة الإرجاء، بل إنّ بعضهم لم يسلم من قلمه بعض التّابعين، بل كلّ من خالفه مرجئٌ أو متأثّرٌ بالمرجئة، وهذا والله الحيف كلّه أو جلّه!

وتبع هؤلاء أعدادٌ لا حصر لها، وجدت في طروحات القوم مجالاً إمّا لتسويغ حمل السّلاح في وجه الأنظمة وأعوان الأنظمة لأنّهم في رأيهم كفّارٌ

مباحوا الدّم والمال، وإمّا لتسويغ تركيز كلّ أنشطتهم الدّعويّة والعلميّة في المجال السّياسي، ودعم كلّ الحركات العسكريّة و الحزبيّة، ما دامت تلتقي معها على أساس تغيير الأنظمة الحاكمة، حتّى لو كانت اتّجاهات تلك الحركات بدعيّةً، أو عقلانيّةً، أو حتّى دمويّة.

وهذا زاد الطّين بلّة، ووسّع الخرق على الرّاقع، فعسر على المصلحين الإصلاح، وعجز النّاصحون عن النّصح، خوفاً من التّصنيف أو العزل، خصوصاً وقد تأيّد البعض بفتاوى من هنا وهناك، ساعدت على تأجيج نار الفتنة، و كَبْت أصوات المصلحين، بل وتأليب السّفهاء والغوغاء ضدّ كلّ من يقول: السّكينة: السّكينة.

ومع ذلك ؛ فإنّ هذه الفتنة أظهرت زيف الدّعوة، وكشفت دخن الصّحوة، وعرّت الكثير ممّن تلبّس لبوس الغيرة على العقيدة لتصفية الحسابات مع بعض مخالفيه.

وأظهر الله أهل الحقّ، وأبان عن سديد أقوالهم، وطيب منهجهم، حيث تمسّكوا بحبلٍ من الله مديد، وآووا منه إلى ركنٍ شديد.

وبدأ كثيرٌ ممّن أعمت الدّعاية والبهرج أبصارهم وبصائرهم يعيدون الفكر ويجيلون النّظر فيما كانوا يظنّونه حقّاً بلا مرية، وأصبح من كان يقبل بلا جدلٍ ولا نظرٍ يمحّص، فيتثبّت في المنقول، ويتحقّق من المعقول.

ورأينا جميعاً كيف بدأ الجميع ـ حتّى بعض المخالفين ـ يرجع القهقرى، وأصبح قول السّلفيين بحقٍّ بيّناً صوابه، ظاهراً حسنه، إذ هو حقيقة السّنّة

انتقل إلى الفهرس

الّتي تحفظ على النّاس دماءهم وأموالهم، وتضمن سير الدّعوة والجهاد سيراً حثيثا يؤدّي غرضه، وينفي خبثه، ويحقّق مصالحه، ويدرء مفاسده.

ولئن كنّا نتمنّى أن يعلم النّاس هذه الحقيقة قبل أن يذوقوا حرّ السّلاح، وبرد السجون، فللّه تعالى في كلّ شيءٍ حكمة، وهو تعالى أعلم بما يصلح عباده، ومن يدري؟ فلربّما لو لم نر مآل ونتائج الأقوال الفاسدة سريعاً، لربّما بقيت تربوا فينا طويلاً، حتّى تترسّخ، فلا تقتلع إلاّ أن يشاء الله، والله تعالى نسأله الهدى والصّلاح والثّبات على السّنن القويم، والنهج السّليم حتّى الممات.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

تحكيم الشريعة: المفهوم الغائب

من المفاهيم التي شوّهتها الصحوة مفهوم حاكمية الشريعة، إذ تقلّص هذا المفهوم ليصبح مجرد وصول حاكم منهم لسدة الحكم، ثم لا يهم بعد ذلك.

إذ عرفنا من أدبيات الجماعات الصحوية بل من واقعها الذي رأيناه أنهم على صنفين: فالجماعات الكبرى منهم لا أصول عندها ولا ثوابت، والصغرى منها خاصة التكفيرية يضيق عندهم الأمر لينحصر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقوة وتطبيق الحدود.

وحتى نعرف بون ما بين هذا التصور وبين الإسلام حقا وصدقا، نقول ما يلي:

يولد الإنسان خلياً عن العلم والإيمان، ويبدأ رويدا رويدا يكتسب معارفه وعلومه وعاداته حتى يبلغ سنّ التكليف، والله سبحانه لا يؤاخذه بشيء، بل يصبر عليه حتى يبلغ سناً يُفترض فيه أنّه قد تأسس لديه ما يشبه البنية التحتية أو القاعدة والأساس الّذي يمكن أن يُبنى عليه قانون الثواب العقاب، فيُحمد على الحسن ويُذمّ على القبيح ويُؤاخذ بما تقترف جوارحه سواء في الدنيا أو الآخر.

وهذه الفترة الزمنية تمتد إلى خمس عشرة سنة أو أقل بقليل، وهي فترة طويلة من حياة الإنسان قد تشكل ربعه أو خمسه عند غالب الناس، ومع هذا فالشريعة لا تعجل عليه حتى يستقيم عوده ويصبح أهلا للتكليف.

ليت كلّ الجماعات والأحزاب والحركات الّتي تقاتل من أجل تحكيم الشريعة تعي هذه السنة الكونية الشرعية وتتأملها جيدا.

إذا كان هذا تعامل الشرع مع الفرد وهو وحدة واحدة تتشكل منها المجتمعات، فكيف يمكن الاستفادة من هذه العبرة في تربية وسياسة المجتمعات، الحقيقة أنّ هذا لا يحتاج إلى اجتهاد، بل نظرة سريعة في تاريخ التشريع الإسلامي ومراحل تكون النظام السياسي وغيره تعطيك الحقيقة جلية، وهي أنّ الشريعة تعاملت مع المجتمع كما تعاملت مع الفرد، فكثير من التشريعات جاءت متدرجة وبعضها جاء تابعا لبعض، تحريم الخمر من الأمثلة المشهورة، فلك أن تتخيل أنّ أصحاب بدر وأحد من خيرة الصحابة كان بعضهم شاربا للخمر! نعم كان ذلك في وقت لم ينزل فيه تحريم الخمر.

بل التشريع الإسلامي كله راعى هذه السنة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[القمر:٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده».

ونحن نلاحظ التركيز في مسألة تحكيم الشريعة على جانب العقوبات مع أنّ هذا الجانب ينبغي أن يكون صاحب السلطة على حذر كبير وحساسية شديدة تجاهه لأنّ العقاب مدعاة لتولد الكراهية والعداوة خاصة حين يكون تطبيق العقوبات معزولا عن بقية الجوانب التشريعية.

كان على الجماعات والحركات الإسلامية التي تباشر مسائل الدعوة والجهاد والتربية – لو كانت على فقه السلف وفقهاء الأمة – أن لا تعجل على الناس في تطبيق الشريعة سواء ذلك المتعلق بالعقوبات أو الإلزام، وأن تسير بالمجتمع سيرة الشريعة مع الطفل الصغير الذي يُعفى عنه مدة من الزمان ويُشجع مدة من الزمان ويُعلّم بعد ذلك ويوجّه ويوبخ ثم آخر الأمر يسلك معه مسلك العزيمة.

وهذا الذي ذكرته يشمل كل حالات الدعوة، بمعنى أنّ الأمر لا يتغير سواء كان الإسلاميون في السلطة أم كانوا خارجها، فإذا كانوا هم أصحاب السلطة فسيرة النّبيّ ﷺ خير أنموذج في هذا الجانب، وإذا كانوا خارج السلطة فالأمر أشدّ، إذ عليهم أن يصبروا على الناس بمن فيهم الحكام والولاة وأن لا يستعجلوا منهم ما لا طاقة لهم به حتى تتكون لديهم الأسس العلمية والإيمانية الّتي يمكن أن يُبنى عليها البناء الإسلامي وفق رؤية متكاملة صلبة تتأثر وتتفاعل وتمرض وتضعف لكنّها لا تموت ولا تُستأصل.

إذا عرفنا هذا عرفنا حجم الضرر الذي لحق بالدعوة والجهاد في مناطق من العالم اختارت الحركات الجهادية حين مُكّنت في بعضها تمكينا نسبيا أن تعلن عن تبنيها تحكيم الشريعة عن طريق قطع أيادي الجوعى، وجلد الرجال والنساء وإقفال دور السينما وحرق محلات الفيديو ومطاردة المقاهي والجالسين فيها في مجتمع وقع ضحية التغريب وتغييب الشرع فترة طويلة.

إنّ قضية تحكيم الشريعة قضية أصابها الابتذال كثيرا، فمرة هي مجرد شعارات تُمرر من تحتها الأباطيل، ومرة تتحول إلى أداة لتعذيب الناس عن طريق التعمق والغلوّ فيها، وكلّ هذا سببه النظر إليها نظرة مجتزأة.

فتحكيم الشريعة يجب أن يكون ذا مرجعية سلطوية واحدة، لأنّ الشرع ليس مجرد قانون عقوبات، ولا مجرد قانون أحوال شخصية، أو غير ذلك، الشريعة مثل الآلة ذات التروس المتعددة التي تتناغم أسنانها وتتشابك في دورانها حتى تؤدي وظيفة ضبط إيقاع السلوك الاجتماعي وفق النصوص الشرعية، وهو أمر في غاية الدقة لا يجوز الأخذ بجانب منه وترك آخر وإلاّ توقفت الآلة أو أصابها خلل يجعل منها آلة تخريب لا ضبط.

تأمل معي ما يلي كمثال نفهم منه الأمر بشكل أوضح:

قانون العقوبات هو سياج يحمي ويردّ من يخرج عن الطريق إلى جادة الصواب ويكون عبرة لغيره، وهذه العقوبات تتداخل مع عدة أنظمة شرعية، دعنا نأخذ العلاقة بين الرجل والمرأة كمثال، فالله تعالى أمر بالحجاب وحرم السفور والتبرج والخلوة والسفر بلا محرم وغير ذلك من المحاذير الّتي تعين على بقاء الجريمة الأخلاقية - أي الزنا- في أدنى مستوياتها.

فيأتي حدّ الزنا أو العقوبات الأخرى التعزيرية كَحَلّ أخير لمن لم ينفع معهم التربية الأخلاقية ولم يُجْدِ معهم النظام الاجتماعي المنضبط فتكون العقوبة لتأديبه وزجره عن التكرار أو الاستعلان بالخطأ، هنا نقول إنّ تطبيق الحد الشرعي أو العقوبة التعزيرية قد جاء فعلا تطبيقا صحيحا للشريعة.

لكن!

حين يكون المجتمع ضاجا بمختلف أنواع السفور والتبرج وربما التعري سواء ذلك في الشارع أو أماكن العمل والدراسة أو في وسائل الإعلام وتكون العلاقة بين الرجل والمرأة هي محور القصة والخبر والعمل السينمائي والمسرحي بل وحتى الدعايات المصورة لمختلف المنتجات التجارية توظف فيها المرأة وجسدها بصورة في غاية الجمال والإغراء فهذا يعني أنّ البيئة الّتي يعيش فيها الإنسان بيئة دافعة وبقوة تصل أحيانا إلى شبه الإجبار والإكراه تحت ضغط الغريزة التي تتحول بفعل البيئة المشجعة إلى غول يصعب على الكثير من الناس مقاومته، وكل هذا يحصل تحت سمع وبصر الجميع، فحين يقع شخص ما في جريمة الزنا أو ما دونها مما يجري مجراها فيُقام عليه الحد أو العقوبة التعزيرية فإنّ هذا وإن ظنه البعض تطبيقا للشريعة لكنّه تطبيق مشوّه لا يؤدي إلى تحقق الحِكَم الشرعية من العقوبة، بل يصبح ذلك مدعاة لكراهية الناس للدين والشريعة الّتي لا تظهر لهم إلاّ في صورة الجلاّد الذي يقطع الأعضاء ويجلد الظهور ويسجن وينفي ويصادر الأموال، ويزيد الأمر شدة وسوءا حين يُستثنى من العقوبة أشراف الناس، فانظر وتأمّل أيّ نفس سويّة تقبل الدعوة لتطبيق الشريعة بمثل هذا الاجتزاء والتشويه؟!

الشريعة الإسلامية بكل أنظمتها يجب أن يبرز فيها جانب الرعاية والرحمة، لا أن يُهمل منها هذا الجانب ويبرز فيها القسوة المجردة، إذ حتى بعد تطبيق العقوبة الشرعية تتحول العقوبة إلى حكم أبدي يلاحق المحدود ولا يجد من يعيد للمحدود شخصيته الاجتماعية، وإذا عدنا إلى سنّة النّبيّ ﷺ

نجده يقول في حق الخزاعية الّتي سرقت فقطع يدها: «أنت اليوم من الخطيئة كيوم ولدتك أمك »، ونقل عن النّبيّ ﷺ: «أنّه كان بعد ذلك يصلها ويرحمها»، وكان يقول عن مدمن الخمر الذي كان يؤتى به ويُجلد في الخمر: «إنه يحب الله ورسوله»، وهذا يعني أنّه يعالج الأثر النفسي الذي تحدثه العقوبة، وهذا ما لا نعلمه يكون في الواقع.

وخلاصة الأمر - حتى لا يُفهم عني الدعوة لتعطيل الحد الشرعي - أقول: إنّ الشريعة نظام كامل مترابط الأجزاء يبدأ من التربية والتوجيه وتوفير البيئة ومنع المثيرات وأسباب الخطأ ويمر بمعاقبة المخطئ ولا يتوقف عند استصلاحه مرة أخرى وإعادته إلى جادة الصواب، أمّا اقتطاع جزء من الشريعة وتطبيقه بحذافيره وبصرامة قبل استكمال الأساسات التي يقوم عليها فقد عاد هذا بنتائج عكس ما شُرعت له الأحكام، ورأينا كره الناس للإسلام الذي يقدمه الإسلاميّون.

أما الصنف الأول من المنادين بتحكيم الشريعة فهم الذي يتمحور هذا المبدأ في وصول أحدهم لسدة الحكم بأيّ شكل يتيحه الواقع، إما باستبداد أو ديموقراطية.

والحقيقة أن ما سُمّي زورا بالربيع العربي كشف لنا ذلك بشكل صارخ في البلدان التي نافسوا فيها ووصلوا، ففي مصر مثلا وتونس رأيناهم تخلوا عن كل أصول الشريعة في سبيل البقاء في الحكم والوصول إليه، تحالفوا مع الغرب الذي قالوا إنه صليبي حاقد مستعمر، تبنوا الديموقراطية بل والليبرالية بل والعلمانية الفجة، حتى أقر الشذوذ والزنا في تونس، وانقلبوا

في مصر وكذلك في تونس على كل المتحالفين معهم من إسلاميين أو غيرهم ورجعوا إلى استبداد مغلف بالديموقراطية ومموّه بالإسلاموية، وتحقق فيهم فعلا ما كان يقوله خصوم الشريعة.

وهذا كله بسبب أنّ هذه الجماعات على غير ما تظهره وتتزيّا به غائبةٌ عن الشريعة ومغيّبةٌ لها ومُقصِية، فالحكم والحاكمية في المنهج الشرعي وسيلة وليس هو غاية في ذاته، فإذا عشت في نظام استبدادي أو ديموقراطي علماني –كما يسمونه– يحفظ لي العيش والأمن وإظهار شعائر ديني فهذه الصورة خير عندي ألف مرة من نظام يمارس نفس الأمر بشعار "الحكم لله".

وإذا كان الأمر في النهاية حرية ممارسة الشعائر والدعوة إلى الله بالحسنى ونشر العلم والأحكام الشرعية فهذا مكفول في كل الدول حتى الغربية فلماذا الصراع ومصادمة الحكومات والدول والمؤامرة مع الغرب والشرق ضد ولاة أمور المسلمين؟

❃ ❃ ❃

انتقل إلى الفهرس

الحوار من مبدأ حسم الصراع

الحوار في عهد الصحوة كان مشكلة بحق، بين من يغلقه ويرفضه بالمطلق، وبين من يقبله لكن بلا ضوابط، وإنما ينخرط فيه هكذا دفاعا عن قضيته أيا كانت.

إشكالية الحوار وكل الجدل القائم حوله سابقا بين مؤيد ومعارض ومتوجس ومتفائل ومتشجع ومتردد سببها من أمرين، الأوّل: الاختلاف في فهم مقاصد الحوار وآليّاته ومن ثمّ الحكم عل كلّ حالة بما يناسبها، الثّاني: الاختلاف حول الغاية والحد الّذي ينتهي إليه الحوار ومن ثمّ اتخاذ قرار البدء فيه أو قرار إيقافه بعد ذلك.

وضمن هذين الأمرين تفصيلات كثيرة وجزئيات أجدها أحيانا بالغة التعقيد، وأكثر ما يجعلها كذلك غياب الطرف القويّ، فالحقيقة أنّ النديّة بين المتحاورين إيجابية من حيث ضمان إتاحة الفرصة لكل طرف من أجل بيان فكرته بوضوح، إلاّ أنّها سلبية من حيث افتقاد الطرف الّذي يستطيع إيقاف عجلة الحوار في الوقت المناسب لأنّه أحيانا يتحول الحوار إلى ملاذ ومهرب من العمل والبناء وحينها يصبح بيزنطيا كما يُقال.

بطبيعة الحال للحوار مساحاته ومستوياته، ويهمني هنا أن أشير إلى الحوار بين الإسلاميين، وبين المنتمين لأهل السنة على وجه الخصوص، إذ المشاهد والمحسوس أنّ هناك أزمة حوار هذا لا مفر من الإقرار به، والفشل في الحوار مع الأقرب هو قاعدة الفشل في الحوار مع الأبعد، لأنّ الحوار

وتبادل البراهين والحجج يكون أجدى وأنفع وأوضح كلّما زادت مساحة المشترك بين المتحاورين، فإذا فشل الإنسان في الحوار مع من يعيش معهم في مساحات واسعة من المشترك المعرفي أو الإنساني أو الديني أو السياسي ففشله مع من تضيق تلك المساحة به وبهم أحرى وأولى.

يمكن لكل شخص أن يلحظ الإقصاء والأحادية وضيق العطن والحسد والاستعلاء على الآخرين كعوامل لفشل الحوار في المساحة الشرعية إبّان الصحوة، هذا معلوم تحدّث فيه الكثيرون سواءٌ من الأصدقاء أو من "الإخوة" الأعداء!

غير أنّ هنا عامل قد يخفى على البعض وإن كان واضحاً جليا في أدبيات السلف.

فالواضح من سلوك الكثيرين من متقلدي الحوار مع الأطراف المخالفة الانطلاق في الحوار من مبدأ حسم الصراع.

بمعنى أنّه يدخل الحوار وقد أعدّ لمحاوره ما استطاع من قوّة ومن رباط الخيل ليمارس معه أقوى ما يستطيع، لا من الحجج والبراهين فقط، بل أقوى ما يمكن من أساليب الإرهاب والتخويف تارة بمخالفة الإجماعات الموهومة، وتارة بمخالفة كبار العلماء، وتارة بمخالفة الأعراف السائدة وتارة بموافقة أعداء الله من كفار ومنافقين.. إلى غير ذلك من أساليب لا تخفى على لبيب.

بمعنى أنّ المحاور لا يريد ولا يقبل أن يفتح حوارا دون أن يصل فيه إلى نقطة الحسم الّتي هي في تصوره أحد أمرين:

فإمّا استسلام الخصم واعترافه بأنّه على خطأ ورجوعه إلى الرأي الآخر.

وإمّا إفحامه وإسكاته ليسقط من نظر الجمهور.

وهنا مكمن الخطأ الّذي يتسبب في آثار سلبية للغاية ليس أشدّها زرع البغضاء والعداوة والتنافس غير الشريف وتحول الحوار إلى آلة استعلاء وتكبر في الأرض بغير الحق، وأشدّها في رأيي هو دخول الأمة أفرادا وجماعات في دهليز حوار لا نهاية له تسبب في تضخم كتب العلم ليصبح المتن القصير عشرات المجلدات لا أقول في مسائل الفقه والحديث الّتي قد تحتمل مثل هذا التضخم لكثرة الصور والمسائل، بل في مسائل خبرية وعلمية وفلسفية - وأحيانا مسائل منهجية جامدة الصورة - لا يحتاجها الذكي ولا ينتفع بها البليد كما قال شيخ العلوم ابن تيمية رحمه الله.

وإذا تأملت في حالتنا الراهنة وجدت ذلك بيناً بجلاء، لا تخطئه العين في مجالسنا ومنتدياتنا وإن شئت فحاول أن تحصي المسائل الّتي طال حولها الجدل ولم يتوقف إلى الآن وشغلت أجيال الشباب عن البناء المعرفي لأنفسهم وغيرهم بالطواف حول نُصب من المسائل المحدودة الّتي لا يضر الخلاف فيها ولا يمكن أن يُحسم لطرف على آخر لأنّها محتملة أصلاً.

الاختلاف موجود وسيبقى، والمخالف لك موجود وسيبقى، ولن يملك أحد أن يلغي سنّة الله في كونه، كما لا يجوز مصادرة حق شخص أن يخالف فيما له فيه مندوحة، بل حتى إن خالف فيما يضيق فيه الخلاف يبقى الأمر واسعا يحتمل، ويبقى للجميع حق توضيح الفكرة لا على مبدأ حسم الصراع والخلاف، وإنّما على مبدأ ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾[الشورى:٤٨] وكما

قال الحسن البصري رضي الله عنه: «المؤمن يداري، ولا يماري، ينشر حكمة الله، فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله» وفي رواية: «الحكيم لا يماري ولا يداري».

وكلنا يعرف الواقعة المشهورة حين قال النّبيّ ﷺ للصحابة: «لا يصلين أحدكم العصر إلاّ في بني قريظة»، ومن ثم اختلف الصحابة في الطريق بين من أصرّ على الاستمرار في المسير حتى لم يصل العصر إلاّ في بني قريظة بعد غروب الشمس، وبين من فهم الكلام على أنّه حث على الاستعجال فصلى في الطريق.

وشاهدي من القصة أنّ المختلفين من الصحابة لم يدخلوا في جدل وحوار بهدف حسم الخلاف، بل اختلفوا ومضوا، فلا هؤلاء منعوا الآخرين وحجروا عليهم مواصلة السير وتأخير الصلاة، ولا أولئك منعوا الأولين من الصلاة وحجروا عليهم التوقف لأدائها، بل بيّن كلّ من الفريقين موقفه من القضية محل الخلاف وتصرف وفق رؤيته.

أنا لا أشكّ لحظة أن لو أنّ الجميع اتفق على فهم واحد لكلامه ﷺ أنّه خير وأفضل، لكن ما دام الخلاف في الفهم والتأويل حصل، فإنّ التعامل مع هذا الخلاف بهذه الصورة الراقية جدا حتى إنّك لا تجد كلاما حول أزمة نشبت بين الفريقين بسببها أقول هذا التعامل مهما قيل عن وجود مفسدة ما من حيث وجود الخطأ ودفاع القائلين به عنه فإنّه أقلّ مفسدة من إشغال الأمّة كلّها به طلبا للوصول إلى نقطة الحسم لأنّها شبه مستحيل.

انتقل إلى الفهرس

ولأنّه إذا تردد الأمر بين أن يضل فريق من الأمّة وينشغل الفريق الآخر بالصواب والبناء عليه ونشره، وبين أن ينشغل الجميع برد الباطل وحسم الخلاف عن البناء ونشر الخير فالأوّل أولى بلا شكّ، والله أعلم الصواب.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

خطابات الصف الأوّل

ليتني لا أضجر القارئ الكريم بكثرة ما أتحدث عن عيوب وأخطاء الصّحوة، إذ لدي قناعة بأنّ هذا الجانب لقي كثيراً من الإهمال فتراكمت الأخطاء وزادت العيوب حتى أصبحت معضلات تعيق تدفق الحياة في كلماتنا التي ندبجها مكتوبة أو نلقيها مسموعة.

هذا الجانب ربما يظن البعض أنّه مضيعة للوقت أو يراه نوعاً من جلد الذات، وليتنا لا نكترث كثيراً للعناوين التي يعنون البعض بها مواقفنا لأنّ هذا يضخم لدينا مراقبة الخلق أكثر من مراقبة الخالق تبارك وتعالى، فما نكتبه عن عيوب الخطاب الإسلامي ولو سماه البعض تراجعاً أو تغيراً أو جلداً للذات أو تكفيراً عن الماضي فالحق يجب أن يقال والحقيقة يجب أن تكون هدفاً مَهما كان الثمن الذي يدفعه المتكلم في سبيل ذلك من عرضه وعلاقته بالناس.

فمن عيوب الخطاب الإسلامي أنّه في كثير من الأحيان يراعي الصف الأول، أعني أنّه يسترضي مجموعة المتصدرين في الإقليم أو المؤسسة أو البلد من علماء أو دعاة أو ولاة وهذا الأخير مكشوف معروف، وهو محل نقد الكثيرين، لكن النوعين الأولين هما اللذان نغض الطرف عنها.

دعني أتفق معك أنّ مراعاة المتكلم للحالة العلمية والدعوية في منطقة ما أو مؤسسة ما أمر يُحمد ولا يُذم، لكن له حدوداً تقدر بقدرها، إذ لا يجوز افتراس أجزاء من العلم وإخفاء أجزاء أخرى وحصار القائلين بها مراعاة

لخاطر المتصدر للعلم والفتيا أو الدعوة، بل يجب أن يكون بيننا اتفاق أدبي على احترام اجتهادات الآخرين وترك المجال لهم ليعبروا عن الحقائق التي يصلون إليها عن طريق البحث لعلمي.

لكن الذي حصل ومازال يحصل ولو بنسبة أقل أنّ الخطيب والواعظ والداعية والمحاضر غالبا يحرصون في خطابهم على التناغم مع الطبيعة الفكرية أو الفقهية التي يراها ويحس بأثرها في الصف الأوّل، وهذا أدّى إلى اضمحلال أقوال فقهية واجتهادات شرعية قد تكون هي الأَوْلى والأقوى دليلاً وتعليلاً حتى يصبح القول بها بعد برهة من الزمن شذوذاً إن لم يُعدّ ذلك بدعة منكرة وهذا الأمر مهاد للفتنة أيّ مهاد.

وهذا الداء استشرى في أيام مضت فأصبح كثير من العاملين في مجال الدعوة يراقبون انطباعات المتصدرين ويلاحظون أين يقع منهم ما يفعلونه أو يتفوهون به وذلك على حساب قناعات علمية وتفضيلات شرعية وأحكام وضرورات وحاجيات للناس أحيانا وللشرع نفسه أحيانا أخرى.

ويدلك على هذا أنّك في زمن مضى وخلال عقد أو عقدين تجد المزاج الدعوي والديني تقريبا على نسيج واحد، وأيّ اختلاف يكون مُلاحظاً مباشرة بل ومتّهماً في بعض الأحيان.

وإذا تأملت كتب الآثار عن السلف ستعرف حقا ما يعنيه هذا، فأنت تجد في المسألة الواحدة والحالة الواحدة آراء كثيرة متعددة لأولئك الأئمة الذين عاشوا في القرن الأول أو الثاني أو حتى في نهاية عصر الصحابة، بعكس الفترة التي عشنا فيها وعاش كثيرون غيري لا يجدون إلاّ نوعاً واحداً سائداً

لا أقول في الفتوى الشرعية بل حتى في المزاج العام والنفسيات التي تتعامل معها في المحيط العلمي أو الدعوي، حتى إنه غلب على كثير من الناشئة تقليد وتكرار النماذج القائمة في إشارة إلى سيطرة فكرة الأحادية في أسلوب التدين بعامة وطلب العلم بخاصّة.

بل والأسوء من هذا أن الجماعات ورموزها حرصت على هذا الاسترضاء وإظهار الموافقة بل والغيرة في كل المسائل التي لا تمس أهدافها ولا تتقاطع مع مصالحها الفئوية، لكننا رأينا أنّها حين حصل ذلك ضربت بكل هذه الأعراف عرض الحائط، أي أنها في الجانب الذي يحتاج التحديث والإصلاح والتغيير المنضبط لم تكترث به استرضاء لأصحاب النفوذ، ولم تكترث بغيرهم من جمهور المسلمين.

لكن هذا سقط مباشرة حين تصادم مع مصالحهم الشخصية أو الحزبية كما أشرنا، وهذا مرض لم يسلم منه إلا القلّة.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

الفضيل بن عياض وزيراً

قرأت يوماً حكاية الرشيد مع الفضيل بن عياض، وهي قصة مشهورة – وإن كان في سندها مقال– بكى فيها الرشيد من موعظة الفضيل، وبلغ الرشيد من الإعجاب به مبلغاً حتى قال لوزيره: «إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين»، ومع هذا فقد سألت نفسي: تُرى لو أنّ الرشيد احتاج إلى وزير للمال أو للحرب أو غيرها من الولايات أكان سيبحث عن الفضيل؟

ثمّ تخيّلت لو أنّ الفضيل في عصرنا ورُشّح لمنصب رئيس للبلاد أو وزير للدفاع أو القضاء، فقلت في نفسي: لو كنت في زمن يُرشح فيه مثل الفضيل لما انتخبته ولما أعطيته صوتي، ماذا يعود على الأمّة من عابد يهوى الزوايا للخلوة والبكاء والصلاة، ربّما يغضب البعض من هذا الكلام ظناً منه أنّ فيه انتقاصاً للفضيل رحمه الله، وليس كذلك، بل هو موافق لسنّة النّبيّ ﷺ.

لقد عاش في عهد النّبيّ ﷺ وتحت رعايته عدد كبير من صحابته، كلّهم كانوا قِمَماً في العبادة والتقوى والخوف من الله تعالى، لكن كم منهم ولاّه النّبيّ ﷺ ولاية عامة؟

وأولئك الذين ولاّهم هل كانوا هم الأشهر في الجانب العبادي والتقوى والخوف من الله؟

هذا أبو ذر جندب بن جنادة –رضي الله عنه– الذي قال عنه ﷺ: «ما أقلّت الغبراء، ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر» يقول: قلتُ:

يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلاّ من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها».

إن التنوّع في الطرائق والأساليب والقدرات ما دام في إطار أهل السنة والجماعة هو إثراء للمجتمع المسلم وقوة له، لكن شريطة ألاّ يكون هناك مغالبة وخلط في الإحلال.

إن وجود مجموعات أو افراد من العلماء والصالحين الزهاد الذين هجروا الدنيا، وعافوا حتى مباحاتها، وغلب على نفوسهم الخوف من عواقب الآخرة والتزود لها أمر لا يُنكر ولا يزعِج، ولا ينبغي أن يكون مدعاة للتذمر، فوجود هؤلاء ضرورة توازنية ومواعظ تخفّف من غلواء التكالب على الدنيا، فكم من غافل ساهٍ توقف أمام موعظة بل أمام منظر أو قصة زاهد ليرعوي قلبه، ويخفف من تمسكه بالدنيا، ولهذا كان الرشيد وغيره من الأئمة كلما أحسوا بقساوة القلب والانغماس في شؤون الدنيا والسياسة والحكم يتطلبون العلماء والزهاد منهم خاصة للعظة والاعتبار.

لكنّ من كان هذا حاله فإنّه يغلب عليه التفكير العاطفي أكثر من السياسي أو التقني الاحترافي، فيكون هذا سبباً في ضعفه من الجوانب الأخرى، وهذا ما لاحظه النبيّ ﷺ في أبي ذر فقال له: إنك ضعيف.

هنا نلاحظ مسألة الكفاءة، فامتناع النّبيّ ﷺ عن توليته سببه ما يعلمه من شخصية أبي ذر الّتي لا ينقصها الأمانة، بمعنى المحافظة على الحقوق العامة،

ولا الخوف من الله والتقوى والزهد، لكنّ الولايات العامة لا يصبر على سياسة الناس فيها من غلب عليه الجانب العبادي مثل أبي ذر.

وعند الحديث عن المنهج الإسلامي في التربية والتنمية فإنّك لا تستطيع أن تغفل اهتمامه بالفروق الفردية والسمات الشخصية وتكريسها وتطويرها والاهتمام بها؛ فالمنهج الإسلامي يعترف بالقدرات الحسيّة والمعنوية النفسيّة، ولا يحجّر واسعاً على أي مسلم يرى أنّ طريقاً ما هو الأصلح له في عمارة دنياه والتزوّد لآخرته.

وهذا الأمر بدا جلياً واضحاً من عهد الصحابة، أي منذ وضع اللبنات الأولى في بناء الجيل الأمثل والأوّل الذي قامت عليه وفيه الدولة الإسلامية، ولهذا أمثلة عديدة لا أريد الاستطراد فيها لكونها معلومة، ومنها ملاحظة النّبيّ ﷺ لهذه السمات، فكان وزيراه أبو بكر وعمر، وكان على جيوشه خالد بن الوليد، وأسامة، وأبو عبيدة ونحوهم، وكان للكتابة معاوية وعبدالله بن عمرو، وكان للجانب الإعلامي شاعره حسان وخطيبه كعب، وأمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود فتعلمها في أيام معدودات، وغير ذلك كثير يعلمه من يطلع على سيرته ﷺ.

والصحابة الكرام كانوا ملاحظين لهذا الأمر، فعملوا به في خاصة أنفسهم وفيمن تحتهم، فهذا أبو بكر وعمر يسيران في الأمر بنفس السيرة، فانظر للذين تولوا الولايات في عهدهم كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم تجدهم ليسوا في العبادة والتقوى مثل من هم فوقهم، لكنّهم كانوا الأصلح والأكفأ.

ولم يكونوا -رضي الله عنهم- هواة استنساخ وتكرار، بل كل واحد منهم عارف بنفسه مستغل لها فيما تحسن، فمثلاً: في الوقت الذي امتهن بعض الصحابة التجارة فكانوا من الأثرياء كعثمان وعبدالرحمن بن عوف، لم يطق بعض الصحابة أن يجمع بين التجارة وبين العبادة، وقد كان أبو الدرداء تاجرًا مشهورًا، فلما أسلم تفرغ للعلم والعبادة، وقال: «أردت أن أجمع بين التجارة والعبادة، فلم يستقم، فتركت التجارة وأقبلت على العبادة» ولم ينكر أحد عليه ذلك، كما لم ينكر هو على غيره التجارة والثراء.

لست هنا بصدد الحديث عن مسألة القدرات، ولا أقصدها بالذات وإنّما أريد أن أدلف منها إلى شيء آخر، ألا وهو مسألة الكفاءة.

إذ غلب على كثير منّا ملاحظة الجانب العبادي والشهرة فيه عند تقييم الناس، ومن ثمّ تكليفهم والرضا بهم، حتّى ضحّى من أجل ذلك بالجانب المهني الإتقاني والاحترافي للمهن والمناصب والوظائف.

إنّك تعجب حين ترى أنّ بعض المؤسسات الرسمية - والأهلية كذلك - يتكدس فيها كثير من الصالحين الّذين لا نقدح في دينهم وتقواهم، لكنّهم ليسوا أكفاء في شغل تلك الوظائف.

هذا الأمر أصبح مدعاة لنسبة التقصير والفشل الّذي يحتوش كثيراً من المؤسسات أو المشاريع الإسلامية إلى الإسلاميين أو الشرعيين، وفي هذا قدر كبير من الصحة، والسبب هو تغليب الجانب العبادي أو العلمي في شخصية شاغل المنصب، تحت ذريعة سدّ الثغرات.

وهذا حدث كذلك، ويحدث عندما تجري انتخابات لشغل وظائف ذات طابع مهني، فمن العجب أن يتم الانتخاب فقط بحسب الجانب العبادي أو السلوكي في شخصية المرشح.

أنا هنا لا أهمل الجانب الشرعي ودوره في بعض الوظائف، لكنّي أعترض على جعله هو المقياس الذي يندفع إليه الناس بدافع العاطفة.

في الحقيقة هذا السلوك لا علاقة له بالشرع ولا بالدين؛ فالشريعة تعطي التخصص وإتقانه والقدرة على العطاء فيه أولوية على سمات الشخص الدينية، وهذا أمر بلا شك يحتاج إلى ميزان.

قال عمر بن الخطاب لجلسائه يومًا: تمنوا، فقال أحدهم: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت دراهم، فأنفقها في سبيل الله، فقال: تمنوا، فقال آخر: أتمنى أن يكون ملء هذا البيت ذهبًا، فأنفقه في سبيل الله، فقال عمر: لكني أتمنى أن يكون ملء هذا البيت رجالاً من أمثال أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، فأستعمِلُهم في طاعة الله.

هذا يقوله عمر في عصر فيه الصحابة وكبار التابعين المشاهير في العلم والسنة والزهد والعبادة، ومع هذا كان عمر يفتقد رجالاً كأبي عبيدة وحذيفة ومعاذ، فما الذي كان يميزهم عن غيرهم؟

وهذا الأمر راجع في مجمله إلى الفقه الواقعي، الفقه الّذي يعترف بأثر التّغيير الّتي يطرأ على الأمّة وعلى الأفراد في طبائعهم وسلوكياتهم، وتغير بعض أنماط السلوك والتفكير لأسباب عديدة يطول ذكرها، لكن الشاهد أنّ الواقع الذي يعيشه المجتمع يفرض ضوابط وشروطاً وقواعد تحكم

عملية الاختيار، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب -رضي الله- عنه يقول: اللهم أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة، فالواجب في كل ولاية، الأصلح بحسبها.

فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية: وأقلهما ضرراً فيها، فيقدم في إمارة الحرب الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور فيها، على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أميناً، كما سئل الإمام أحمد: عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزو؟ فقال: أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، فيُغزى مع القوي الفاجر.

وقد قال النبي ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر».

ولهذا كان النبي ﷺ، يستعمل خالد بن الوليد على الحرب، منذ أسلم، وقال: «إن خالداً لسيف سلّه الله على المشركين» مع أنه أحياناً كان يعمل ما قد ينكره النبي ﷺ، حتى إنه - مرة - رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد». لما أرسله إلى خزيمة فقتلهم، وأخذ أموالهم بنوع شبهة، ولم يكن يجوز ذلك، وأنكره عليه بعض من معه من الصحابة، حتى وداهم النبي ﷺ وضمِن أموالهم، ومع هذا فما زال يقدمه في إمارة الحرب; لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره، وفعل ما فعل بنوع تأويل.

وكان أبو ذر -رضي الله عنه- أصلح منه في الأمانة والصدق، ومع هذا قال له النبي ﷺ: يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم». نهى أبا ذر عن الإمارة والولاية لأنه رآه ضعيفاً. مع أنه قد روي: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء، أصدق لهجة من أبي ذر»

وأمّر النبي ﷺ مرة عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل استعطافاً لأقاربه الذين بعثه إليهم، على من هم أفضل منه، وأمّر أسامة بن زيد، لأجل ثأر أبيه.

ولذلك كان يستعمل الرجل لمصلحة، مع أنه قد كان يكون مع الأمير من هو أفضل منه، في العلم والإيمان.

وهكذا أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ رضي الله عنه ما زال يستعمل خالداً في حرب أهل الردة، وفي فتوح العراق والشام، وبدت منه هفوات كان له فيها تأويل، وقد ذكر له عنه أنه كان له فيها هوى، فلم يعزله من أجلها، بل عاتبه عليها لرجحان المصلحة على المفسدة، في بقائه، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه». انتهى كلامه رحمه الله.

وقد كان أصحاب الحديث أكثر من أبرز هذا المنهج، وأعلى من شأن التّخصّص، وعرف منزلة صاحبه. قال عمرو بن محمّد النّاقد: «سمعت وكيعاً وسأله رجل فقال له: يا أبا سفيان: تعرف حديث سعيد بن عبيد الطّائي عن الشّعبي في رجل حجّ عن غيره ثمّ حجّ عن نفسه؟ قال: من

يرويه؟ قال: وهب بن إسماعيل، فقال: ذلك رجل صالح، وللحديث رجال».

وقال زكريا الساجي عن يحيى بن معين قال: كان محمد بن عبد الله الأنصاري يليق به القضاء، فقيل له: يا أبا زكريا فالحديث؟ فقال:

للحرب أقوامٌ لها خُلِقُوا *** وللدواوين حُسّابٌ وكُتّابُ

وقال يحيى بن سعيد القطان: «آتَمِنُ الرجل على مائة ألف ولا آتمِنُه على حديث».

وعن ابن أبي الزناد عن أبيه قال: «أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ما يُؤخذ عنهم شيء من الحديث، يُقال: ليس من أهله».

وقال مالك بن أنس: «إن هذا العلم دين؛ فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركت سبعين عند هذه الأساطين، وأشار إلى مسجد الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- يقولون قال رسول الله ﷺ، فما أخذت عنهم شيئاً، وإن أحدهم لو ائتُمِنَ على بيت مال لكان به أميناً، إلاّ أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن».

وهذا الحِسّ التقييمي المنهجي قائم على البصر والمعرفة ما يؤول إليه حال الأمّة إذا تساهل الناس فيه، قال عليّ بن المديني: «لو تركتُ أهل البصرة لحال القدر، وتركتُ أهل الكوفة للتّشيّع: خربت الكتب» أي لذهب الحديث.

وقال سليمان بن أحمد الواسطي: «قلت لعبد الرّحمن بن مهدي: سمعتك تحدّث عن رجلٍ، أصحابنا يكرهون الحديث عنه؟ قال: مَن هو؟ قلت:

محمّد بن راشد الدّمشقي، قال: ولِمَ؟ قلت: كان قدريّاً، فغضب وقال: ما يضرّه».

وقال محمّد بن عبدالله بن حمّاد الموصلي: «لست بتارك الرّواية عن رجل صاحب حديث يبصر الحديث بعد ألاّ يكون كذوباً للتّشيّع والقدر، ولست براوٍ عن رجل لا يبصر الحديث ولا يعقله، ولو كان أفضل من فتح الموصلي».

نحتاج كثيراً إلى توقف وتأمل في أوضاعنا الّتي تغوّلت فيها المصالح الشخصية أو الفئوية، وأحياناً الفهم المغلوط للمصالح الشرعية، والمظلوم في خضمّ هذا التغوّل هو الكفاءة والاحتراف والإتقان الّذي سيتلاشى، ويختفي أصحابه إذا لم يجدوا الإنصاف والتقدير، ونظرة خاطفة على الأقسام الشرعية في الجامعات والقضاء والمؤسسات الدعوية توقفك على حجم الخلل الذي دخلها من هذا الجانب، وقُلْ مثل ذلك في مجالات أقلّ مساساً بالجانب الشرعي، فتجد أشخاصاً ربّما يُلتمس لديهم البركة من دينهم وعبادتهم، ويلهمك النظر إلى وجوههم ذكر الله، ولكنّهم ليسوا بأهل لشغل ما هم فيه من الوظائف، وتحمل ما حُمّلوه من المسؤوليات، فيحصل من طرفهم من التقصير الشيء الكثير، ثمّ يُجاملون ويُتركون في أماكنهم حتّى يحصل الضرر العظيم، ويكون هذا فتنة للناس، وحجة للمنافقين الذين يلصقون بالدين وأهله كل نقيصة.

انتقل إلى الفهرس

الإرجاء

الإرجاء هو إخراج العمل من مسمى الإيمان الشرعي، هذا هو أسّه وأساسه، ثم فرق المرجئة متفاوتة بعد ذلك في تعريفها للإيمان، منهم من قال إنه مجرد معرفة القلب وهم الجهمية، ومنهم من قال إنه القول فقط وهم الكرامية، ومنهم من قال هو تصديق القلب فقط وهم المتكلمون، ومنهم من قال هو تصديق القلب وقول اللسان فقط وهم مرجئة الفقهاء أو بحنيفة ومن معه.

وبطبيعة الحال وقف السلف من الإرجاء والمرجئة موقفا قويا معروفا مشهورا في كتب العقيدة والسنة والتاريخ.

ولعل هذه البدعة هي أكثر بدعة تم الحديث عنها في الثلاثين سنة الماضية، والسبب في ذلك أن الإيمان ومسائل الإيمان كانت قميص عثمان الذي رفعه الصحويون ضد السلفيين، والناظر بعين الإنصاف يكتشف أن سبب كل هذا الضجيج حول مسائل الإرجاء والإيمان سببه ما اتفقت عليه كلمة السلف وتابعيهم بإحسان من أن الحكم بغير ما أنزل الله حكمه حكم سائر الكبائر، أي أن فاعله يخضع للنظر الفقهي من حيث اعتقاده حل الحكم بغير شرع الله أو تفضيل غيره عليه أو مساواته به فهذا كفر أكبر مخرج لصاحبه من الملة.

أما إذا حكم بغير شرع الله معترفا بالذنب ومعتذرا بأعذار أهل الكبائر فهو مسلم فاسق بكبيرته، ولكنه باق على حكم الإسلام.

وهذا التأصيل يخالف ما يرمي إليه جماعات الخروج والفوضى، إذ إن أهم ما يسوّقون به مشروع الفوضى والخراب هو تكفير الأنظمة العربية لأنها تحكم بغير شريعة الله.

وجاؤوا من عندياتهم بتأويلٍ تأوّلوا به كلام السلف في عدم كفر الحاكم بغير ما أنزل الله، وقالوا: إن ذلك في القضايا العينية، أما التشريع العام فهذا كفر باتفاق السلف – زعموا –.

فلما صدرت الفتوى من الشيخ الألباني بعدم كفر الحاكم بغير ما أنزل الله إذا لم يستحل أو يفضّل أو يساوي به غيره، ووافقه الشيخ ابن باز رحمه الله ووافقهما الشيخ ابن عثيمين إذا بهم يثيرون البلبلة والقلقلة ولكن أنى لهم وقد واجههم الأئمة الثلاثة؟

عند ذلك عطفوا على كلامٍ للشيخ الألباني قرّر فيه وشرح معنى قول السلف في الإيمان أنه قول وعمل، وقال إن العمل شرط كمال في الإيمان.

فالتقطوا هذه الكلمة ونفخوا فيها كما ينفخ الساحر في العُقَد، فسحروا عقول الأتباع واستجهلوهم وجاؤوا بسحر عظيم، وقالوا إنّ الشيخ الألباني وقع في الإرجاء، وأنه لهذا لا يؤخذ منه في مسائل الكفر والإيمان، وانبرى أتباعهم الذين أشرنا سابقاً إلى قربهم من بعض العلماء الكبار فصوروا لهم الأمور على غير صورتها واستصدروا منهم بيانات طعنوا فيها في عقيدة الشيخ الألباني من طَرْف خفيٍّ عبر الطعن في طلابه الذين حملوا عنه ومن أمثلهم الشيخ علي حسن عبدالحميد رحمه الله.

ولست هنا في صدد الحديث عن المسألة نفسها فقد قيل فيها الكثير نفيا وإثباتا.

وإنما الغرض بيان أن القوم -والله- ما اكترثوا للعقيدة ولا كانت هي مرامهم، كيف وهم في نفس الوقت يتولّون رؤوساً من أهل البدع ما بين ماتريديٍّ وصوفيٍّ وأشعريٍّ بل ورافضي، فأين غيرتهم على العقيدة؟

أمّا رؤوس الخوارج وجماعاتهم ودفاعهم وعنهم والاعتذار لهم فحدث ولا حرج.

بل كل همهم هو إبطال وإضعاف ما قرره السلف ونشره السلفيون من عدم الحكم بكفر الحاكم بغير ما أنزل الله ما دام لم يصرح بشيء من مسوغات الحكم بكفره التي ذكرناها.

لكن الصحويين رفعوا قميص عثمان الذي ذكرناه وادعوا خطورة فكر الإرجاء على الأمة وما تركوا سلفياً خالفهم في مسائل السمع والطاعة وتحريم الخروج إلا اتهموه بالإرجاء صراحة أو لمزا وهمزاً.

مع أن كثيرا من أتباعهم وخصومهم لا يدري شيئا عن الإرجاء ولا عن حقيقته، وبعد ذلك لا يدري عن حقيقة المسألة التي وقع فيها الخلاف، أني مسألة جنس العمل.

ورغم أن الشيخ ابن باز رحمه الله والشيخ ابن عثيمين -وكفى بهما- كلاهما قد زكى الشيخ الألباني في معتقده عامة وفي باب الإيمان خاصة وفي نفس مسألة الحكم بغير ما أنزل الله على وجه أخص، إلا أن القوم استمروا في تهمة الألباني والتشنيع عليه وعلى كل موافقيه، لا لسبب إلا أنه هدم

طاغوتهم الأكبر، أعني: تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله، وهو الرحى التي تدور حولها قضاياهم وأصولهم وحراكهم الدعوي سابقاً والثوري لاحقاً.

والعجب كل العجب أنّهم ألحقوا بالسلفيين كل ما يصيب الأمة وجعلوهم سببا في ذلك عن طريق إلباسهم لباس الإرجاء ومن ثم نقل كلام عن السلف في الإرجاء والمرجئة، مستغلين ضعف عقول وعلم أتباعهم.

فتأخر الأمة ليس سببه وقوع الشرك فيها ولا انتشار الخرافة والبدع، وإنما الإرجاء.

والاستعمار ووقوع الأمة تحت حكم الاستعمار هو سبب الإرجاء.

ووقوع المسلمين في الذنوب والمنكرات سببه الإرجاء.

وهكذا كل جريرة ألحقوها بالإرجاء، وليتهم ركزوا على المرجئة الحقيقيين، وإنما جعلوا هدفهم السلفيين فقط.

وحتى تتصور الأمر أشرجه لك كما يلي:

سبق أن قلت لك أن من فرق الإرجاء المتكلمون، وهم من يقول إنّ الإيمان هو تصديق القلب فقط، وبنوا على ذلك أنه لا يزيد ولا ينقص، وأنه لا استثناء فيه، وأن صاحب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، بل ومن ظهر عليه الكفر كقتل النبي أو سب الله ورسوله قد يكون مؤمنا إذا كان مصدقا بقلبه.

وهؤلاء يمثلهم الأشاعرة والماتريدية بشكل صريح وواضح.

فما هو موقف الصحويين منهم؟ إنه المسالمة والموادعة في واقع الحال، فهم أخدانهم ورفقاؤهم ولا يدينونهم بشيء، بل يزكونهم ويجعلهم بعضهم أئمة في الدين والدعوة.

أما السلفيين الذين يصرحون ليل نهار بأن الإيمان قول وعمل كما يقوله السلف، وأنه يزيد وينقص كما يقوله السلف، وأنه يقبل الاستثناء كما يقوله السلف، وأن مرتكب الكبيرة ناقص الإيمان لا يستحق اسم المؤمن بإطلاق كما يقوله السلف. وأنخ تحت المشيئة في الآخرة كما يقول السلف، وأن من سب الله أو ارتمب شيئا من أفعال الكفر فهو كافر ظاهرا وباطنا إن قامت عليه الحجة، كما يقوله السلف.

فما هو موقف الصحويين منهم؟ الحرب الشعواء، لماذا: لأنهم لا يوافقون الصحويين على مسألة تكفير الحكام ومسائل السمع والطاعة لولي الأمر.

حتى لو كان من السلفيين من قال إن تارك جنس العمل لا يكفر، أو كان منهم من قال إن من ظهر منه فعل الكفر لا يكفر إلا إن قصده، ونحو ذلك فغاية الأمر أنه خالف السلف، لكن أيهما أشد مخالفة؟ هؤلاء أم أولئك؟

الجواب ظاهر معروف، فلماذا إن حمل الصحويون على الأخيرين ولم يفعلوا ذلك مع الأولين؟

السبب أن الأولين هم رفقاء الجماعة والحزب أو الحلف بينها المتفقين على كفر الحكام وهدف إسقاط الأنظمة والتوثب للاستيلاء على الحكم في بلاد المسلمين. هذا هو فقط لا تفسير إلا هذا.

ومن هنا عرفنا في تلك الأيام شدة نفاق القوم وخبث طوياتهم واستبطانهم الخيانة والغدر ولو أظهروا للأمة وحكامها معسول الكلام وأنهم بعيدون عن تكفير المسلمين والحكام وأنهم ـهل دعوة فقط وأنهم أهل غيرة على الدين وأحكامه فقط.

ولك أن تتخيل شخصا يشرح الطحاوية يجتمع على جموع من الجهال الجالسين حوله رسالة تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله والتي قرر فيها حكم الحاكم إذا جعل للناس محاكم تحكم بغير الشرع، والكلام عنها طويل الذيل، وإنما أردت أن أبين لك كيف استولت قضية تكفير الحكام على تصوراتهم وأهدافهم.

فماذا يستفيد عوام الناس ومنهم شباب صغار بعضهم لا يفقه أحكام الصلاة، ماذا يستفيد من شرح رسالة تتحدث عن مسألة عظيمة وكبيرة وفيها أقوال وتحتاج إلى مجمع فقهي لتوضيح ما فيها إثباتا أو نفيا، ماذا يستفيد الشباب الصغار الجهال -وكنت يومها أحدهم- إذا اقتنعت أن من سن قانونا واحدا فقط يكفر بالله كفرا أكبر، ثم يرجعون يتأملون ما في واقعهم من تشريعات أو قوانين يرون أنها مخالفة للشرع، فتنشغل أوهامهم وأفكارهم بكفر الدولة التي يعيشون فيها لأنها تحكم بغير ما أنزل الله.

وهو ما حصل ويحصل كثيرا في دروسهم حين يسألون عن حكم المملكة وحكامها عن طريق سؤال من مثل: ما حكم من أوجد البنوك الربوية المحمية بقوانين تجارية؟ ما حكم إحالة القضايا التجارية إلى محاكم تجارية دون المحاكم الشرعية؟ ما حكم تشكيل لجان للقضايا الإعلامية ومحاكمة أصحابها وفق قانون وزارة الإعلام لا المحكمة الشرعية؟ وغير هذا كثير.

وعادة ما يكون جوابهم مراوغا لا يفهم منه قطع بإسلام أو كفر، وإنما يقررون أن الحكم الشرعي هو الكفر أما الواقع فيحتاج إلى إقامة الحجة وانتفاء الموانع.

أي أن الأمر راجع للناظرين فمنهم من يرى أن الحجة قامت على الطولة بوجود العلماء وانتفت عنهم موانع الجهل والإكراه وبذلك يصح عنده كفر الدولة وحكامها وعسكرها، وهو ما نتج عنه فيما بعد أحداث التكفير والتفجير.

ولهذا لما قام السلفيون بالإنكار عليهم طرح مثل هذه المسائل وتقريرها خلاف ما قرره أئمة السلف وأهل العلم الكبار في هذه البلاد وغيرها لم يكن منهم إلا رمي المخالفين لهم بالإرجاء وخدمة السلاطين وغير ذلك من التهم التي كشفها الله من عنده وفضح مراميهم عندما تهيأت لهم فرص الانقضاض والوثوب على أمور الحكم في بلاد المسلمين وظهرت على ألسنتهم ما أخفته قلوبهم وفضحت أفواههم ما أكنّته صدورهم، والحمدلله أولا وآخرا.

❁ ❁ ❁

انتقل إلى الفهرس

الواحة

المجتمع الدعوي والعلمي والتجمعات الإسلامية مثل الواحة التي يعثر عليها المسافر في وسط الفيافي والصحاري المقفرة الحارّة، يراها من بعيد فيسلبه جمالُ خضرتها ونضارةُ مياهها عقلَه وتفكيرَه، فيغذّ إليها السّير ممنياً نفسه بعيش لا كالعيش، وراحة بال لا نظير لها.

وينسى أو يجهل في خضمّ فرحته بها أنّ الواحة بأشجارها ومياهها لا تخلو من أنواع الدوابّ والهوامّ القاتلة، وكم من رجل كان حتفه مدسوساً في قعر لذّاته.

ومن الأمور التي يجب أن تكون من العلم المشاع أنّه لا عصمة لأحد بعد الأنبياء، فالعبد مهما بلغ في مراتب العلم والدين والزهد والعبادة يظل عرضة للزلل والخطأ وعوارض النقص البشري.

ومذهب السلف في الإيمان:

أنّ العبد يجتمع فيه الإيمان وشعبة من شعب الكفر أو النفاق، فلا تناقض بين أن يكون الرجل مشهورا بالعلم والدين ويكون مع هذا متلبساً ببعض المعاصي أو الصفات الذميمة كالشحّ والظلم والبغي.

بل إنّ السلامة ليست من شروط الولاية والتقوى، كما قال تعالى معدداً صفات المتقين: (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ

انتقل إلى الفهرس

ڤ ڤڤ ڤ ڦڦ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ
ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ) [آل عمران:١٣٣-١٣٦].

وإذا كان كذلك، فمن الطبيعي جدا أن يصادف المرء في المجتمع الإسلامي والدعوي والعلمي أو الجهادي أفراداً متلبسين بأنواع من ظلم النفس أو ظلم الغير، ولا يضرّ هذا أصل القاعدة، وهي أنّ الولاية والتقوى والحب والبغض والولاء والبراء والحمد والذم متعلق كلّه بالغالب على العبد وما يظهر للناس، فمن غلب خيرُه شرَّه فهو من أهل الخير، والعكس صحيح.

وهذا الذي قلناه يجب أن يكون معلوماً مشاعاً لكل الناس، إذ العلم بهذا كفيل بدعم الوافد الجديد على المجتمع والبيئة الصالحة لتحمل الصدمات التي قد يصادفها حين يرى في الأشخاص الذين كان يعدّهم صفوة الخلق وخلاصة الناس ما لا يتفق مع تلك الصورة الخيالية المغرِقَة في المثالية.

كما أنّ هذا سيريح الناس من القيل والقال الذي يدور كلّما كشف الزمان خبايا بعض الصالحين من دعاة أو قضاة أو علماء حتّى، فقد اعتدنا أن يطير بهفوات الصالحين وزلاتهم بعض المجموعات الشاذّة عن الأمّة، ذلك لأنّها تظنّ أنّ الدعاة أو العلماء يقدمون أنفسهم كما يقدّم الرهبان والقساوسة أنفسهم في النصرانية على أنّهم أفراد سامون فوق مستوى النزعات البشرية، والمفترض فيهم أنّهم لا يقعون في ما يستحق الذم والعقاب.

يقول بعضهم: « والدعوة إلى البِرّ والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك؛ لا في الدعاة وحدهم، ولكن في

الدعوات ذاتها، وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم، لأنهم يسمعون قولاً جميلاً، ويشهدون فعلاً قبيحاً؛ فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل؛ وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة؛ وينطفئ في قلوبهم النور الذي يشع الإيمان؛ ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين ».

وهذا التصوّر رغم واقعيّته إلاّ أنّه خطأ، فالعقيدة السلفية امتداد لمنهج الصحابة الكرام الذين كانوا يقدمون أنفسهم على أنّهم دعاة وهداة مع أنّ بعضهم كان واقعاً في بعض تلك النقائص البشرية، فمنهم من شرب الخمر ومنهم وقع في الزنى ومنهم من اقتتل على أمور من الدنيا بنوع تأويل وغير ذلك، ومع هذا فهم الصفوة وهم الخيرة من خلق الله لأنّهم أصلاً لم يدّعوا عصمة من الزلل.

فلا عجب إذن أن تصلي خلف إمام يبكي قبل أن يبدأ بالفاتحة فإذا انتهت الصلاة وقع في أعراض النّاس بغير حق، نعم لا عجب فهذا هو البشر، لا أقول إنّه لا تناقض، بلى إنّه كذلك، فالخوف الحقيقي ليس بذرف الدموع وإنّما هو ذلك الذي يحجز صاحبه عن المعصية، وإنّما غرضي أنّه لا تناقض بين ولايته العامّة وتقواه وبين وقوعه في الخطيئة لأنّه ليس بمعصوم.

ولا عجب أن تسمع العالم يشرح حديث الزهد والورع ثم تراه بعد ذلك يستحلّ أنواع من البيوع المحرمة أو المشبوهة بنوع تأويل، نعم لا عجب فهو في النهاية بشر.

ولا عجب - أخيراً – أن تخالط الأخيار من علماء أو دعاة فترى منهم الظلم لبعضهم البعض، وترى التحاسد والتنافس غير الشريف، نعم لا عجب فهم في النهاية بشر.

كلّ هذا نقوله لا دفاعا عن المخطئ ولا تسويغاً للخطيئة، وإنّما تقريراً لحقيقة تغيب عن كثير من الناس ويجهلونها فتكون الصدمة بسبب الجهل بها سبباً في السقوط ومن ثمّ الرجوع إلى حالة من العداء للدين وأهله بكافة شرائحهم من علماء ودعاة.

وعادة ما تجد الحجة التي يرتكز إليها هؤلاء في تسويغ وتطبيع انحرافهم وسقوطهم هو ما علموه بسبب قربهم من الواقع الدعوي أو الجهادي من مخاز أو نقائص لا يسلم منها بشر، والأخطر أنّ هؤلاء تتلقفهم الجهات المعادية للدين وتفتح لهم المجال للبوح بأمور لا تخفى على أهل العلم ولا يعجبون لها، لكنّها عند هؤلاء صيد ثمين يستغلونه للطعن والتشويه والصدّ عن سبيل الله منتفعين كثيراً بما يلقيه عليهم المتساقطون.

انتقل إلى الفهرس

لماذا نام الصحويون؟

أذكر في أول أيام دراستي في الجامعة الإسلامية بالمدينة أن دار نقاش حول الصحوة في منزل أحد الأساتذة ممن يُنسب للصّحويين، وكان مما قيل: إنّ هذا المصطلح هو من ابتكار الاستخبارات الأمريكية، سمَّت هذه الحالة بها، وأنّه اختيار له هدفه، فلكل صحوة نومة، والمعنى أن هذا الحراك القوي الذي فوجئ به العالم الإسلامي له محركاته وله من يراقبه ويسهم في توجيهه واستغلاله حتى لو من خلال التحالف معه ودعمه.

وهذا إشارة منهم إلى دور مهم وتدخل من قبل القوى الخارجية في الحراك الدعوي عامة والصّحوي خاصّة.

والذي أحب أن أختم به هذه المجموعة الإشارة إلى موت الصحوة أو نومتها أو هزيمة المشروع الإسلامي أو غير ذلك من التعبيرات التي سُميت بها مرحلة ما بعد الصحوة، لأن المشاريع التي تبنتها وشجعتها الصحوة باءت كلها بالفشل الذريع سواء منها العسكري أو السياسي.

وفقدت الصحوة جزءا كبيرا جدا من زخمها الشرعي والجماهيري، والمؤسف أنّ الي ورث تركتهم واستغلها ووظفها هو المشروع الإيراني الذي تبنى كل الطرح الثوري في بلاد المسلمين وشجعه من خلال دعم جماعات الثورات وتخادم معها لينفذ من خلالها إلى السيطرة على البلاد العربية وهذا ما حصل في عدد منها لولا رحمة الله وحسن تدبيره للمسلمين.

عموما فإنّ الصحويّين يتقنون فن إلقاء اللوم على العدو، أي أن فشل مشاريعهم ونكوص الدعوة وتقهقرها سببه كيد الكفار والمنافقين ، وأنهم مظلومون وأن الدعاية الصهيونية والصليبية العالمية هي التي أدت إلى خسارتهم .

وهذا مؤسف جدا أنّ الصحويّين ما زالوا إلى الآن رغم كل هذا لا يحاولون استلهام الدروس والاعتبار بالأحداث والاعتراف بالأخطاء، بل ما زال هناك إصرار على أنّ الخطأ وإن حصل ليس هو سبب النكسة مع أنّنا نعلم ما حصل للنبيّ ﷺ وأصحابه في أحد.

الغرور وإلحاق السبب كله بكيد الكفار للأمة، وبصنع عملاء الكفار الذين هم في تصورهم حكام البلاد العربية والمسلمة، فهم السبب وسيظلون يذكرون ذلك في مجالسهم ولأتباعهم، يسوّغون به فشلهم في بناء مشروع الإسلام الحضاري الشرعي في فترة تهيأت له كلّ أسباب النجاح المادي، ففشلوا في عقر دورهم، لا يريدون أن يعترفوا بالأخطاء الحقيقية، وسيلحقونها بكل أحد إلاّ هم، بدءا من الكفار إلى الحكام إلى العلماء التقليديين كما يسمونهم إلى السلفيين.

وهذه شنشنة عهدناها منهم، ولا يهمنا هنا مطارحتهم النقاش، ومن تأمل في العناوين التي تحدثنا فيها في هذه الورقات لن يصعب عليه تصور الحقيقة وفهم أسباب السقوط والنكوص الذي لم يخسر فيه إلا مشاريع الخراب والدمار والفوضى وعرابوها، أما الدين والشريعة فلا خوف عليها أبداً، ولا يشك أحد في علو شأنها إلاّ مرضى القلوب وأهل الشك والريب.

انتقل إلى الفهرس

فالدين قوي موجود وسيبقى كذلك، والدعاية الإعلامية وطفوّ عفونات المرحلة يُصَوِّر للناس أنّ الأمر كما قال واحد من أعداء الشريعة فرحا منتشيا "نحن باقون"، يعني أنّه استطاع القضاء على الدين والسنة وأحكام الشريعة التي يحاربها تحت عنوان الإرهاب والتطرف وهو مخطئ جدا.

الفشل الذي نتحدث عنه هو فشل العاملين في الدعوة في المحافظة على الدين والشريعة في نفوس الجيل الناشئ وتسليمها لمن بعدهم نقية، ولا يهم من يقبل ومن يرفض، من يهتدي ومن يضلّ، فهذا أمر الله والأمر له من قبل ومن بعد.

المهم أنّ الفشل الحقيقي هو ترك الشريعة والسنة كما فعل رموز الصحوة للأسف.

والاستشهاد بما صحّ من أنّ من الأنبياء من يأتي يوم القيامة وليس معه أحد لا ينفعهم، لأن ذلك النبيّ امتثل الأمر والنهي، واهتداء الناس ليس له بل لله، أمّا الصحويون فتركوا السنة ثم قالوا: لا يهم عدد الأتباع مع أنّهم أحرص الناس على الاستكثار من الأتباع، بل لا تقوم لهم دعوة ولا حركة إلاّ بالتكثير ولو على حساب الدين والمنهج، ولأجل الكثرة والتجميع تنازلوا عن الثوابت، وهذا وحده كفيل بكشف زيف انتمائهم للدعوة للإسلام والشريعة.

نام الصحويون لأن سنّة الله تعالى في مخالفيها أنها لا تنفعهم بل تكون مخالفتها سببا في عقوبتهم العقوبة الدنيوية المتمثلة في الفشل وتسليط العدو، وأما الآخرة فإلى الله.

لابد قبل اتهام الآخرين – وهم أهل للتهمة- أن نبدأ بمحاسبة أنفسنا على الأخطاء التي وقعنا فيها فظلمنا أنفسنا وظلمنا الدعوة وظلمنا المجتمعات التي عشنا فيها، فأشغلناها وانشغلنا بما لا طائل وراءه، بل عاد علينا وعلى الدعوة نفسها بالنكوص والتراجع.

وفي القرآن أمثلة لهذا الأدب الرفيع أعني محاسبة النفس والحمل عليها قبل الحمل على الآخرين وتحميل الأعداء –حقيقيين أو متوهمين- مسؤولية الخسارة والفشل، قال تعالى : ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾[آل عمران:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[النساء:٧٩].

نام الصحويون لكن الدعوة باقية قوية وتكسب نقاطها دون ضجيج الصحويين وخصومهم، لأنّ المنهج السلفي يقوم على مراعاة السنة والكتاب ولا يهمه العناوين أو الدعاية أو الاستعراض .

قد يصاب بالضعف في آلياته وإمكاناته، صحيح، لكن هذه سنة الله في أتباع النبيّ ﷺ ، فكما مر على دعوة النبي ﷺ مرحلة استضعاف وصبر ثم قوة وتمكين فكذلك أتباعه، وكل مشروع وبناء ومؤسسة دعوية تسير على خطى النبي ﷺ وتنتهج منهجه فسيكون لها مما أصابه نصيب ابتلاء ونصرا وتمكينا.

انتقل إلى الفهرس

وليس شرطاً أن يكون هذا في حياة الداعية، بل قد يموت ولا يرى أثر دعوته وكفاحه، لكن الله تعالى يكتب أجره وهذا هو المهم.

مات مصعب وحمزة وياسر وزوجته وعدد من المسلمين الأوائل ولم ير مُلك الإسلام في عهد عمر وعثمان ممتداً من أقصى الشرق والغرب.

ولكنهم شركاء من بعدهم في الأجر لأنهم السابقون وإن اخترمتهم امنية واصطفاهم الله : ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:٢٣].

❀ ❀ ❀

الفهرس

اضغط على رقم الصفحة للانتقال للموضوع مباشرة

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
لماذا الآن؟	٩
ما قبل الصحوة	١٥
الحداثة	٢٣
الصحوة الإسلامية	٤٢
الإخوان المسلمون	٦٩
السرورية	٨٥
الجامية	١٠٤
التبليغ	١٣٠
وهم التأثير	١٣٥
اختصار!	١٣٩
طارقوا الأبواب	١٤٥
أفلاطون السلفي!	١٥٠
أبو ذر "المعاصر"!	١٦١
الحالة الوطنية في المملكة السعودية	١٧٥
الوطنية!	١٨٩
العلاقة بين الحاكم والمحكوم	٢٠٨
غلاة الطاعة!	٢١٦
اقتلوني ومالكاً	٢٣١

الانتقائية	٢٣٥
الارتباط بالأشخاص	٢٤١
الجماهيرية	٢٤٣
الجهاد ومفهومه	٢٤٧
العلماء	٢٦٠
الدنيا	٢٦٥
الآخَر	٢٦٩
جاهلية الدعوة	٢٧٢
الخروج	٢٧٨
الإغراق	٢٨٦
الواقعية والمثالية	٢٨٩
إنه عمل غير صالح	٢٩٥
التكفير	٢٩٩
تحكيم الشريعة: المفهوم الغائب	٣٠٧
الحوار من مبدأ حسم الصراع	٣١٤
خطابات الصف الأوّل	٣١٩
الفضيل بن عياض وزيراً	٣٢٢
الإرجاء	٣٣١
لماذا نام الصحويون؟	٣٤٢